غرائب
وعجائب الفراعنة

بكر محمد إبراهيم

الناشر

مركز الراية للنشر والإعلام

اسم الكتاب : غرائب وعجائب الفراعنة

بقلــم : بكر محمد إبراهيم

الطبعة الأولى ٢٠٠٤

الناشر مركز الراية للنشر والأعلام

فكرة الكتاب : للناشر أحمد فكرى .

رقم الإيداع : ٢٠٠٤/٥٥٨٣

الترقيم الدولى
I.S.B.N. : 977 - 354 -039 - 1

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبى بعده رسول الله محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له فى حكمه.

وبعـــد ،،،

فهذا كتاب يتناول غرائب وعجائب الفراعنة مستعرضا التاريخ الفرعونى كله من الأسرة الأولى حتى الأسرة الثلاثين مع التعرض للكثير من غرائبهم وعجائبهم ويحوى معارف هامة جداً وغزيرة عن تاريخ هؤلاء الأجداد أصحاب الحضارة القديمة والعلوم والمعارف التى كانوا يعلمونها وأخبار هذه الحضارة وتوصلهم إلى كثير من الأسرار التى أهلتهم لإشادة هذه الحضارة التى مازلنا حتى الآن نتعجب منها ولا ندرى الكثير من أسرارها وكيفية وصولهم إلى هذا المبلغ من التقدم المادى والعلم الأدبى .

كما يتناول هذا الكتاب الموسوعى البيت الفرعونى وأسرار كتاب الموتى وعقائد الفراعنة فى الموت والبعث والحساب، وتفاصيل هذه العقائد حيث نستعرضها بصورة فيها الكثير من الإسهاب والبيان .

ويتناول الكتاب الشعب المصرى إبان العهود الفرعونية ويستعرض ملوك مصر الفراعنة الذين شادوا الأهرام ونبذة عن الأهرام .

كما يتناول الكتاب استعراض تاريخ طويل فى نهب الآثار الفرعونية بشئ من التفصيل والإسهاب وعظمة هذه الآثار وتأثيرها فى الشعوب وانبهار العالم بها أشد الانبهار. ولنترك القارئ العزيز يتصفح الكتاب ليستمتع بما فيه من غرائب وعجائب وأسرار مذهلة .

مع العلم بأن الدولة من عدة عقود قد شددت قبضتها على الآثار غير أن الجرعة - جرعة سرقة الآثار مازلت مستمرة لأن الجريمة باقية إلى نهاية هذه الدنيا .

غير أن الأمور قد أحكمت كثيراً عما مضى ، وصارت السرقة فى نطاق أضيق كما عرف كثير من المصريين قيمة الآثار وصار الحفاظ عليها أكثر من ذى قبل حيث سبق أن دمرت كثير من الآثار بكم هائل ورهيب، كما أن الدولة مشكورة ممثلة فى وزارة الثقافة وهيئة الآثار والمجلس الأعلى للآثار تطالب وبإلحاح باسترداد كثير من الآثار الفرعونية المنهوبة بطريقة ودية مع الدول التى يوجد لديها هذه الآثار بطريق التهريب والسرقة .

أما الآثار التى تم اهداؤها إلى الملوك والأفراد فلا تتم المطالبة بها باعتبارها وهبت من مصر بطريق قانونى مثل الآثار التى تم إهداؤها بعد أن قامت اليونسكو، بنقل المعابد الفرعونية التى كانت ستتعرض للغرق بسبب إنشاء السد العالى .

فهذا الكتاب الموسوعى يستعرض كل هذه الموضوعات بطريقة شيقة تضفى ألواناً من المعرفة والثقافة والإلمام بالتاريخ الفرعونى فالحاضر امتداد للماضى.

والحمد لله أولا وآخراً ...

المؤلف

بكر محمد إبراهيم

عضو اتحاد الكتاب

غرائب وعجائب (١)

يقول بريان م. فاجان غادر جيوفانى بلزونى الديار المصرية فى وقت وصل فيه اهتمام أوروبا بالآثار المصرية إلى الذروة، فقد كانت موسوعة «وصف مصر» فى الطريق إلى الظهور .

وكان المثقفون والأثريون والموسرون الأوروبيون فى صدورها على أحر من الجمر، وفى مصر كان محمد على باشا يعامل الأوروبيين معاملة تتسم بالود، لذلك زاد نفوذ قنصلى بريطانيا وفرنسا عند الباشا .

وكانت النتيجة أن أصبحت رحلات السياح أكثر سهولة فازداد عددها، خصوصا بين الأثرياء، ونشطت السياحة فى وادى النيل بعد أن كانت وقفا على عدد محدود من الدبلوماسيين والمغامرين.

أما المغامرون فقد بهرهم جميعاً المارد الايطالى بلزونى، فقد استطاع هذا المغامر الفذ أن يحقق فى ثلاث سنوات عجاف، ما أذهل الجميع ففى تلك المدة البسيطة استطاع أن يكتشف مقبرة سيتى ويستكشف أبى سنبل ويفتح الهرم الثانى - هرم خفرع- وينقل رأس أحد تمثالى ممنون (ممنون الصغير فى النص) وكذلك مسلة فيلة كما أمكنه أن يستحوذ على كمية لا بأس بها من الآثار الخفيفة بعضها لحساب القنصل البريطانى -سولت- وبعضها لنفسه.

توقف بلزونى فى روما أولا لكنه لم يمكث بها طويلا ثم سافر إلى لندن. كان وصوله إلى لندن فى آخر مارس سنة ١٨٢٠، وعند وصوله أعلنت النبأ جريدة لندن تايمز: «عاد الرحالة الشهير السيد بلزونى إلى أوروبا بعد غياب استمر عشر سنوات أمضى منها خمسة فى الكشوف الأثرية بمصر والنوبة، ثم

(١) نهب آثار وادى النيل- بريان م. فاجان ت د/ أحمد زهير أمين- مراجعة / محمد ماهر طه، م. الأسرة.

نوهت بأن «بلزونى بصدد إقامة معرض للقبر الجميل الذى اكتشفه ، وذلك حالما تتيسر صالة مناسبة للعرض».

استقبل بلزونى فى لندن بحفاوة ونوهت الدورية ربع السنوية المشهورة بمكتشفاته، ووجدها بلزونى فرصة مناسبة لإصدار كتاب يعرض فيه إنجازاته، واستقر الرأى على أن يعهد بالنشر إلى السيد جون موراى أكبر الناشرين الإنجليز فى القرن التاسع عشر، وكان واحداً من المتخصصين فى نشر أدب الرحلات فى ذلك الوقت، كان تمثال ممنون قد وصل إلى المتحف البريطانى واتخذ مكانه للعرض على الجمهور، لذلك كان بلزونى يتعجل إصدار الكتاب قبل أن يفتر الحماس، خصوصا وأن الجمهور أصبح متشوقا لمعرفة شىء عن مصر و«آثارها، ولم تكد سنة ١٨٢٠ تنتهى حتى ظهر كتاب بلزونى فى جزئين.

صدر الكتاب تحت عنوان طويل جدا هو : «حكايات عن الأعمال والاستكشافات الجديدة فى الأهرام والمعابد والمقابر، والحفائر فى مصر والنوبة، ورحلة إلى ساحل البحر الأحمر للبحث عن برنيس القديمة، ورحلة أخرى إلى جوبيتر أمون» وقد نجح الكتاب على الفور (أى وجد إقبالا من الجمهور).

ولكن أسلوبه لم يكن مشوقا، كما أنه لم يسلم من الخطأ فى التعبير، وربما أدرك بلزونى ذلك النقص فقال فى الافتتاحية «سوف يريح الجمهور صدق الروايات، بما يعوضه عن النقص فى الأسلوب» كانت بعض حكاياته مثيرة للجدل.

وكان فى هجومه على منافسيه عنيفاً- خصوصا القنل دورفيتى، لكن السرد العام للموضوعات كان لا غبار عليه، ولكن به هفوات قد يتغاضى عنها القارئ المتعاطف معه، المقدر لجهوده وعمق تجربته، وكان يرافق الكتاب ملف يحتوى على اللوحات والصور- وكانت فى ذلك الوقت باهظة التكاليف، والملف -حالياً- نادر الوجود، وعموما فقد استقبل النقاد الكتاب بقبول حسن، وقد اطلع

الشاعر المعروف اللورد بيرون على الكتاب فقال «إن بلزونى رحالة عظيم، لكن إنجليزيته غير سليمة» أما الدورية ربع السنوية «كوارترلى ريفيو» فقد أسهبت فى مناقشة الكتاب ، وكان تعليق المجلة فى ثلاثين صفحة كاملة واستخلصت أن «بلزونى وإن كان ليس معدودا من العلماء، إلا أنه من الإنصاف أن نضعه فى مصاف الرواد وأكثرهم مهارة وفائدة فى حقل الكشف الأثرى، فقد فتح الطريق وسهل من مهمة من يرغب فى السفر». وقد ترجم الكتاب فورا إلى اللغات الفرنسية والايطالية والألمانية، ثم طبع بسرعة طبعة إنجليزية ثانية بأمر الناشر.

افتتح معرض بلزونى فى القاعة المصرية فى بيكاديللى فى أول مايو سنة ١٨٢١، ونجح المعرض بشكل فورى، إذ زاره يوم الافتتاح وحده ١٩٠٠ شخصاً، ومن أجل الدعاية للمعرض دعا بلزونى قبل الافتتاح مباشرة بعض الأطباء -بأسلوب مسرحى- إلى شهود فك اللفائف عن مومياء مصرية لشاب فرعونى «كانت جيدة وأجزاؤها كلها سليمة».

سيطر على مكان العرض نموذجان بالحجم الطبيعى لأجمل غرفتين بمقبرة سيتى : قاعة الأعمدة، والغرفة التى تحوى التماثيل الخمسة البشرية، وكان بلزونى قد نسخ نماذج متقنة باستخدام الجص الباريسى (المشهور بجودته) مستخدما الصور الشمعية التى استنسخها فى المقبرة، وكانت الألوان دقيقة بفضل دقة ملاحظة ريكى ، لذلك كان زائر المعرض يشعر كأنه فى قلب مقبرة ملكية فاخرة.

وكان بالقاعة ضمن المعروضات -أيضاً- عدة آلهة مصرية أهمها حورس وأنوبيس، مع مشاهد من العالم السفلى المهخيف- عالم الأموات، وكان ضمن العرض نموذج لأبى سنبل، وقطاع متقن لهرم خفرع، وتماثيل لسخمت ذات رأس الأسد، وأخيراً مومياوات وبرديات أطلقت عليها التايمز «مجموعة التحف المتنوعة المكملة».

وضع المعرض بلزونى على رأس الجوالين فى عصره، وكان السبب الرئيسى فى ذلك أنه عرض مكتشفاته فى أوروبا بعيداً عن موطنها الأصلى بآلاف الأميال. وكان نجاح المعرض الساحق سبباً فى جعل بلزونى يفكر فى نقله للعرض فى باريس ثم فى سان بطرسبرج فى روسيا، واستمر معرض لندن حتى سنة ١٨٢٢، وبعد ذلك عرضت محتوياته للبيع بالكامل فى المزاد ليشتريها من يشاء من هواة الآثار، وكان الإقبال على المزاد كبيراً، ويذكر أن أحد المزايدين دفع ٤٩٠ جنيهاً ثمنا للصور المنسوخة ونماذج أخرى .

وحدثت مشادات بين بلزونى والمتحف البريطانى بخصوص التابوت الحجرى المرمرى العتيد، وكان حتى ذلك الوقت لم يصل بعد إلى لندن، ومما زاد الموضوع تعقيداً مواقف هنرى سولت فقد عرض القنصل مقتنياته الأثرية الثمينة أثناء سنتى ١٨٢٠ ، ١٨٢١ على المتحف البريطانى، وكان يطمع فى بيعها له.

وقد شجعه علي ذلك السير وليام هاملتون والسير جوزيف بانكس – وكان أحد أمناء المتحف فى ذلك الوقت ولكن سولت لم يجد تجاوبا من المتحف، واشتعل غضب الأمناء من السعر الذى حدده سولت وهو ثمانية آلاف جنيه، ومن الواضح حتى للشخص العادى أن سولت كان يبغى تحقيق ربح مجز ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

كان أمناء المتحف قد فرغوا لتوهم من تسديد ٢٥ ألفاً ثمن صفقة اشتروا فيها مرمريات الجن التى جمعها من البارثينون، وكانت صفقة مدوية أغضبت بعض الدوائر، وهذا سبب إحجامهم عن صرف الأموال فى شراء آثار أجنبية.

لما وصل التابوت أخيرا إلى لندن على ظهر الباخرة ديانا عاد الموضوع للظهور بقوة، فتحرك بلزونى دفاعاً عن حقوقه، فأوضح أن من حقه حسب اتفاقه مع سولت أن يحصل على نصف زيادة فى سعر التابوت عن ثمنه الأساسى

وهو ألفى جنيه استرلينى، لكن مجلس الأمناء قام بتعويم الموقف فلم يبت فى الموضوع عدة شهور، اشتعل الغضب فى نفس بلزونى وسولت وكان غضب سولت أشد لأنه كان فى أمس الحاجة للمال لاستئناف جمع الآثار، فقد كان شغل سولت الشاغل الاستفادة من نشاطه الأثرى فى تغطية مصاريفه مع تحقيق فائض يمكنه من التقاعد في الوقت المناسب : «وإلا» كما كتب لوليام هاملتون، «سوف يديننى الناس بالتمسك بالوظيفة إلى الأبد، وهذا وضع بالطبع لا يرضيكم».

أمضى سولت باقى المدة التى أمضاها فى السلك السياسى فى جمع الآثار وبيعها بثمن مربح، مهملاً لواجبات وظيفته القنصلية، فى النهاية اضطر لبيع مجموعته الأثرية الأولى للمتحف البريطانى نظير ألفى جنيه استرلينى، أما التابوت فقد رفض الأمناء شراءه بكل إصرار متحججين ببعض الصعوبات القانونية ثم ارتفاع السعر المطلوب.

ولم تجد اعتراضات بلزونى وسولت فى صدد السعر، وتأكيدهما للأمناء أنه قد عرض عليهما سعر أكبر من القنصل الفرنسى دورفيتى وغيره، وأخيراً انتهى أمر التابوت إلى أن اشتراه المهندس المعمارى المشهور بلندن جون سونى، ودفع فيه ألفى جنيه استرلينى، واستولى سولت على المبلغ كله لنفسه ولم يعط بلزونى منه شيئا (منتهى الالتزام بالتعاقد!).

عرض المهندس هذا التابوت فى قاعة أعدها له بمنزله، فتحها للعرض على الجمهور ثلاثة أيام متوالية، وزار القاعة «علية القوم وأصحاب المواهب بانجلترا»، وكان التابوت يتلألأ فى ضوء الشموع الخافتة التى وضعت بداخله، وحضرت سارة هذا المعرض واستقبلت «بكل ترحيب من الضيوف» لكنها كانت وحدها، لأنها كانت قد ترملت، فقد توفى بلزونى قبل مدة قليلة وهو يستهل آخر رحلاته وأكثرها طموحاً وقلبه ملىء بالمرارة.

أدى القلق الذى انتاب جيوفانى بلزونى إلى نقله حاسمة فى تطلعاته ومصيره، وكان تبرمه بالمتحف البريطانى وضيقه بحياة المدينة وحتى بالشهرة قد وصل إلى الحد الذى جعله يسعى للتغيير، وفى وقت ما خلال سنة ١٨٢١ سافر إلى غرب إفريقيا ليستكشف منابع نهر النيجر، كانت مشكلة نهر النيجر فى ذلك الوقت مازالت ساخنة ومبعثا لإثارة الجدل بين مستكشفى القارة الإفريقية.

لذلك لم تكن بالنسبة لبلزونى مجرد رحلة عابرة لتزجية وقت الفراغ، فكثير من المستكشفين هناك سرقوا أو لقوا مصرعهم أثناء الاستكشاف، لذلك قررت الحكومة حظر الرحلات الفردية فكان على أى مستكشف وحيد أن يلتحق بإحدى القوافل عابرة الصحارى.

خطط بلزونى لعبور الصحراء من مراكش، لكن النزاعات السياسية حرمته من الحصول على التصريح اللازم فى آخر لحظة، لذلك حول وجهة سفره إلى غرب إفريقيا، وواتته الفرصة فى ركوب السفينة الحربية سنجر إلى ساحل الذهب، فوصل إليه فى ١٥ من اكتوبر سنة ١٨٢٢، وبعد شهر كان قد وصل إلى مصب نهر بنين، ومن هناك اصطحب تاجراً يسمى هوستن فى رحلة إلى بنين نفسها، فلما وصلاها استقبلا بكل ترحيب، لكن بلزونى ما لبث أن فاجأته دوسنتريا حادة، لم تمهله سوى أسبوع واحد قضت على حياته، وهكذا مات رحالتنا الجرئ.

دفن بلزونى تحت شجرة ضخمة، ووضع على قبره شاهد خشبى سجل عليه تاريخ الوفاة وظروفها مع رجاء مهذب بالمحافظة على المكان نظيفا ومسوراً، وفيما بعد زار المنطقة الرحالة المعروف السير ريتشارد وحاول العثور على القبر لكنه فشل، لكنه وجد الأهالى مازالوا يذكرون هذا الجوال المارد الذى مات بينهم، وهكذا مات الرجل.

وأسدل الستار على حياة رجل فذ حقق بالخبرة والإقدام ما لم يحققه سواه في فترة العشرين عاماً التى قضاها فى الاستكشاف، وانتهت بذلك حلقة فى الكشف عن آثار مصر بأسلوب مفجع

كان ما قام به بلزونى فى مصر محل تقدير وتقريظ علماء الآثار، أما قنصلا بريطانيا وفرنسا فإن علماء الآثار لم يستسيغوا قط جشعهما واحتكارهما لحقوق الآثار المكتشفة، على أى حال استمر سولت يوالى جمع الآثار لنفسه وكتب إلى أحد أصدقائه يقول إنه قضى معظم وقته فى «السطو على المقابر ودراسة النقوش البارزة وحل الكتابة التصويرية (المونوجرامات) التى أؤكد لك أننى بلغت فيها غاية الخبرة

«ولم يفتر حقد سولت على بلزونى أبدا، فقد كان يشعر أن هذا الايطالى خطف منه الأضواء والشهرة، فى حين أن ما اكتشفه لم يتم إلا بتمويل من سولت نفسه، وزاد من أسفه فظاظة المتحف البريطانى فى التعامل معه، ولم يتوقف شريط أحزانه، فقد ماتت زوجته بالحمى القرمزية فى ريعان شبابها، ثم أصابه ضعف عام فى صحته، وعبر عن أحزانه ومرارته في رسالة أرسلها لوكيله فى لندن منها «ليس لى سوى رغبة واحدة.. ألا يقرن إسمى باسم بلزونى أبدا»

فى الفترة الأخيرة تعاقد سولت مع البريطانى «ينى أثناسيو» لجمع الآثار لحسابه

وكان ينى كما نعرف ممن عمل مع بلزونى، لكنه انقلب عليه وصار من أكبر أعدائه، وفى هذه الفترة تمكن سولت من تكوين مجموعتين أثريتين أخريين، وقد جمع أولى المجموعتين فى الفترة من ١٨١٩ إلى ١٨٢٤

وهذه المجموعة اشتراها منه ملك فرنسا مقابل عشرة آلاف جنيه

استرلينى بتزكية من الأثرى الضليع فرانسوا شمبليون شخصيا، وكان سولت يرفع شمبليون فوق جميع علماء الآثار. أما المجموعة الثانية، وكانت أكبر حجماً من الأولى فقد بيعت بصالة سوبتى الشهيرة بلندن فى المزاد العلنى بعد ثمانية سنوات من موته، وقسمت المجموعة إلى أكثر من ١٠٨٣ من الأنصبة (لوط) حققت سبعة آلاف جنيه.

أى أن سولت خلال عمله القنصلى الذى استغرق أحد عشر عاماً، استغل فيها مركزه ونفوذه فى الإتجار بالآثار، قد حقق ربحاً صافياً يربو على عشرين ألفا من الجنيهات (الاسترلينية)، لكن سولت لم يعش ليهنأ بما حققه من مكاسب، فقد مات بمرض معوى فى أكتوبر سنة ١٨٢٧، وكان مازال قنصلا لم يتقاعد بعد، فلا حقق ما كان يصبو إليه من معاش مريح، ولا نال تقدير الأوساط العلمية، رغم أن ذلك كان أمله طوال عمله الدبلوماسى.

عاش دروفيتى حياة أطول من سول بعدة سنوات، وأعيد تعيينه قنصلاً لفرنسا فى مصر سنة ١٨٢١، واستمر فى العمل حتى اضطر للاستقالة لأسباب صحية سنة ١٨٢٩، فتكون فترة نشاطه سبعة وعشرين عاماً اتجر فيها بالآثار كيفما شاء، بعد ذلك كون لنفسه مجموعة آثار شخصية كان لها قيمتها، وحاول دروفيتى بيع المجموعة إلى الحكومة الفرنسية.

لكن الإخفاق كان نصيبه، والسبب فى ذلك أن الحكومة الفرنسية ظلت تماطله، وذلك مداراة للتعصب الكنسى الذى ثار فى وجهها، وكان رأى الكنيسة أن مجموعة دروفيتى إذا عرضت ستثبت للناس أن مصر كانت موجودة مزدهرة قبل سنة ٤٠٠٤ قبل الميلاد.

ولكن هذه السنة هى السنة التى بدأ فيها الخلق تبعا لحسابات كبير الأساقفة جيمس مستشار العقائد اللاهوتية، وأثناء التسويف والجدل العقيم

فوجئ الجميع بأن دروفيتى باع المجموعة إلى ملك سردينيا نظير ثلاثة عشر ألفا من الجنيهات.

وخلاف هذه المجموعة جمع دروفيتى مجموعتين أثريتين أخريين، وقد اشترى الأولى منها الملك شارل الخامس ملك فرنسا بمبلغ ربع مليون فرنك - وهى الآن زينة متحف اللوفر، أما الثانية فقد اشتراها الباحث الألمانى ريتشارد لبسيوس لحساب متحف برلين.

انتهى المطاف بدروفيتى إلى إصابته بخلل فى قواه العقلية، فأدخل إلي مصحة للأمراض العقلية حيث مات سنة ١٨٥٢، ولم يعترف أحد قط بهذا الرجل رائدا ولا خبيرا فى الآثار المصرية، وكانت وسائله هو وأعوانه فى جمع الآثار والتنقيب عنها عنيفة ومخربة، وقد جعله أسلوبه الوصولى وجشعه فى التعامل مع العرب والأوروبيين من الشخصيات البغيضة، رغم ذلك كان ما نقله هو وغيره من الدبلوماسيين من آثار مصر إلى متاحف أوروبا من العوامل المؤثرة فى توجيه المنقبين الأوروبيين نحو مصر، والإهتمام بتاريخها القديم وآثارها الفريدة.

من عجائب القدر أن التنافس بين الثلاثى اللدود، دروفيتى وسولت وبلزونى، فى جمع الآثار كان نتيجة التنافس على نبش قبور طيبة وانتهاكها وتخريبها، واستمر ذلك فترة طويلة، والأغرب أن كلا منهم أثرى المتاحف المنافسة لمتاحف وطنه الأصلى، فبلزونى الايطالى صاحب الجناح بالمتحف البريطانى. ودروفيتى كانت مجموعته هى التى قام عليها متحف تورين الايطالى.

ومقتنيات سولت كثير منها -حاليا- موجود بمتحف اللوفر، جميعهم جروا وراء الشهرة والربح وذيوع الصيت، وكلهم حقق ولو بعض ما كان يصبو إليه، فكلهم خرج رابحا بشكل أو بآخر، لكن الخاسر الوحيد كان علم المصريات.

تخريب الآثار

١- رغبة جارفة :

بلزونى هو الذى فتح الباب للسطو على آثار مصر، وسرعان ما تبعه الباقون، لقد بدأ مع منافسيه فى الاندفاع نحو حيازة الآثار، وسرعان ما تحولت هذه الرغبة إلى غارة شديدة الوطأة، وبعد عشرين سنة من رحيل بلزونى عن مصر زارها الآلاف من جامعى التحف والأثريين الهواة والجوالين الفضوليين، وبعض هؤلاء قنع بمجرد المشاهدة والمتعة، لكن غيرهم كان هدفه النهب والاستيلاء على الكنوز أو الربح، ومعظم الآثار المغتصبة تحمل إسم من نهبوها، وقد عرفنا بعضها من المعروضات التى تحمل أسماءهم فى شتى المتاحف العالمية، وعرفنا بعضها الآخر من كتالوجات صالات المزادات، أو من المجموعات الخاصة، وكثير من الشخصيات لها وزنها فى تجارة الآثار المسجلة فى النشرة المتخصصة الرائدة الموسومة بدليل تجار الآثار ، وهى نشرة جامعة مانعة، لم تترك صالحاً ولا طالحاً من تجار الآثار إلا ذكرته.

فى هذه الفترة كان من أشهر تجار الآثار رجل إنجليزى الجنسية يقطن الاسكندرية يسمى شارلز هاريس، هذا الرجل كان يتجر بالآثار من كل نوع خصوصا البرديات، وقد ضمت مجموعة هاريس للمتحف البريطانى سنة ١٨٧٢ إلي بقية المجموعات الشبيهة، وقد إستغرق جمع هذه المجموعات جميعاً مدة ثمانين عاما منذ رحيل بلزونى عن مصر إلى نهاية القرن التاسع عشر.

فى هذه الفترة بلغ تهريب الآثار المصرية مداه، من برديات أى مومياوات إلى جعلان وغيرهاً، لدرجة أنه هربت إلى أوروبا أحياناً معابد صغيرة كاملة، وكان وراء ذلك بالطبع أشخاصا أرادوا تحقيق أرباح سريعة أو إشباع هواية ونزوات عملائهم، ولقد أصبحت هواية جمع الآثار وتجارتها هوساً أشبه بالمرض

حينذاك حتى لقد وصفها عالم فرنسى بأنها «رغبة جارفة لا تختلف عن الحب الطموح إلا فى كونها أكثر خسة لتفاهة أهدافها».

وقد تفاقمت المشكلة فى ذلك الوقت لتقاعس حكومة محمد على فى إصدار التشريعات المنظمة للبحث عن الآثار وحيازتها، ولم يكن لدى حكام مصر الأتراك الإحساس الكافى بخطورة هذه المشكلة، وذلك لأنهم لم يعيروا ماضى مصر وتاريخها القديم أهمية تذكر، وكثيرا ما كانت الآثار فى ذلك الوقت تستخدم كوسيلة من وسائل التأثير السياسى، أما الأهالى فقد درجوا على استغلال الآثار أسوأ استغلال، وكانوا يستغلونها كمصدر للحجارة لبناء قراهم فوق مستوى الفيضان.

أما متاحف أوروبا فلم تتورع بدورها عن استغلال الموقف، وحثت التجار على شحن غرف وأفاريز ومقابر أثرية كاملة - أحياناً- للعرض فى صالاتها وكان للفيلسوف الفرنسى الشهير إرنست رينان رأى فى الموضوع عبر عنه بأنه: «أصبح متعهدوا بيع الآثار للمتاحف يتجولون فى البلد بشكل همجى، يلهثون وراء شطر من رأس أو كسرة من نقش، بل كثيراً ما حطموا الآثار القيمة ليحولوها إلى كسرات.

هؤلاء الطماعون المخربون كانوا يعيثون فى مصر كأنها ملك خاص لهم، وكان أشد هؤلاء فتكا بالآثار المصرية السياح من الإنجليز والأمريكيين، (والمؤسف) أن هؤلاء الأغبياء سيذكرون من جيل إلى جيل لأنهم سجلوا أسماءهم على أشهر الآثار المصرية فأتلفوها وطمسوا نقوشها الجميلة».

وفى سنة ١٨٥٩، زار مصر فرنسى إسمه «فيفيان دى سان مارتن» فأصابته الحسرة : «لقد نزعوا من إلفنتين معبدها الجميل، وتنازعته السماسرة، وأجمل شطرى بوابته استخدمها مصنع أرمنت لإنتاج السكر، وضاعت إلى الأبد المعابد الصغيرة فى إسنا والكاب، وتفيونية إدفو .

وكذلك مقبرة «ونفرع» بسقارة، ونصف سرداب ليكوبوليس «في ذلك الوقت كانت الأبجدية الهيروغليفية قد حلت طلاسمها، فأصبح بالإمكان قراءة النقوش الهيروغليفية، وأمكن للعقلاء تقدير مدى فداحة التخريب الذى حدث، لكن بعد فوات الأوان.

كان الموقف يقتضى تدخل الحكومة المصرية بإصدار التشريعات اللازمة للسيطرة على الموقف، لكن لم يحدث حتى بعد صدور موسوعة «وصف مصر».

من القضايا المدوية فى مجال نهب الآثار فضيحة مشهورة كان بطلها -أيضاً- فرنسى من محترفى جمع الآثار إسمه «سباستيان لويس سولينيه» ، قام هو ووكيله جين بابتيست ليلوريان بنزع النقش البارز المشهور الذى يمثل دائرة الأبراج السماوية بكامله من سقف معبد دندرة ، والنقش يصور القبة السماوية بأبراجها ويرجع تاريخه إلى أواخر العصر البطلمى. وربما بعده بقليل، وأهمية النقش تتلخص فى أنه تصوير «لمصر السماوية»، التى آمن المصريون القدماء أنها صورة طبق الأصل فى السماء لمصر الأرضية بما فيها من أقاليم وتفاصيل أخرى.

كان سولينيه وليلوريان قد قررا (هكذا!) أن القبة المذكورة قد اكتشفها الجنرال ديزيه أثناء الحملة الفرنسية، ومن ثم «أصبحت على نحو ما أثراً قومياً (فرنسياً)»، ومن ثم يتعين نقلها من دندرة إلى باريس، لذلك حضر ليلوريان إلى الإسكندرية فى اكتوبر سنة ١٨٢٠ للعمل على شحن القبة (إلى باريس) بأى طريقة ، ولإخفاء غرضه الحقيقى، أعلن أنه ينوى الحفر فى طيبة، ورغم حرصه عثر على جاسوس لسولت على المركب نفسه يقم برصد تحركاته - زرعه سولت بنفسه- فقام ليلوريان بطرده.

كان بعض السياح الإنجليز يقومون بأخذ بعض الاستكشافات فى دندرة عندما كان ليلوريان يشاهد القبة للمرة الأولى ، وللتمويه توجه ليلوريان إلى طيبة

(جنوب دندرة) واشترى بعض المومياوات والآثار الأخرى، ولما عاد ذلك الفرنسى (الماكر) إلى دندرة كان السياح قد غادروها، وأصبح الجو خالياً له ليبدأ فى تنفيذ مخططاته.

كانت قبة البروج مركبة فى سقف الغرفة الوسطى من الغرف الثلاثة الموجودة فى مبنى صغير مجاور للمعبد الرائع الذى خلب لب عساكر نابليون، وكان تخليص القبة من السقف عملاً خطيراً، لأن القبة منقوشة على حجرين فى منتهى الضخامة والسمك، إذ كان سمك كل منهما ثلاثة أقدام، بينما لم يكن معه من الأدوات سوى الأزاميل والمناشير.

لذلك لجأ ليلوريان إلى استخدام البارود لإحداث فتحات فى سقف المعبد (أى المبنى الصغير) ومن حسن الحظ أنه كان ماهراً فى استخدام البارود فتمت العملية دون أن ينهار السقف، بعد ذلك ثبتت المناشير فى الأسافين الناتجة وعهد إلى عربان أشداء بموالاة النشر فى الجرانيت الصلب بلا انقطاع.

تم نزع القبة السماوية بعد ثلاثة أسابيع، وبعد ذلك وضعت على قمة المنحدر الترابى بالمعبد، ووضعت تحتها اسطوانات خشبية تمهيدا لنقلها إلى المركب الراسية على بعد أربعة أميال، لكن الاسطوانات لم تتحمل ثقل الحمل فانكسرت، لذلك استعيض عنها بالروافع مع القوة البدنية لتحريك «البضاعة» حتى شط النيل.

وبعد مجهود ضخم تمكن العمال العرب من وضع البلاطتين الثمينتين فى قلب المركب بأمان، لكن الماء كان يتسرب داخل المركب بشدة، وبسرعة عملت الجلفطة اللازمة (أى سد الخروم)، ولولاها لفشلت العملية والسبب فى نجاح ذلك كله كانت حصافة ليلوريان وبعد نظره فقد كان سخياً مع عماله فى الأجور، فكانوا لا يدخرون وسعاً فى العمل للخروج من المأزق فى سلام، رغبة فى إنجاح نقل القبة.

لكن الريس رفض الإبحار، والسبب أن سائحا أمريكياً تصادف أن رأى ليلوريان ينزع القبة فأخطر سولت بما رآه، وعلى الفور قام سولت برشوة الريس، ولم يتأخر ليلوريان فى المقابل من نفح الريس «ألفى» قرش كبقشيش فأمر بالإبحار، وفى منتصف المسافة إلى القاهرة أوقفهما أوروبى من أعوان سولت وسلمهما أمراً من كبير وزراء الباشا (محمد على) يمنع ليلوريان من نقل القبة، فما كان من ليلوريان إلا أن رفع الرايات الفرنسية وبجرأة تحدى الإنجليز ومنعهم من مهاجمة سفينته.

ونجحت خطته الجريئة، فابتعد الوكيل وهو يتميز غيظاً، واستشاط سولت غضباً لأنه كان يريد أن يغتصب القبة لنفسه، كما أهدى مسلة من قبل لوليام بانكس، لذلك تعقب ليلوريان إلى الاسكندرية و ثم توسط لدى الباشا بزعم أنه بدأ حفائر فى دندرة قبل أن يسمع الفرنسى حتى بأن هناك مكان بهذا الإسم، ومن ثم فهو صاحب القبة، لكن جهوده ذهبت أدراج الرياح.

فى النهاية، وصلت القبة السماوية إلى بارس وكان استقبال وصولها حاشداً، وربح سولونيه وليلوريان من ورائها ١٥٠ ألف فرنك دفعها فيها الملك لويس الثامن عشر، والقبة -الآن- فى اللوفر، أما زوار معبد دندرة فعليهم أن يقنعوا بمجرد صورة منسوخة منها.

هذه الخدعة التى كان يقوم بها أمثال ليلوريان وسولت ببساطة وتبجح كانت شيئاً طبيعياً مقبولاً بين الأثريين فى ذلك الوقت حيث كان البعض مثل يولونيه ودروفيتى وأثناسيوس يتميزون بالفضول والطمع والنظرة القومية الضيقة، وكانت المشكلة تكمن فى عدم فهم أى منهم لما يرونه أو ينقلوه لأن قراءة الهيروغليفية كانت فى ذلك الوقت مستحيلة.

فى ذلك الوقت كان حجر رشيد الثلاثى النصوص (يونانى - ديموطيقى

– هيروغليفى) أمل العلماء فى حل مشكلة الهيروغليفة ، ونسخت من النصوص نسخ عديدة عكف على دراستها كثير من علماء اللغات القديمة فى أوروبا.

وقد ترجم النص اليونانى بسهولة وبسرعة، وكان المأمول أن يؤدى ذلك إلى حل للمشكلة، لكن «العلامات التصويرية» ظلت مستغلقة على أفهامهم، فظل الأمر معلقاً، والغريب أن الذى شاع عنها أنها تمثل أفكاراً لا أصواتا، أما الديموطيقية فكانت أقل صعوبة، ولم يصعب على العلماء إدراك أنها حروف أبجدية مستمدة من اللغة المصرية القديمة.

كانت الخطوة التالية تتبع وتحديد أصل الخط الديموطيقى، وفى هذا المجال تصدى من الباحثين المبرزين سلفستر دى ساسى (فرنسى مشهور فى اللغات الشرقية) وجين دافيد أكربلاد السويدى للتعرف على الأبجدية الديموطيقية، لكن نتائج بحوثهما لم تتطابق.

وأصاب الجميع الإحباط عندما ظهرت آراء توماس يونج، وهو شخصية متعددة المواهب إذ كان طبيباً باطنياً ومن علماء الفلسفة الطبيعية ومن علماء الرياضيات واللغات هذا الرجل «الموسوعة» أهدى إليه أحد أصدقائه بردية كانت الا ـب فى تحول إهتمامه إلى اللغة المصرية القديمة، لذلك حصل على نخسة من نقوش حجر رشيد وشرع فى المقارنة بين الخطين اليونانى والديموطيقى، واعتماداً على الحدس والإلهام توصل إلى أن الديموطيقية شكل انسيابى متشابك (متصل الحروف) من النقوش الهيروغليفية، ونص كلامه أنها «كتابة جارية» لأنه لاحظ قرب شبهها من الهيروغليفية بمقدار بعدها عن الكتابات الرمزية (المعروفة).

لكن الفضل الأكبر فى حسم موضوع حل لغز النقش الهيروغليفى يعود إلى العالم الفرنسى الفذ جان فرانسوا شمبليون، ولد شمبليون فى ٢٣ من ديسمبر سنة ١٧٩٠ فى مدينة فيجيا الفرنسية، لأب غير ميسور الحال يعمل فى

بيع الكتب، وفى سن الخامسة تعلم القراءة، وفى سن الحادية عشرة صحبه أبوه لزيارة العالم الرياضى جان بابتيست فورييه، وهو من علماء بعثة نابليون،

ويبدو أن فورييه أشعل حماس الفتى شمبليون وغذى رغبته فى حل ألغاز الهيروغليفية، وفى سن السابعة عشرة كان شمبليون قد أتم تعلم لغات شرقية منها العبرية والعربية والسنسكريتية والفارسية، وكان فى الوقت نفسه ملماً باللغات الإنجليزية والألمانية والايطالية ، وهداه ذكاؤه إلى تعلم القبطية ليضيفها إلى هذه الذخيرة اللغوية المتميزة، وكان شمبليون يؤمن أن القبطية الامتداد الطبيعى للهيروغليفية فى صورتها الدارجة.

رحل شمبليون إلى باريس وتحمل شظف العيش ليدرس على يدى المستشرق «ساس» ثم أخذ فى دراسة نصوص حجر رشيد عدة أشهر لكن يبدو أنها استعصت عليه، على أى حال لم ييأس عالمنا من مواصلة البحث سبع سنين دأباً، ثم أصدر مجلدين ضمنهما أسماء بعض المواقع الجغرافية القديمة، وفى فورة من الحماس أعلن أنه قد سيطر على الديموطيقية ويستطيع قراءتها على حجر رشيد، والحقيقة أن حماس شمبليون واندفاعه كان مبنياً فى الواقع على أساس سليم فتقريره منذ البداية أن القبطية أقرب اللغات - حالياً - للهيروغليفية كان استنتاجاً فى محله تماماً.

فى سنة ١٨١٩ ظهر مقال طويل فى دائرة المعارف البريطانية بقلم توماس يونج عن مصر القديمة، احتوى على ملخص لمحاولاته فى قراءة الهيروغليفية، ورغم أن شمبليون فى حينها رفض التسليم بأن الهيروغليفية ما هى إلا أبجدية، إلا أنه بعد سنتين كان فى طريقه إلى الاهتداء لحل المشكلة ويبدو أن إسراعه فى التوصل إلى حل كان بسبب أخذه أخيراً بوجهة نظر يونج.

ففى سنة ١٨٢٢ اكتشف خرطوشة (ختم الملك) من أبى سنبل استطاع أن يميز فيها إسم فرعون مصر رمسيس، ولاحظ أن أسماء الفراعنة تكتب

منطوقة ، وبلغ به الانفعال- لهذا النجاح- حدا جعله يخرج مندفعا من شقته الصغيرة باحثا عن أخيه ليقول له منفعلا «لقد وجدتها» ، ثم يخر مغشياً عليه.

بعد ذلك تقدم ببحث عنوانه «الأبجدية الهيروغليفية المنطوقة» قدم إلى أكاديمية الآداب الفرنسية ونشر فى ٢٧ من سبتمبر سنة ١٨٢٢، إعلانا عن اكتشافه، وفى مبدأ الأمر قوبلت أفكاره بالرفض والاستهجان حسب رؤية كل باحث.

لكن البحوث المستقلة بعد ذلك أيدت وجهة نظره وأثبتت إن الباحث الشاب قد توصل لحل لغز الهيروغليفية بدون شك، وفى ظرف سنتين أتم شمبليون بحثه المعروف باسم «الوجيز فى النظام الهيروغليفى» أثبت فيه أن الهيروغليفية فى حقيقتها مزيج بين الكتابة الرمزية والحروف المنطوقة، أى أنها أبجدية رمزية هجائية معاً.

سرعان ما أصبح شمبليون من المشهورين ، ثم عين أمينا بمتحف اللوفر، وفى سنة ١٨٢٨ سنحت له الفرصة لزيارة مصر، مكافأة له على جهوده، وكانت الرحلة ناجحة بكل المقايس، سافر شمبليون إلى مصر على رأس مجموعة مكونة من أربعة عشر عضوا من الفنانين والمهندسين منهم تلميذه نيكولو روسيلليني، وكانت الرحلة فوق نجاحها بمثابة تجربة مثيرة لهم فللمرة الأولى يزور المعابد الكبرى من يستطع أن يقرأ نقوشها، ويفهم ويدرك قيمتها الحقيقية، كذلك أثبتت بحثوهم الميدانية أن نظريات شمبليون صحيحة وسهلة التطبيق عمليا، ومن ثم أصبح شمبليون، الباحث الفذ. أول رواد قراءة الهيروغليفية على آثار مصرية حقيقية.

واستأجرت البعثة سفينتين أقلت أفرادها إلى النوبة وتوغلت فيها، ونسخت ما استطاعت أن تنسخه من نقوش وصور فى عدة مواقع فيها، وبعد الفراغ من مهمة النسخ ارتدت البعثة إلى طيبة، وفى طيبة نصبوا أسرتهم فى قلب مقبرة

رمسيس السادس، واستراحوا بين الآثار ولم يرعوا لها حرمة، وفى دندرة بهروا بمعبدها الجميل وفاضت مشاعرهم تماما كما فعل جنود حملة نابليون قبل سنة ١٧٩٩ عندما لم يتمالكوا أنفسهم فاصطفوا تلقائيا ليحيوه ويعظموه.

اندفع شامبليون وصحبه من السفينتين نحو الشاطئ فى ليلة كانت مقمرة مضيئة، وهم فى ثورة عارمة، وعبر شامبليون عما يجيش فى صدره قائلا : «لنا أن نعذر المصرى إذ عدنا بالنسبة له إجلافاً» وفى مسيرة صاخبة واصلوا السير نحو المعبد حتى وصلوا إليه بعد ساعتين، وكان يغمره ضوء القمر، «وهى صورة أسكرتنا من شدة الإعجاب» كما كتب واحد منهم ، «وفى الطريق أخذنا نغنى تصبراً.

ولكن هنا أمام صحن المعبد المغمور بالنور - نور القمر- غمر قلوبنا سلام حقيقى، وأحسسنا بسحر غامض نحن تحت هذا الصحن المعمد بأساطين ضخمة... وفى الخارج كان القمر ساكنا! ويا لها من مفارقة عجيبة، وعلى مدى ساعتين من ساعات العمر التى لا تعوض فحص أفراد البعثة المعبد وتجولوا فيه فى جو مفعم بالحماس والانفعال.

استغرقت رحلة شامبليون سبعة عشر شهرا شهدت أروع إنجازاته، ولم يكن برنامجه يتضمن إجراء حفائر أو اكتشاف أية آثار، وكان هو نفسه معنيا أكثر بالمشاهدات والبحث، ومحاولة تصنيف الآثار حسب تسلسلها التاريخى، ونجح شامبليون بضربة واحدة فى توسيع حدود التاريخ ألفى سنة أو تزيد فظهرت لنا أصول الحضارة المصرية القديمة فى أزمنة كانت مجهولة حتى ذلك الوقت.

كانت إمكانات البحث العلمى فى الآثار هائلة آنذاك، لكن غطى عليها لدى شامبليون فداحة ما وقعت عليه عيناه من تخريب ودمار، ذلك رغم أنه هو نفسه

لم يسلم من الشبهات، فقد تقدم باقتراح لنقل إحدى المسلات من الأقصر إلى باريس في ذكرى حملة نابليون، وقد وافق محمد على باشا على طلبه رغم أنه سبق أن أهدى مسلات الأقصر إلى الإنجليز.

وبالفعل نقلت إحدى المسلتين الضخمتين من مكانها أمام معبد الأقصر إلى باريس سنة ١٨٣٠ بتكاليف باهظة، وتم نقل المسلة على ظهر السفينة درومادير وفي اكتوبر سنة ١٨٣٦ تم وضع المسلة في مكانها الحالي بميدان الكونكورد الشهير بباريس في حضور ملك فرنسا وسط جمع حاشد وصل إلى مائتي ألف مشاهد.

لكن شامبليون لم يتهاون في كتابة مذكرة رفعها إلى الحكومة المصرية يشجب فيها التخريب الواسع النطاق الذى كانت تتعرض له المواقع الأثرية، كما تناول في تقريره ما تسببه تجارة الآثار من سلبيات بهذا الصدد، وأشار في تقريره إلى أن أهم عوامل جذب السياح إلى مصر آثار وعجائب ماضيها، وأشار أن السياحة مصدر دخل للبلد يحقق على المدى البعيد ربما يفوق كثيراً ما ينتج عن تدمير الآثار ونهبها للتجارة فيها، وفي النهاية أوصى بأن تخضع أعمال التنقيب عن الآثار للسيطرة الحكومية، كما أوصى بمنع تفكيك حجارة المعبد والاستيلاء عليها، وأخيراً نصح بضرورة تنظيم تصدير الآثار تنظيماً دقيقاً صارماً.

وقد كتب لنصائح شامبليون النجاح، واستجاب لها محمد على باشا، وصدر قانون نشر في ١٥ من أغسطس ١٨٣٥، وهو قانون يعد في زمنه طفرة حقيقية في هذا المجال، وقد أشار القانون في ديباجته إلى أن المتاحف وهواة الآثار أصابتهم حتى اقتنائها لدرجة يخشى معها أن تتسرب إلى الخارج آثار الحضارة المدنية الفرعونية وتسلب من مهدها الأصلي، فيحرم منها بينما تظهر في البلاد الأجنبية وتثرى متاحفها.

ويحظر القانون قيام الأفراد بالبحث والتنقيب عن الآثار المصرية، ثم ينص على إنشاء دار للآثار تعرض فيها الآثار التى تملكها الدولة وما تكتشفه منها بمعرفتها، ونص القانون على تجريم تحطيم الآثار وتخريبها كما نص على ضرورة المحافظة عليها وصيانتها، على إثر ذلك عين محمد على باشا موظفاً مختصاً بالتفتيش على أهم المواقع الأثرية بالصعيد.

كان القانون نقلة هامة فى الإتجاه الصحيح رغم أنه لم يكن ملزما، ورغم بدايته المهزوزة لأن الوالى نفسه وخلفائه من بعده لم يلتزموا به، والحقيقة أن الحفائر الفردية لم تتوقف، لكن أصبح من حق الدولة مصادرة المكتشفات الأثرية، وأصبح تصدير الآثار أكثر صعوبة عن ذى قبل.

وكان لحل مشكلة الهيروغليفية أثر إيجابى فى هذا الصدد، إذ أدى فهمها إلى زيادة الوعى بأهمية الآثار كأحد مصادر المعلومات التاريخية، ومن ثم زاد الإهتمام بالمحافظة عليها، لكن شامبليون لم يحظ بمشاهدة ذلك كله ولم يعش ليسعد بنجاح جهوده فقد أصيب فى باريس بسكتة دماغية مات على إثرها فى ٤ من مارس سنة ١٨٣٢، وكان عاكفا على إعداد تقرير للنشر متضمنا أنباء رحلته فى مصر.

هناك واحد أقوى منى :

فتح شامبليون بجهوده – وحل مشكلة الهيروغليفية– الباب أمام الدراسات الأثرية والمصرية عموماً، ومنذ ذلك الوقت أخذ الاهتمام يتزايد للحصول على المدونات الأصلية، وأخذ الباحثون يهتمون بالتحليلات الدقيقة، لذلك أخذ دور التخريب والسطو على الماضى يتراجع منذ رحيل بلزونى .. وأصبح يفد إلى مصر باحثون جادون وإن لم ينقطع ورود المتلصصين، من هؤلاء الدارسين الجادين نذكر «جون جاردنر ويلكنسون» أحد رواد علوم المصريات فى إنجلترا

فيما بعد، الذى زار مصر أول مرة سنة ١٨١٢، وأقام فيها اثنى عشر عاماً اهتم فيها بتسجيل الآثار ودراسة العربية والقبطية، وما لبث أن اهتم بدراسة الهيروغليفية وتصحيح نتائج بحوث شامبليون، وأنهى زيارته الأولى سنة ١٨٣٢ بعد أن فرغ من أول مسح أسلوبى منظم لأهم المواقع الأثرية فى مصر والنوبة.

كان ويلكنسون يعمل منفردا، وأفلح فى قراءة عشرات النصوص والخراطيش الملكية بطريقة صحيحة لأول مرة، وهو الذى قام بأول محاولة لتصحيح ترتيب الأسرات الملكية الفرعونية، كذلك قام بنسخ المناظر المقبرية فى بنى حسن بوضوح ودقة ولم يكن شامبليون ونيكولو روسيلليني قد زاراها بعد، ومن إنجازاته اكتشاف الموقع الصحيح لقصر اللابيرانت المنيف بهوارة وكانت له مذكرات أكثر تطورا من بقية معاصريه، وكانت معظم ملاحظاته وتسجيلاته دقيقة، ويعتبر ما قام به ويلكنسون شبه إعجاز، علما بأنه لم يتلق أى دعم من حكومته بعكس شامبليون الذى كانت تشجعه الحكومة الفرنسية وتدعمه.

رغم ذلك كله ظل ويلكنسون من رجال الظل ولم ينل ما يستحق من التقدير، فالجانب الأكبر من بحوثه لم ينشر، ولم يقم أحد بكتابة سيرته رغم تأثيره العميق على علوم المصريات فى القرن التاسع عشر، لكن الأوساط المثقفة - بصفة عامة - كانت تعرف ويلكنسون عن طريق كتابه الذى يحمل عنوان «طباع وعادات المصريين القدماء»، الذى ظهر سنة ١٨٣٧ فى ثلاثة أجزاء .

والكتاب أول محاولة للبحث المستفيض عن حياة المصريين القدماء ، عالج فيه المؤلف موضوعه بطريقة تشعر القارئ أنه يقرأ عن شعب من الشعوب الحية المعاصرة، وحرص المؤلف على إلقاء الضوء على الديانة والثقافة والحياة اليومية الجارية للشعب أكثر من حرصه على معالجة الأمور السياسية.

وهذا الكتاب أول كتاب منذ قرون يتجاوز فى موضوعاته ما كتبه هيرودوت والأساطير الموروثة ويحاول بحث الإنسان المصرى القديم نفسه، لقد كان جاردنر

ويلكنسن فى الحقيقة أحد الأفذاذ من الباحثين، وكان له وزنه رغم عدم إيفاء البعض حقه، وكان ذا جلد على البحث والاستقصاء مع مزج البحث العميق بالكتابة المشرقة الجميلة التى تنقل ببساطة للجمهور العادى أكثر المواضيع جدية.

لكن ويلكنسن لم يكن فارس الميدان وحده، كان هناك مثلا روبرت هاى أير اسكتلندى من هواة السياحة، زار مصر لأول مرة سنة ١٨٢٤ عقب مقابلة مع الفنان الشهير «فردريك كاثروود» وهو فنان تحققت له شهرة عظيمة بعد ذلك عن لوحاته التى صورها للمعابد المفقودة لحضارة المايا فى أمريكا الوسطى، وكان له موارده المستقلة وكان من عشاق مصر .

وظل الرجل لمدة تزيد على عشر سنوات (١٨٢٨-١٨٣٩) يقوم بتسجيل الأطلال الأثرية فى وادى النيل. وقد استعان فى عمله بعدد من الفنانين العظام منهم المصور الفذ «فردريك كاثروود» نفسه و«جوزيف بونومى» الذى صار من خبراء نسخ النقوش الهيروغليفية، و«أوين براونى كارتر» المهندس المعروف.

وكانت مهمته رسم المساقط التخطيطية للمواقع، وبدأت المجموعة نشاطها فى منف والجيزة ببطء. فتمكنت من جمع كم هائل من المعلومات لم ينشر معظمها فى أوراق هاى بمتحف برلين، والآن، تعتبر الصور والوصف المسجل بواسطة هذه المجموعة المصدر الأساسى عن آثار هذه المنطقة التى أصابها التخريب بشدة منذ زارها هاى.

قوبل ما كتبه شامبليون وتلميذه روسيللينى عن مصر بحماس شديد، وشرعت حكومات أوروبا فى الإهتمام بجدية البحوث وتسجيل النقوش الهيروغليفية. ومما يذكر أن ملك بروسيا بدأ يولى مصر اهتمامه منذ سنة ١٨٤٢، متأثرا ببلاغة الرحالة العلمى المشهور «ألسكندر فون هامبولدت» واختار الملك عالما شاباً فى الثلاثينات من عمره كان يعمل محاضرا فى جامعة برلين

يسمى كارل ريتشارد لبسيوس ليرأس بعثة كشفية إلى وادى النيل مدتها ثلاث سنوات، وافق هؤلاء العلماء البروسيين كلا من الفنان بونومى والمهندس المعمارى الإنجليزى «جيمس وايلد»، وقامت البعثة بعمل مسح شامل مستفيض للمواقع الأثرية الكبرى.

كان نجاح هذه البعثة باهراً حقاً، وذلك لأن التحضير لها كان جيدا، فقبل مغادرة أوروبا كان لبسيوس قد تفقد أشهر المجامع الأثرية فى أوروبا، كما درس أجرومية شامبليون الهيروغليفية، وتعلم الطباعة الحجرية والحفر على النحاس، ورغم أن مهمته كانت أساسا البحث عن الآثار واقتنائها، إلا أنه تجاوز هذا الهدف فقام بإجراء حفائر فى مواقع اللابيرانت فى الفيوم ورسم تخطيطاً (قطاعا) متقناً لطبقات الحفر بالموقع، وهذه فكرة جديدة لم يهتد إليها أحد قبله.

حمل لبسيوس وزملاؤه عند مغادرة مصر خمسة عشر ألف قطعة ما بين قوالب (نماذج تماثيل منسوخة) وآثار (أصلية) ، كانت نواة المتحف المصرى فى برلين، وصدر عن البعثة مطبوعات فاخرة فى اثنى عشر ألبوما تضم ٨٩٤ لوحة- ربما كانت أعظم إنتاج من نوعه، ثم نشرت بعد ذلك خمسة مجلدات أخرى تحتوى نصوصا وصفية، بعد وفاة لبسيوس سنة ١٨٨٤، ومجموع ذلك كله يمثل حصيلة جهود بعثة لبسيوس، وقد أصبحت منبعا لا ينضب عن آثار مصر القديمة، لن تبلى جدته أبداً.

قبل أن يهل منتصف القرن التاسع عشر كانت معظم آثار الوجه القبلى قد رصدت ولو من باب الفضول . لكن الوجه البحرى والدلتا كانتا شبه مجهولة من الناحية الأثرية، لأن أحداً لم يحاول الحفر فى السهول العميقة فى تلك المناطق، وبالجملة لم يكن الحفر العلمى المنظم قد بدأ فى مصر كلها بعد، وكان الإنجاز الوحيد تقريبا هذه المخططات والمساقط التى عملها السيد «وليام هوارد فيز» للأهرام، وهو سيد مهذب من العسكريين يحمل فى قلبه إيماناً عميقاً بالكتاب

المقدس ومن الخبراء فى البارود، وكان ينوى عمل تفجيرات لكشف مدخل هرم منكاورع، أما غالبية علماء المصريات فقد انصب إهتمامهم على النقوش الأثرية وعلى متابعة التسلسل التاريخى للأحداث، لأن معظم الجدل الأكاديمى انحصر فى تحديد زمن بدء الحضارة المصرية، أو فى تفسير النقوش الهيروغليفية.

استمرت سيطرة لصوص المقابر وتجارة الآثار على الحفائر الأثرية، وكانت أعمالهم واسعة النطاق ونتيجتها التخريب المأساوى للآثار الثمينة، وكان الوقوف فى وجه هذه الظاهرة ميتا لا يكاد يسمع له صوت، لأن المتاحف الأوروبية والقنصليات الأجنبية كانت ضالعة فى البحث المحموم عن الآثار الجديدة.

ولم يخل الأمر من أصوات عاقلة أخذت تندد بهذا العمل، من هؤلاء السيد «جورج روبينز جليدون» أمريكى سبق له العمل كنائب للقنصل الأمريكى بالاسكندرية وبعدها ذاع صيته كمؤلف ومحاضر عن مصر القديمة حملته أسفاره بعيداً حتى سان لويس بأقصى الغرب.

فى سنة ١٨٤٩ كتب جليدون نداء توجه به لأصحاب الوعى الأثرى، وكان فى صورة مذكرة غامضة إلى حد ما، لم يلتفت لها كثير من الناس عنوانها «التماس إلى الأثريين الأوروبيين حول تخريب آثار مصر» وقد حدث تجاهل شبه تام لهذا الالتماس.

كان نداء جليدون طويلا رناناً سجل فيه التخريب الذى نال الآثار المصرية منذ حروب نابليون سواء على أيدى اللصوص أو الأثريين، لكنه خص بالتنويه دور محمد على باشا وحكومته بهذا الخصوص، وأشار إلى أن معبد فيلة لم ينقذه من التدمير سوى دوامات الشلال الأول، وأبدى عميق أسفه على انتزاع سلالم مقياس النيل لبناء أحد القصور، ثم بين أن طيبة استمر تخريبها منذ بدء استشكافات ويلكنسون بها سنة ١٨٣٦، واستخدم البارود داخل معابد الكرنك،

وكانت أى رشوة مهما قل مقدارها كفيلة بحصول من يقدمها على أساطين تمثالية من بهو الأساطين، حتى باب مقبرة سيتى الخشبى الذى أعاده بلزونى بكفاءة إلى حالته الأصلية، استولى عليه الجنود الألبان بعد وفاة سولت، وربع معبد دندرة استخدمت حجارته فى بناء مصنع للسماد سنة ١٨٣٥، ولم يوقف التخريب سوى احتجاجات القنصل الفرنسى، ويبدي جليدون أسفه قائلا :«من العجيب أن الأساطين التى أقامها هادريان للعبادة تستخدم -الآن- فى مصنع لتكرير الروم!».

عندما ظهرت عجالة جليدون كانت بعض الأصوات قد علت وأصبح الرأى العام مؤيدا لاتخاذ إجراءات لحماية الآثار. فقد سبق أن احتج شمبليون سنة ١٨٢٩، واحتج القنصل الفرنسى «جين فرانسو ميمو» سنة ١٨٣٩ عندما نقل من مصر، وقد تحمس قبل ذلك بسنتين اللورد «الجيرنون بيرسى» للتعليق على حجم التدمير الواقع على آثار مصر، وفي الفترة بين سنتى ١٨٣٩-١٨٤٠ أعدت الحكومة البريطانية بيانا عن عمليات التدمير والتخريب رفعته لمحمد على باشا، لكن رؤى تأجيل الرأى العام وإثارته حتى يكون لدى الحكومة المصرية مهلة تتمكن فيها من معالجة الوضع.

هذا التقرير تم إعداده بعد الرجوع إلى تقرير مهم يدور حول الأنشطة الدبلوماسية والتجارية للقناصل، أعده «لورد» «بورينج»، ينتقد فيه بشدة تجار الآثار، وعندما درس التقرير سنة ١٨٤٢ استخرج منه الأجزاء الخاصة بأنشطة القناصل فى مجال الآثار - رغم أن الدبلوماسيين منذ الثلاثينيات من القرن التاسع عشر لم يكن عملهم يدع لهم فرصة للبحث الأثرى - وكان قانون الآثار الذى أصدره الباشا سنة ١٨٣٥ قد ظهر- على الورق على أقل تقدير.

يبدو أن نداءات جليدون المدوية كان تأثيرها ضئيلا جداً على ضمائر السياح وصائدى الكنوز، فكم ندد بمن نعته «السيد الأنجلو هندى» الذى لا

يتورع عن استخدام المعاول والمناشير فى قطع النقوش الفائرة من جدران مقبرة امنحتب الثالث ليسهل حملها إلى سفينته، وعندما ينتهى الفنان من عمله يلقى بالأصل فى النهر، ويفهم من السياق أن النقوش المنزوعة كان يمكن نسخها داخل المعبد، لكن الكسل والاستهتار جعل الفنان ينزعها ثم يتخلص منها بعد النسخ، فتكون الجريمة أفدح، وحتى عندما كان لبسيوس ومن معه من مصورين موجودين بالصعيد، تسلل فنان فرنسى منحرف الأطوار من هواة السياحة اسمه «أخيل كونسات تيودور إميل بريس دافن» إلى معبد الكرنك واستولى على قائمة الملوك الموجودة بها- وهى مجموعة حجرية محفور عليها صور الوجوه والخراطيش لكثير من الفراعنة، وللعلم لم يكن لدى دافن أى تصريح يخول له هذا، وفى ذلك تحد صريح لقانون الآثار.

كان بريس يعمل فى الليل بهمة حتى أفلح فى تعبئة الأحجار فى ثمانية عشر صندوقا قبل الإبلاغ عنه لحاكم إسنا، وقرر الحاكم فرض الحراسة على خيمة بريس، وبعد شهر رشا بريس الحاكم نفسه فسهل له نقل الصناديق إلى مركبه أثناء الليل، وفى رحلة العودة التقى بليبسوس الذى كان فى طريقه إلى الكرنك، وقام بما يلزم من إكرام العالم الكبير الذى جلس على أحد صناديق الحجارة الثمينة يتناول القهوة حتى القنصل الفرنسى نفسه تقاعس عن اتخاذ أى إجراء ضد بريس، لأن الشحنة الثمينة استقرت فى النهاية فى اللوفر.

إلى حد ما لم يكن هناك لوم على أمناء المتاحف والأثريين إن كانوا قد نظروا إلى صائدى الكنوز نظرة تنطوى على التسامح، فقد كانوا أينما قلبوا وجوههم يشاهدون تفتيت وتدمير المعابد والأهرام للحصول على حجارة للبناء.

وكان التجار يلحون على السياح لشراء الآثار، لذلك أقنعوا أنفسهم أنه من الأفضل ترك العلماء والتجار ينقلون ما استطاعوا نقله من الآثار القيمة التى يجدونها إلى أوروبا، حيث تتوفر الحماية ضد النهب والضياع، وحيث أنه لم يكن

فى مصر دار للآثار فإن هذا الإجراء يكون إجراء وقائيا فعالا، وربما كان هذا خير حل بعد هدم متحف القاهرة الذى كان بحديقة الأزبكية، لذلك كانت اللهفة على النسخ والتسجيل بالإضافة إلى التصوير لصيانة المكتشفات الأثرية ظاهرة متفشية بين العلماء والثقات فى ذلك الوقت.

وقد طرحت أو أحرقت آلاف النقوش والبرديات أو تحطمت وتلفت أثناء الحفر المحموم للبحث عن الآثار الضخمة، وكانت الآثار الضخمة بغية متاحف أوروبا مع البرديات الجميلة والمخطوطات القيمة، لكن لا أحد من هؤلاء كان يولى أدنى إهتمام لتحسين وسائل استكشاف الآثار فى مواقعها.

كانت المخطوطات التى أغرت شابا فرنسيا لزيارة مصر، وكان له اهتمام بالغ بالآثار المصرية، هذا الشاب هو أوجست مرييت من مواليد بولونيا بفرنسا، وكان مولده فى ١١ من فبراير سنة ١٨٢١، وكانت طفولته عادية ولكن يبدو أنها كانت سعيدة، وفى سن الثامنة عشرة سافر إلى انجلترا لتدريس اللغة الفرنسية فى مدرسة خاصة هى «سترا تفورد- ابن - أفون».

واستمر فى التدريس سنة واحدة وهى على أى حال مغامرة قصيرة المدة، بعد ذلك عاد مرييت إلى بولونيا واشتغل مدرسا فى كليتها المحلية التى تلقى فيها تعليمه من قبل، ثم اكتشف فى نفسه موهبة الكتابة فبدأ يكتب مقالات فى أوقات فراغه يعالج فيها شتى الموضوعات لتنشر فى الصحف والمجلات.

وحتى سن الثامنة والعشرين لم يكن لمرييت صلة بمصر أو بعلوم المصريات، وفى سنة ١٨٤٢ توفى شخص يدعى نستور لوط الذى كان ضمن البعثة العلمية فى حملة نابليون على مصر، وكانت وفاته أثناء رحلة صحراوية، هذا الرجل انتقل أبوه للإقامة فى بولونيا، وقد ترك الابن وراءه بعد وفاته كماً ضخما من الأبحاث والمدونات كانت فى أمس الحاجة للتنظيم والنشر.

وكان لوط هذا من رجال الجمرك، ومن أقارب عائلة مرييت، فطلب من مرييت فحص هذه الأوراق وسرعان ما وجد مرييت نفسه مفتونا بذلك العالم الجديد الذى انفتح أمام ناظريه، وأصبح مستغرقا تماما فى الإهتمام بالنقوش الهيروغليفية المعقدة ومحاولة قراءتها.

سرعان ما استغرقته هوايته الجديدة لدرجة أنه كتب مقالا عن الآثار القليلة الموجودة فى متحف بولونيا، ونظرا لقوة المقال تمكن من كسب تأييد مدينته ومساندتها فى مطالبة الجهات الرسمية بإرساله لبعثة كشفية فى مصر، فلما رفض طلبه استقال من وظيفته ونفض يديه من الارتباط بكتابة المقالات وسافر إلى باريس، وفى باريس تردد على اللوفر ودرس قائمة الملوك التى استقرت هناك بعد أن كانت فى الكرنك.

ثم إنه كتب مقالا مستفيضا يقع فى سبعين صفحة تحدث فيه عن نقوشها. ولفت المقال نظر عالم المصريات شارل لينورمان بكلية باريس فتوسط للشاب النشيط لدى إدارة اللوفر حتى أسندت إلى مرييت وظيفة صغيرة بالمتحف الشهير، وكان مرييت يقضى نهاره فى تبويب البرديات، ومساءه فى قراءة المصريات بنهم، أو فى التدريب على إتقان قراءة النصوص الهيروغليفية حتى أصبح فيها من المحترفين.

حانت فرصة مرييت الكبرى سنة ١٨٥٠، فقد استمر تعضيد لينورمان له، وتحولت تزكية العالم الكبير إلى تكليف يتعين بموجبه على مرييت أن يحصل على مخطوطات قبطية من مصر، وسافر مرييت إلى الاسكندرية يملؤه الحماس، ثم اتصل ببطريرك القبط فى القاهرة ، ليفاجأ بأن الرجل كان موغر الصدر حنقا على جامعى الوثائق الأجانب.

واتضح أنه منذ سنوات اتصل اثنان من الإنجليز ببعض القساوسة ونادموهم حتى سكروا، فلما غاب القساوسة عن الوعى هرب الإنجليزيان

بمكتبة كاملة من الوثائق ، لذلك كان يعارض بشدة تسرب مزيد من الوثائق من بين يدى الكنيسة.

أسقط فى يدى مرييت لأنه أيقن بأن حصوله على مخطوطات قبطية فى حكم المستحيل، لذلك فكر فى توجيه نشاطه إلي مجال الكشوف الأثرية، معتمدا على نص إضافى فى أمر التكليف يخول له الحفر فى المواقع الأثرية لجمع ما يثرى به المجموعة الموجودة في اللوفر، وفى آخر اكتوبر سنة ١٨٥٠ كان مرييت قد أعد للأمر عدته واتخذ لنفسه معسكرا وسط جبانة سقارة، لم يكن لدى مرييت تصريح بالحفر من الباشا، ولم يكن معه من المال إلا قليلاً، وكانت السلطة المخولة له من المتحف محدودة للغاية.

لكن كانت هناك إحدى رءوس أبى الهول ظاهرة بين الرمال تشبه ما رآه منها من قبل فى القاهرة والاسكندرية وهى من المنطقة نفسها. هذه الرأس اشعلت حماسه، فأخذ يفكر فى أمرها وأمر نظائرها، وأسعفته سعة إطلاعه فاسترجع فى خاطره ملحوظة قرأها فى كتابات استرابو فحواها أن هناك سيرابيوم فى منف، فى مكان رملى فيه ممر على جانبيه تماثيل أبى الهول يؤدى إلى مقبرة عجول أبيس حيث كان يجرى دفنها فى الرمال، واستولت على مرييت روح المغامرة فقامر على كشف المقبرة، لذلك جمع ثلاثين عاملا عند رأس أبى الهول وأمرهم بالحفر بحثا عن المقبرة.

كان نجاح مرييت فوريا، وسرعان ما أخذت تماثيل أبى الهول تظهر الواحد تلو الآخر محددة للطريق، وظهرت مع الحفر آثار أخرى : مقابر وتماثيل جالسة، وتمثال خصوبة، ومعبدان لعبادة أبيس أحدهما يونانى والآخر مصرى، وكان بالمعبد المصرى أحد تماثيل أبيس الرائعة، فى ذلك الوقت كانت ميزانية الحكومة الفرنسية على وشك النفاذ.

لكن القنصل الفرنسى أرنو لومين أعجب بنشاط ذلك الشاب المتحمس فأعانه بالمال ليستأنف نشاطه، وفى الوقت نفسه تقدم مرييت بطلب إلى رؤسائه ليمدوه بالمال، ويبدو أن مرييت كسب الرهان، فقد كانت المعونات المالية فى طريقها للوصول إليه.

فى غضون أسابيع قليلة من الأزمة المالية كان مرييت يحفر لكشف مخبأ يحتوى على تماثيل برونزية لأوزيريس وأبيس وآلهة مصرية أخرى تحت أرضية المعبد أوقدت الغيرة والحماس فى قلوب المصريين والأجانب معا، واستثيرت مصر كلها، وركب الحسد تجار الآثار، وتدخل الخديو عباس بن محمد على لمصادرة الآثار، لكن القنصل الفرنسى أمكنه تلطيف الجو ونجح فى السماح باستحواذ فرنسا على المكتشفات الأثرية فى المستقبل، وقد آثار التصريح إنزعاجا كبيرا فى فرنسا، لأن الحكومة الفرنسية كانت قد فرغت للتو من الموافقة على تخصيص ثلاثين ألف فرنك للاستكشافات الأثرية المقبلة.

لم ينزعج مرييت للشروط واستمر فى حفائره بهدوء، وفى نوفمبر سنة ١٨٥١ وفق فى الحصول على مقبرة عجول أبيس بعينها، وكان يسدها باب رائع منحوت من كتلة صخرية واحدة، وسرعان ما كان مرييت بنفسه داخل المقبرة فاندهش إذ وجد كثيرا من توابيت العجول المقدسة الحجرية قد نزعت أغطيتها وتناثرت بفعل لصوص المقابر، لكن الذى بقى أكثر مما نهب.

وحسب الفرمان يذهب كل ما اكتشفه إلى الخديو فكل ما احتفظ به فى متحفه أهداه لمن شاء من ذوى النفوذ الأجانب لأغراض سياسية، واستقر رأى مرييت على اتباع خطة معينة، فقد وضع ما شاء أن يستولى عليه فى صناديق أخفاها فى قاع هوة عميقة فى أرضيتها باب سرى يفتح على المقابر التى تحته، وبذلك ذهب ما ذهب إلى متحف اللوفر بينما كان مرييت يتلاعب بالمسئولين المصريين ويطلعهم على المقابر المكتشفة فارغة.

أمضى مرييت عدة شهور يستكشف مدققا حتى أعمق السراديب وأبعدها . وكانت مكافأة كده وصبره عثوره على مومياء لأحد عجول أبيس سليما تماما . يرجع تاريخه إلى عصر رمسيس الثانى، حتى آثار أقدام العمال الذين دفنوا العجل كانت واضحة على تراب المقبرة، وكان التابوت الذى فيه الجثة -أيضا- سليما ، كما كان العجل نفسه محاطا بالذهب والمجوهرات بكثافة.

ابتهج الفرنسيون وانفعلوا عند مشاهدة مكتشفات السرابيوم معروضة فى متحف اللوفر، فكان ذلك من أسباب شهرة مرييت وذيوع اسمه فى أنحاء العالم، ومكافأة له على جهوده رقى إلى درجة أمين مساعد بمتحف اللوفر، وأسرع مرييت فى إصدار ألبوم به لوحات للسيرابيوم تحت عنوان «المختار من آثار مصر» يمكن النظر إليه على أنه إرهاص لمجلد فخم غزير المادة عن هذه المكتشفات.

كان مرييت إنسانا قلقا يتميز بالحيوية ولا يحب حياة الاستقرار. كذلك كان معروفا بميوله الاجتماعية، فلما أصبح معروفا بين علماء المصريات اتصل ببعضهم وأصبح من أعز أصدقاء عالم المصريات الألمانى إميل بروجش الخبير فى الخط الديموطيقى، فقد تصادف أن زار بروجش السيرابيوم زيارة عابرة لكنها أدت إلى نشوة صداقة بين الرجلين استمرت العمر كله.

وكان الرجلان ذوى ميول متشابهة ويحبان حياة المتعة والتنعم، ورغم أن مرييت لم يكشف لنا النقاب عن حياته الشخصية، فإن بروجش قد كشف لنا جانباً منها، فتكلم عن بيت مرييت الفلاحى (مبنى بالطوب النيئ) وسط السيرابيوم، وكان -بيتا- ممتلئا بالعمال والنساء والأطفال ... والقردة، وكان أثاثه «إسبرطيا» - أى رخيصا، وشكا بروجش أن «الخفافيش تطير فى مخدعى .. فأحكمت الناموسية تحت الفراش وفوضت أمرى لله- بينما كانت أبناء آوى والذئاب والضباع تعوى فى الخارج».

أدى نشاط مرييت وطموحه إلى لفت نظر المهندس الديبلوماسى الشهير «فردناند دى ليسيبس» صاحب مشروع قناة السويس، واستمع دى ليسيبس لآراء مرييت ومقترحاته بخصوص إنقاذ آثار مصر، فى ذلك الوقت كان الوالى الجديد سعيد باشا الذى شغل المنصب سنة ١٨٥٤ فى أعقاب اغتيال الوالى السابق عباس باشا الذى يعرفه مرييت،

وتكلم دى ليسيبس مع الوالى الجديد فى شأن مرييت (لكن يبدو أن الموضوع وقف عند هذا الحد)، ثم حدث أنه بعد ثلاث سنوات وجه سعيد باشا الدعوة عن طريق الحكومة الفرنسية إلى مرييت للحضور إلى مصر بمناسبة الإعداد لزيارة الأمير نابليون للأراضى المصرية، فلما حضر كلفوه بالتنقيب عن بعض التحف الأثرية الجميلة لإهدائها للزائر الملكى، ولم يتردد مرييت فى تنفيذ ما طلب منه، وكان يعمل هذه المرة مدعوما بالمال، وتحت يده رفاص حكومى لتنقلاته، بدأ مرييت حفائره فى سقارة، وسرعان ما نقل نشاطه إلى طيبة وأبيدوس حيث وافاه صديقه بروجش ليشاركه فى العمل، وكانت نتائج الحفر سخية، لكن لسبب ما ألغيت زيارة الأمير، فانتهز دى ليسيبس الفرصة فاقترح على الباشا تعيين مرييت مفتشا عاما للآثار المصرية، كما طلب من الباشا تأسيس متحف جديد للآثار يكون مرييت -أيضا- أمينا له، وقد كانت هذه الاقتراحات من قبل مثار اعتراض مستمر وشجب من جانب تجار الآثار والدبلوماسيين الغارقين لآذانهم فى تجارة الآثار بطرق ملتوية غير مشروعة.

رغم التوصيات كان وضع مرييت مهزوزاً، فقد كان أمر تمويل مشاريعه يخضع تماماً لإرادة الباشا وحسن نواياه، وكانت نواة دار الآثار تتكون من «مسجد صغير مهجور، وسقائف فقيرة، وبيت للسكن تملؤه الهوام» والأخير طبعا مخصص لإقامة مرييت، لكن مرييت كان سعيداً جدا بذلك، وجمع حوله عائلته ومستشاريه وشمروا جميعا للعمل والاستكشاف بكل همة ونشاط.

كانت العمالة رخيصة ومتوفرة، ولم تكن لديه صعوبة فى استئجار قرية بأسرها إذا شاء، وكان الرجل يجرى الحفائر بأسلوب فج متهور لا يوافقه عليه أحد، لكنه مثمر، وكان يعمل تحت إمرته فى وقت واحد مجموعات عمالية تحفر فى سبعة وثلاثين موقعاً مختلفاً تغطى مصر كلها من الدلتا حتى الشلال الأول.

كانت مكتشفات مرييت غزيرة وعظيمة، لكن وفرة الإنتاج صاحبه إهمال جسيم واتباع أساليب متخلفة فى الحفر، كان مرييت بطبيعته يسعى للحصول على آثار مظهرية تعجب المشاهد لمعرضه، ويقدرها الوالى، ومن مساوئ أسلوبه أنه لم يتورع عن استخدام الديناميت، ومن الناحية الفنية ضرب صفحاً عن تسجيل المكتشفات ولم يهتم بتدوين أى ملاحظات، كان كل همه الحصول على قطع أثرية، لقد كان اهتمامه بالأشياء أكثر من اهتمامه بالمضمون.

ومما يذكر أنه استولى على محتويات ثلثمائة مقبرة فى منطقتى الجيزة وسقارة وحدهما وجردها من كل ما فيها، لكن يحسب له أنه هو الذى أجلى السكان وأخلى سطح معبد إدفو، فأظهر المقبرة العظيمة للعيان لأول مرة منذ قرون.

وفى طيبة نجح عماله فى تنظيف وإظهار معبد حتشبسوت بالدير البحرى، وفى هذه الأثناء حدث احتكاك، كاد يتطور إلى عراك، بينه وبين مركيس دوفرين وآفا الذى كان يقوم سراً بالاستيلاء على كمية كبيرة من الشقفات الأثرية المنقوشة من معبد منتوحتب فى المنطقة نفسها، كذلك استعاد مرييت معبد حتحور الكبير ومعبد آمون بالكرنك وأكثر من خمسة عشر ألفا من الآثار الخفيفة.

كانت صيانة الآثار فى ذلك الوقت شيئا جديداً، وكانوا يفهمونها على أنها مجرد حظر تفكيك وتفتيت المنشآت الأثرية للحصول على حجارة للأغراض

الإنشائية الجارية، أو مصادرة الآثار المنهوبة لصالح الحكومة، وحاول مرييت تطوير مفهوم الصيانة وجعله يعنى السيطرة الحكومية عليها بالكامل وقصر حقوق الاكتشافات على مندوبية.

وهذا ما يعنى عملياً وضعها بالكامل تحت سيطرة مرييت الشخصية، لكن ذلك كان أبعد مما يتصور، فالوالى نفسه لم يكن يهمه من أمر مرييت شيئا، كان استخدامه مجرد عمل سياسى من جانب الوالى استجابة لإلحاح دى ليسيبس والأمير نابليون، والواقع أن الباشا كان بيده أن يقطع الاعتمادات المالية المخصصة للمتحف بدون إخطار سابق، ولم يكن يبالى بتجريد المتحف من أى قطعة أثرية يريد إهداءها لأى زائر مقرب.

ووجد مرييت أنه ليس أمامه من حل سوى استثارة اهتمام الوالى شخصياً بالآثار، فلم يكن أمامه سوى موالاة إغراق المتحف بآثار الجديدة المظهرية المبهرة.

وكان هذا السبب فى الجرى المسعور وراء مكتشفات أثرية جديد، دون مراعاة لما تقتضيه قواعد التخطيط المنظم للكشوف الأثرية، وهذا الإهمال المتعمد لاحظه وأشار إليه بعض علماء الآثار واعتبروه من سلبيات الرجل.

فى سنة ١٨٥٩، وصل إلى علم مرييت فى القاهرة أن التابوت الحجرى المزخرف بالذهب والخاص بالملكة «إعح حتب» أم الفرعون أحمس قد وجد سليما فى طيبة، وعلم أن حاكم طيبة استولى على التابوت ثم جرده من الزخارف وأرسلها كمجوهرات ثمينة إلى الباشا كهدية سياسية عالية المستوى.

هذا الخبر أفقد مرييت شعوره فركب رفاصا حكوميا وتوجه فورا للصعيد ومعه أمر رسمى يخول له إيقاف أى سفينة يشك فى أنها تحمل آثاراً، والتقت السفينتان فكان لا مناص من نشأة عراك عنيف، وحدث نزاع حاد بخصوص

الذهب استمر لأكثر من نصف ساعة، بعدها أمسك مرييت بين يديه نسخة الأمر الذى يخوله حق المصادرة، وأخذ يلوح به بضراوة.

وكاد أحد الرجال يسقط فى النهر، ولوح آخر بالضرب فى المليان، ولكن الأمر انتهى بتسليم الذهب والجواهر إلى مرييت، وأسرع مرييت لمقابلة الباشا وأهداه جُعلا ثميناً وقلادة لإحدى زوجاته.

وبذلك حول المكسب السياسى إلى نفسه، وأظهر الباشا سرورا بالغا بالمكتشفات – ربما كان جزء منه شماتة فى حاكم، طيبة، وفى فورة سروره أصدر أوامر ببناء متحف جديد كى تعرض فيه آثار الملكة (أم أحمس، ونفذ المشروع بسرعة وأصبح لدى مرييت متحفا أثريا جديداً سرعان ما حشده بالكنوز الفرعونية.

ونظراً لطول مقام مرييت عهدت إليه حكومته بالاتصال بسعيد باشا وإقناعه فرنسا بمناسبة توقيع أحد قروضه المالية، وكان مرييت بطبعه يكره المهام الدبلوماسية، لكن وساطته نجحت، وصحب الباشا فى رحلته إلى فرنسا، وهناك زارا مسقط رأس مرييت فى بولونيا حيث استقبل الباشا بحفاوة، ووصل اغتباط سعيد باشا بالزيارة درجة جعلته ينعم على مرييت برتبة الباكوية ويخصص له معاشا ثابتاً. لكن هذه الصداقة التى توطدت أواصرها انقطعت فجأة بموت سعيد باشا بعد ستة أشهر.

فى ذلك الوقت كان متحف بولاق قد تحول إلى معرض، لذلك زادت الأعباء على كاهل مرييت (بك) لاضطراره لمرافقة كبار الزوار فى جولاتهم وضرورة مداومة اتصاله بأقرانه فى أوروبا، ولطول مقامه توطدت علاقاته فى مصر مع موظفى الحكومى وتجار الآثار والأهالى جميعاً، وقد سهل ذلك كثيراً من سعيه للمحافظة على الآثار الثمينة التى جمعها.

وكان مرييت شعلة من النشاط لا يكف عن التواجد إما بمكتبه أو بأحد ميادين الحفر والاستكشاف، وكان يخرج للعمل كل يوم مع الفجر، وكان يقضى وقت راحته فى منزله حيث يتغذى مع زوجته اليانورا، وكانت هذه السيدة قد حولت البيت إلى مضيفة تعج - دائما- بالأصدقاء والزائرين.

هذه الزوجة الوفية قدر لها أن تموت بالطاعون سنة ١٨٦٥، فلم يصبح لمرييت سلوى إلا بمزيد من العمل، وانتشلته من همومه مهمة كلفه بها الخديوى إذ أرسله إلى باريس لمدة سنة ليشرف بنفسه على إعداد الجناح المصرى فى معرض باريس الذى أقيم سنة ١٨٦٧.

انبهرت باريس بمعروضات مرييت التى أحيت أمام أعينهم الحياة المصرية القديمة، وكان مرييت قد عرض فيه بذكاء أجمل ما خف حمله وغلا ثمنه من مقتنيات متحف بولاق، وكانت تتصدر المعروضات مجوهرات الملكة إعح حتب، وأخذت المجوهرات بألباب الفرنسيين وعلى رأسهم الإمبراطورة أوجينى.

وأرادت أوجينى أن تستولى على المجوهرات فخاطبت الخديوى مباشرة أن يهديها إياها بعد انتهاء المعرض، كانت اللحظة حرجة وحاسمة بالنسبة لمستقبل الآثار المصرية، لكن الخديو قال لها بحصافة «هناك -فى بولاق- واحد أقوى منى ، يجب عليك أن تقدمى طلبك إليه».

وكان مرييت رجلا لا تؤثر فيه الرشاوى ولا التهديدات لا يتهاون ولا يحيد عن موقفه مهما أغضب شخصية لها وزنها مثل الإمبراطورة القوية أو الخديو، لذلك (رفض الطلب) فعادت المجوهرات سليمة إلى مصر.

شغلت مسألة صيانة الآثار بال مرييت فى سنواته الأخيرة، وقد صرح بأنه «يجب علينا أن نصون آثار مصر ونعنى بها... وأن نعمل على تمكين العلماء حتى بعد خمسمائة سنة من دراسة الآثار ومشاهدة آثار مصر الموجودة فى

وقتنا الحالى»، لقد كان استهتار السياح كالشوكة فى جنب مرييت، ومن الأمثلة الصارخة على عبث بعض السياح ما يحكى عن سائح أمريكى أراد إثبات وجوده فى مصر سنة ١٨٧٠، فلم يجد وسيلة ترضيه سوى طوافه حاملا «فرشاة» ودواة مملوءة بالقطران. ثم أخذ كلما مر على معبد لطخه بالإعلان عن زيارته المستهجنة».

كانت مشكلة التخريب لا تقل فداحة عن مشكلة الصيانة، ومما أشار إليه مرييت أن مقبرة «تى» بسقارة على سبيل المثال «لحقها من التخريب على أيدى السياح فى عشر سنوات أضعاف ما لحقها خلال الستة آلاف سنة الماضية».

وقد تعترينا الدهشة إذا عرفنا أن هدف مرييت من تكثيف حفائره كان العمل على إنقاذ آثار مصر لتراها الأجيال القادمة، ومما وصل إلينا من معلومات عرفنا أن مرييت قد استخدم خلال مدة عمله الوظيفى أكثر من ٢٧٨٠ عاملاً وهو عدد لا يتيسر لأى فرد أن يحكم سيطرته عليه بمفرده، لكن مرييت بنى الورش فى إدفو وطيبة وأبيدوس ومنف، لاستقبال الآثار المكتشفة وترميمها، وهى فكرة جديدة لم تعرف من قبل فى الشرق الأدنى.

كان مرييت رجلا متعدد المواهب ولم يقصر إهتمامه على الآثار، فقد شارك مشاركة فعالة فى حفلات افتتاح قناة السويس فى نوفمبر سنة ١٨٦٩، ففى ذلك اليوم افتتحت غريمته القديمة الإمبراطورة أوجينى هذا المجرى المائى على ظهر اليخت الإمبراطورى أيجل وأسعد مرييت أن يكون ضمن بعثة الشرف المرافقة لسموها.

وأراد الخديو أن يستغل مواهب مرييت فى مجال آخر فطرح عليه فكرة طريفة وكلفه بتنفيذها بنفسه، وكان طلب الخديو قيام مرييت بنفسه بكتابة نص أوبرالى (أوبرا عايدة) لكى يلحنها الملحن الايطالى الكبير فيردى احتفالا بالمناسبة، وبالفعل كتب مرييت النص بمعاونة مواطن فرنسى إسمه دى لود.

فى أواخر حياته الوظيفية الحافلة أحاطت المآسى الشخصية والوظيفة بمرييت من كل جانب ، فحفائره تعثرت لنقص الاعتمادات المالية بسبب ديون مصر الخارجية - التى أطاحت فى النهاية بالخديو نفسه، وخلفه غيره فى سنة ١٨٧٩، وقبل ذلك بسنة أغرق الفيضان متحف بولاق فضاع بسببه كثير من الآثار ومعظم كتبه ومذكراته القيمة عن السيرابيوم، وفى الوقت الذى أخذ صيته يعلو على المستوى الدولى، ومع أن أكاديمية الفنون كرمته، إلا أنه فقد أبناءه الأعزاء الواحد تلو الآخر فأصبح وحيدا لا يجد للحياة معنى.

وصف أحد النبلاء الفرنسيين سنة ١٨٧٢ مرييت بأنه عندما رآه وجده «رجلا ضخما- طويلا عريضا- وكان مسناً لكنه ليس عجوزاً .. متين البنيان كأحد تماثيله العملاقة .. وجهه محدد المعالم.. نظرته حالمة تتسم بالكآبة .. لكنه اعتاد الجلوس على شط النيل يتحدث ويعبر عن حبه لمصر العجيبة ونيلها وصفاء سمائها».

بعد تولى الإنجليز والفرنسيين الإشراف المالى على مصر، أخذت الأمور تستقر، وانتظم صرف مرتب مرييت، لكن صحة الرجل أخذت فى التدهور بسبب البول السكرى ، وعاد من أوروبا إلى مصر رغم ضعفه، حيث مات فى سلام فى بيته المجاور للمتحف الذى أسسه وأحبه، وكانت وفاته فى يناير سنة ١٨٨١، قبل أن يظهر كتابه عن السيرابيوم فى الأسواق، لكن الأحوال عموماً قد تبدلت.

فقد تأسست دار آثار جديدة مهستديمة حوت كافة أشكال آثار مصر القديمة، وتغير الحال فأصبحت الحكومة مسيطرة على قطاع الآثار، وصار نهب آثار مصر وتهريبها عملية صعبة للغاية، والحقيقة أن مصر عرفت لمرييت قدره، وقدرت أفضاله وإخلاصه ، فدفنته بما يستحق من الاحترام عند باب متحفه البولاقى.

فى المتحف البريطانى و ضع فى الحفظ والصون :

تزامن موت أوجست مرييت مع تغير فى أوضاع مصر السياسية، سببها سلبية الخديو فى مواجهة المشاكل، ثم الثورة الشعبية التى قامت ضده فى القاهرة. واهتمت بريطانيا وفرنسا بالموضوع خوفا من تأثر الأوضاع بقناة السويس ولحماية الاستثمارات الصناعية الأجنبية فى مصر، وهددت الدولتان بالتدخل العسكرى وإرسال أساطيلها إلى الاسكندرية عند ظهور أى بوادر تدل على عدم استقرار الأوضاع، وهذه إشارة واضحة إلى الأتراك بأن الأمور فى مصر أخذت تتحول.

أدت ثورة الجيش فى سبتمبر سنة ١٨٨١ إلي تأليف حكومة شعبية لم تستمر فى الحكم سوى عام واحد، كانت هذه الحكومة يرأسها الخديو توفيق إسما، والضابط الشاب أحمد عرابى فعلا، وطالبت بريطانيا باستقالة الحكومة بحجة تدهور الموقف الأمنى وقتل الأوروبيين فى شوارع الاسكندرية علنا، ولم تلبث بريطانيا أن أرسلت أسطولها فى البحر المتوسط وعليه قوة عسكرية إلى مصر، وفى وقت قصير تغلب الجيش الإنجليزى بقيادة الاجنرال السير جارنيت ولسلى على مقاومة الجيش المصرى.

فى أثرها دخلت القوات البريطانية القاهرة وأقرت الأمن والنظام فيها، وانتقلت مقاليد الحكم الفعلية إلى أيدى القنصل البريطانى العام (السير إيفلين بارنج. لورد كرومر فيما بعد)، بينما ظل الخديو حاكما إسميا بلا سلطات تقريبا، واستمر إشرافه على شئون الحكم فى مصر عشرين عاما، كانت كلمته فيها هى العليا، وسياساته مملاة من مدينة لندن.

وكان الرجل من خبراء الاقتصاد لذلك كان معظم نشاطه موجها لإصلاح اقتصاد مصر المثقل بالديون، وعمت إصلاحاته كل المصالح الحكومية ومنها

بالطبع مصلحة الآثار. وسيطر على إدارة الدفاع، وأحوال الشرطة، والشئون الأجنبية، والمالية والأشغال العامة خبراء بريطانيون. لكن التعليم والآثار والفنون ظلت بأيدى الفرنسيين.

عندما اعتلت صحة مرييت إهتمت الحكومة الفرنسية بالأمر إهتماماً بالغاً، لأنها كانت حريصة على دعم نفوذها فى قطاع الآثار المصرية، من أجل ذلك اختارت أحد العلماء الشبان وإسمه ماسبيرو وأرسلته إلي مصر قبيل وفاة مرييت، وكان ماسبيرو ضليعاً فى علوم المصريات وخبيراً فى الهيروغليفية، وعلى معرفة وثيقة بمرييت منذ سنة ١٨٦٧ وهو طالب.

ولد ماسبيرو فى باريس سنة ١٨٤٦، وكان أبوه مهاجرا ايطاليا من ميلانو، ومنذ الصغر شغف ماسبيرو بالمصريات فأصبحت مناط اهتمامه، لذلك اجتهد حتى أتقن الهيروغليفية فى وقت قصير، ولم يتح لماسبيرو زيارة مصر إلا فى سن الرابعة والثلاثين عندما أرسلته حكومته ليعد نفسه لخلافة مرييت فى إدارة متحف بولاق.

كان ماسبيرو من الأفذاذ الذين لا يشق لهم غبار فى علوم المصريات حتى أنه فاق أستاذه مرييت نفسه فى هذا المجال، هذا بالإضافة إلى صغر سنه وحيويته وذكائه المتوقد، ولم يدخر ماسبيرو جهدا فى الإحاطة الشاملة بالمصريات فغطت جهوده كافة جوانبها من حفر وتنقيب إلى كتابة وقراءة الهيروغليفية، هذا بالإضافة إلى نشاطه فى التأليف.

وكانت لماسبيرو مؤلفات رائجة فى زمنه تناولت المصريات وغيرها من الموضوعات، وكان له جمهور غفير من القراء فى أوروبا وأمريكا، وكان لكتاباته أثر فى زيادة وعى الناس بالآثار المصرية فأخذ يظهر إتجاه عام يتعامل مع مصر القديمة بروح تتسم بالإهتمام والمسئولية.

تحت إدارة ماسبيرو تم ترتيب وتنظيم المجموعة الأثرية الضخمة بالمتحف، وسهل اللورد كرومر لماسبيرو تأسيس مصلحة الآثار المصرية وتطويرها حتى أصبحت مؤسسة قوية تضم خمس مراكز تفتيشية لتنظيم ومراقبة الحفائر الأثرية فى ربوع مصر، وألزم المنقبون الأجانب بإجراء حفائرهم تحت رقابة مفتشى المصلحة، وهذا الإجراء وإن حد من الأعمال غير الشرعية، إلا أنه لم يوقفها تماماً، فقد استمرت عمليات التهريب لأن المتاحف وجامعى التحف ووكلائهم كانت لهم طرقهم الملتوية فى تنفيذ مخططاتهم.

كان لدى تجار الصعيد -دائما- بضاعة حاضرة من الآثار. فلما نشطت السياحة منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر وأخذت وفود السياح تتزايد، زاد الإقبال على شراء الآثار، فحقق أهل القرنة من وراء ذلك مكاسب ضخمة، وكان معين المعروض من الآثار والمومياوات لا يكاد ينضب، ونخص بالذكر الأخوين أحمد ومحمد عبد الرسول، اللذين اعتادا على تهريب الآثار داخل لفائف من القماش أو فى سلال الخضروات.

هذان الأخوان كان بدء اشتغالهما بتجارة الآثار بطريق الصدفة البحتة، فقد ضلت للأخوين معزاه (من قطيع الماعز) فسعى وراءها أحمد ليبحث عنها، وأثناء بحثه عثر بالصدفة على مخبأ به مومياوات وأثاث جنائزى فى قاع صخرى عميق.

ومنذ ذلك الوقت أخذ الإخوان فى سلب الكنز الموجود تدريجيا وبمقادير محدودة، واستمرا على هذا الحال عشر سنين متوالية، وقد هداهما ذكاؤهما الفطرى إلى هذا الأسلوب خشية أن يؤدى إغراق السوق بالآثار إلى هبوط حاد فى أسعار بيعها.

وكان السياح الإنجليز والأمريكيون على وجه الخصوص يتهافتون على الآثار الصغيرة الثمينة، خصوصا ما كان يحمل منها شعارات ملكية.

ونما إلى علم ماسبيرو نبأ هذه التجارة المريبة، فأدرك على الفور أنها تعتمد على اكتشاف سرى كبير فى وادى الملوك، وقد بنى ماسبيرو شكوكه على أساس أن بعض القطع المتداولة منها كانت فريدة فى نوعها، ليس هذا فقط وإنما كان بعضها يحمل الشعارات الملكية، كما أن بعض المومياوات المعروضة للبيع كانت مومياوات فراعنة حقيقيين.

تصرف ماسبيرو بحذر لأن تفتيش آثار الأقصر لم تكن أموره قد انتظمت بعد، لذلك سارع بإرسال برقية إلى شرطة الأقصر طالبا تشديد الرقابة على تجار الآثار من أهاليها، ثم أرسل مبعوثا خاصا إلى هناك متظاهرا بأنه سائح ثرى مستعد للصرف ببذخ، وبادر المبعوث بشراء بعض القطع الأثرية المختارة لكسب ثقة التجار، وكانت النتيجة أن التجار بدأوا ينظرون إليه باعتباره (عميل فوق العادة) وأصبحوا يعرضون عليه أنفس ما لديهم، وفى إحدى المرات عرض عليه تمثال جنازى صغير من عهد الأسرة الحادية والعشرين.

أيقن المندوب أنه لابد قد سرق من مقبرة ملكية، واشترى الرجل التمثال بعد مساومة عنيدة، أمكنه خلالها أن يتعرف على أحمد عبد الرسول، واتجهت شبهات المبعوث وشرطة المدينة إلى عائلة عبد الرسول .

وتأكد أن العائلة كانت تؤثر شخصاً تركياً بعينه على غيره من العلماء ، هذا العميل اسمه مصطفى أغا آيات يعمل وكيلا لقنصليات بلجيكا وفرنسا وروسيا، فكان يتجر فى الآثار ويقتنيها مستظلا بالحصانة الدبلوماسية.

طبقا للقانون كان أغا آيات فوق المساءلة القانونية لكن الأخوين عبد الرسول كانا تحت طائلة القانون لذلك اعتقلتهما الشرطة فى ابريل سنة ١٨٨١ وأرسلا فى أصفادهما إلى محافظ قنا لاستجوابهما،، ودافع الأخوان بفصاحة عن نفسيهما ونفيا التهمة، واعتمدا فى دفاعهما على أنه لم يعثر على أى آثار فى بيتهما (هما طبعا ليسا من السذاجة ليحتفظا بدليل الإدانة) بالإضافة إلى ذلك

حشدا جمعا من الأهالى شهدوا لهما بنظافة اليد والبعد عن الشبهات، ولم يُجد معهما الترهيب ولا الترغيب، لذلك أطلق المحافظ داوود باشا سراحهما لعدم كفاية الأدلة.

وهناك شك كبير فى أن داوود باشا نفسه كان على صلة بهما، وعاد الرجلان منتصرين سعيدين كل منهما إلى داره، وهدأت الأحوال بعض الوقت ، ثم نشب نزاع عائلى حاد داخل أسرة عبد الرسول نفسها بسبب قسمة غنائم المخبأ الأثرى حيث طالب أحمد بنصيب أكبر لتعرضه للتعذيب والاعتقال.

وانتشرت أنباء هذا النزاع بسرعة فى طيبة، فانتهزت مصلحة الآثار الفرصة وفتحت باب التحقيق فى الموضوع مرة أخرى، وبعد تضييق الخناق عليه لم يجد محمد مفرا من الاعتراف التفصيلى بكل شىء حتى ينجو بنفسه وبعد ثلاثة أشهر نقل إلى قنا ومثل أمام داود باشا المحافظ واعترف اعترافا رسميا وطلب اعتباره شاهد ملك، وبعد أيام أرشدهم إلى مكان المخبأ، كان ماسبيرو فى هذه الأثناء متواجدا بالخارج، لذلك عهدت الحكومة إلى إميل بروجش بتمثيلها فى هذا الموضوع، ومن ثم فقد كان على رأس القوة التى صحبت عبد الرسول إلى المخبأ.

كان بروجش فى حالة عصبية أثناء اعتلائه التل الصخرى المنحدر ثم نزوله فى القبر العميق حيث يوجد الكنز الأثرى، والحق أننا يجب أن نعذره فى ذلك فقد كان يخشى غدر الأهالى به ، لذلك تسلح تسليحا كثيفا قبل أن يدلوه فى البئر بواسطة حبل متين ومعه ما يكفى من الشمع لإضاءة القبو.

ولم تكد تمضى بضع دقائق حتى فوجئ بمنظر لم يخطر له على بال وقد فصل وصف هذا المنظر ماسبيرو فيما بعد بأسلوب درامى من واقع تقدير بروجش، فقد كان بروجش واقعا تحت تأثير أحمد الذى أفهمه أن المقبرة خاصة ببعض كبار الموظفين ، لكن :

«ما اكتشفه العربان كان قبوا كاملا للفراعنة .. وأى فراعنة أعظم الفراعنة فى تاريخ مصر! تحتمس الثالث، وسيتى الأول، وأحمس المحرر، ورمسيس الثانى الفاتح هذا ماعاينه السيد إميل بروجش وهؤلاء زمرة جعلته يسبح فى الأحلام، وأنا مثله أظن نفسى فى حلم وأنا أرى وألمس أجساد هذه الشخصيات الفريدة، التى ما كنا نظن أننا سنعرف عنهم سوى أسماءهم».

ووجد بالقبو -أيضا- جرار من النبيذ القربانى، وأوانى كانوبية، ثم توابيت ملكات مصر الشامخات مكومة فى صفوف.

بعدما أفاق بروجش من دهشته بدأ يرتب أمور نقل الموجودات، وعلى الفور استأجر ثلاثمائة عامل للقيام بأعمال تنظيف القبو ونقل المحتويات تحت إشراف موظفى مصلحة الآثار الموجودين، وكلف الرفاص الحكومى المسمى المنشية بنقل الشحنة إلى القاهرة، وفى ظرف يومين (٤٨ ساعة) كانت الدفعة الأولى من الفراعنة الأربعين مع كثير من الآثار الثمينة قد حملت فوق الرفاص الذى توجه بها إلى القاهرة.

ويحدثنا ماسبيرو بأن النساء من الأهالى تبعن الرفاص وقد علا عويلهن، بينما أطلق رجالهم أعيرة نارية على شرف ملوكهم القدماء . وبعض الشامتين يقول إن العويل كان بسبب ضياع مورد رزق سهل لهن، وفيما بعد فكت أربطة بعض المومياوات ليتمكن علماء الآثار من دراسة ملامح أشهر فراعنة مصر، وكانت رأس سيتى الأول أحسن الرؤوس حالاً.

«رأس ملك حقيقى رائعة وكانت على شفتيه ابتسامة رقيقة لا تخطئها العين، وكانت عيناه نصف مغلقتين تشعان من تحت الجفون، وشفافتين ثابتتين فى محجريهما كما كانا منذ تحنيط الجثة» وربما لو شهد بلزونى ذلك لأسعده إلى أقصى درجة أن يرى هذا الملك، الذى كان اكتشاف مقبرته أهم إنجازات بلزونى. وقد وجدت جثته لتشاهدها الأجيال القادمة.

اضطر ماسبيرو بعد استلام جثث الفراعنة إلى مضاعفة الاحتياطيات ، لذلك عزز الحراسة على المتحف ووضع ضوابط لمنع تهريب الآثار والإتجار فيها أو بيعها لمندوبى المتاحف الأجنبية، لكن ذلك لم يكف لردع أمناء المتاحف الأوروبية والأمريكية عن البحث عن قطع أثرية مزيدة لعرضها فى أروقة المتاحف، لذلك انقشعت السوق السوداء لتجارة الآثار إشباعا لرغبة العلماء.

كان «واليس بادج» واحدا من أشد مسئولى جمع الآثار المتخفية جشعاً فى القرن التاسع عشر، هذا الرجل بدأ حياته الوظيفية الطويلة مساعداً لأمين جناح الآثار المصرية بالمتحف البريطانى، وكان دائم السفر إلى مصر والسودان والعراق لشراء آثار المتحف البريطانى، كذلك كان من مكتشفى الآثار والكتاب النابهين، وكانت وسائله فى جمع الآثار فجة غير مستساغة ، وكان ذلك مما أسخط عليه كرومر وماسبيرو، وكذلك الإنجليز والفرنسيين من موظفى الحكومتين.

وهذه قائمة طويلة تمثل النظرة التطورية المتعلقة إلى الآثار المصرية، لكن بادج لم يعبأ بذلك كله بدعوى ولائه للمتحف البريطانى وأهدافه الكبيرة، هذا السائح العنيد زار مصر للمرة الأولى سنة ١٨٨٦ فى رحلة هدفها جمع آثار لمتحفه، واستعد للرحلة بجمع معلومات عن الآثار المصرية وأسعارها السوقية، استقاها من «صموئيل بيرش» كبير أمناء الآثار الشرقية بالمتحف البريطانى.

وكان بيرش قد اكتسب شهرة كبيرة فى المصريات رغم أنه لم يزر مصر قط، تسلح بادج بالمعلومات التى حصل عليها وحمل معه خمسين جنيها استرلينيا وحضر إلى مصر لأداء المهمة، لكن السير إيفيلين بارنج (لورد كرومر) استقبله بفتور لأنه كان ضيق الصدر بسبب عدم رضاه عن أساليب الأثريين الإنجليز فى جمعها، لكن بادج العنيد لم يهتز وصمم على تحقيق أغراضه بأى طريقة ولو عن طريق مهربى الآثار.

أنشأ بادج لنفسه علاقات وطيدة ومفيدة فى الأوساط الرسمية ومع الأهالى بسرعة، فى كل من القاهرة وطيبة، ففتحت له المقابر، وكانت نصف محتوياتها قد نهبت بالفعل، ووجد الرجل أن كثيرا من آثارها الجميلة «اختفى بطريقة غامضة» لكنه رغم ذلك وفق فى الحصول على بعض القطع الأثرية النادرة.

والتحق به فى أسوان للتشجيع والمعاونة مجموعة من كبار رجال القوات المسلحة البريطانية، وكانت الشركات الهندسية الملكية قد جندت للمساهمة فى الحفائر ونقل المكتشفات وبالأخص التماثيل الضخمة، وضمن ما جمعه بادج ثمانمائة جمجمة على فترات لكى يرسلها إلى طبيب فى كمبرديدج تخصص فى فحص الجماجم الأثرية، فكومها فى أحد أركان كوخه حتى يتسنى له تغليفها.

وحدث أن بنات عرس كانت تتسلل وتهاجم هذا الركن، وأفلحت بالفعل فى سرقة عشرات منها، ولم يجد بادج وسيلة للإفلات من الجمرك إلا بادعاء أنها «فتات عظام للتسميد». ويقول بادج «عندما تعاملت مع الجمارك، وجدت مساومتهم سهلة باستخدام هذه التسمية».

علا قدر بادج بين جامعى التحف عندما حذر مفتش الأهالى المقيم منه الأهالى باعتباره عميلا ثريا ذا أساليب ملتوية (فكأنه أفاده من حيث أراد أن يحد نشاطه)، أدى هذا التحذير طبعا إلي نتيجة عكسية فأصبح بادج قبلة التجار المحليين يعرضون عليه الآثار من كل لون سراً فى كوخه عندما يأتى المساء.

والطريف أن المتحف البريطانى نفسه قد علا فى أنظارهم لدرجة أنهم أبدوا استعدادهم لتسليم التحف وتأجيل الدفع حتى يعود المندوب إلى لندن فيرسل لهم الثمن من هناك.

وكثير من الآثار الجميلة التى حصل عليها توصل إليها بمعونة القنصلية البريطانية فى طيبة التى عرفته على عائلة عبد الرسول. وكانت مكافأته على التعارف تزويده بالخرائط التى استخدمها المختصون من قبل فى استخراج كنز الدير البحرى الذى سبق الإشارة إليه.

وعندما أنهى رحلته كان قد جمع أربعة وعشرين صندوقا حاوية لمختلف التحف الأثرية، كل هذه التحف شحنها إلى انجلترا رغم اعتراض اللورد كرومر وأمناء المتحف المصرى.

وقد نجح فى تحديهم بهذا الشكل لأنه وضع الشحنة تحت رعاية البحرية البريطانية، وكان رأى رجال البحرية نفسه رأى بادج الذى ينظر إلى تجارة الأهالى فى الآثار باعتبارها عملا مبررا ومعقولا لكسب العيش، واستحق بادج بذلك التقريظ الذى حظى به من المتحف سنة ١٨٨٧ مكافأة له على «نشاطه».

قام بادج بزيارة مصر مرة ثانية وهذه المرة طلبت مصلحة الآثار وضعه تحت رقابة الأمن العام، لكن ذلك لم يؤثر فى بادج فقد كان يتقن أساليب الإفلات من الرقابة، ومما يحكى فى هذا الصدد أن صاحبنا اشترى من رجل فرنسى فى أخميم قبطية، وتمت الصفقة بهدوء (تحت سمع وبصر الرقابة)، ذلك بأن الفرنسى أولم وليمة للرقباء أنفسهم ، تحين الرجلان أثناءهما فرصة فانفردا معا وأتما الصفقة.

صادفت بادج فى الأقصر بعض المشاكل، فقد صحبه بعض التجار في ظلام الليل إلى مقبرة فى البر الغربى وجدها تحتوى على برديات مهمة، منها واحدة هائلة طولها ٧٨ قدما فيها النص الكامل لكتاب الموتى، ووجد أنها تخص الرجل المرموق «آنى : كاتب الملك والمشرف على قرابين كل الآلهة وخازن غلال آلهة أبيدوس وكاتب قرابين آلهة طيبة» سجل بادج بعناية ما هو موجود على ختم البردية ثم فك جزءا صغيرا من البردية باحتراس فوجد ما بهره لدرجة أنه

كتب يقول «لقد ذهلت لروعة الصور البشرية والحيوانية المصورة وجمال ألوانها حتى بدت لى كأنها حية» وكانت معها برديات أخرى من المقبرة نفسها فتحفظ بادج على ذلك كله وقام بتعبئته فى صناديق أخفاها فى مكان أمين.

بعد عودته بساعات جلس مع التاجر الذى سحبه لمخبأ البرديات وشرعا في تناول القهوة، وفجأة داهمتهما الشرطة ووجد بادج نفسه رهن الاعتقال، كانت الشرطة قد رصدت عيونا على بيوت تجار الأقصر جميعا، بإيعاز من «يوجن جريبو» مدير الآثار الذى خلف ماسبيرو، والمح جاسوس جريبو الذى أتى بنبأ الاعتقال إلى أن سفينته قد جنحت على الشاطئ الرملى بعيدا عن قنا بنحو إثنى عشر ميلا.

وأحاط بادج علما بأن ريس هذه المركب تصادف أن كان عرس ابنته فى اليوم نفسه، ومن ثم فإن المركب لن تعوم مرة أخرى (قبل انقضاء العرس)، وحاول جريبو أن يعثر على ركوبة تقله إلى الأقصر فلم يجد حميرا، إذ كان الأهالى قد قاموا بتهريبها إلى الحقول لعدم رغبتهم فى تأجيرها.

لم يمض على ذلك إلا قليلا حتى بلغهم خبر تعويم السفينة وأن السيد جريبو ينتظر أن يصل بين لحظة وأخرى، فقام مدير شرطة المدينة بإغلاق بيوت التجار كافة حتى البيت المرتكز على جدار فندق الأقصر، وكان البيت مخبأ مقتنيات بادج الأثرية، وأراد التجار أن يبعدوا الحراس فدعوهم للسمر وشرب البراندى المسكر، لكن الحراس رفضوا بحزم ترك مواقعهم، ترك التجار الحراس وما هم فيه وتحولوا إلى أسلوب آخر.

وكانت الخطة تتلخص فى إرسالهم فريقا من العمال بادعاء أنهم أتوا لفلاحة الحديقة فدخلوها عند المغرب، ولما كان الجدار المرتكز عليه البيت سميكا -حوالى قدمين- فقد قاموا بحفر سرداب تحته أوصلهم إلى بدروم البيت

المخزون فيه التحف، وأعجب بادج بأدائهم فقال «لما راقبت عملهم أيقنت أن هؤلاء الجنائينية محترفوا السطو على البيوت، وأن لهم باعا طويلا».

تمت العملية كلها فى تكتم دون إزعاج الحراس المتخذين أماكنهم فوق سطح البيت، ذلك لأن التجار أولموا للحراس وليمة دسمة، فى الوقت الذى كان يجرى فيه تهريب الآثار عن طريق السرداب، ويفتخر بادج بذلك : «بهذه الوسيلة أنقذنا بردية آنى، وباقى ما اشتريته من آثار، أنقذناه من براثن موظفى مصلحة الآثار، وعمت الأقصر الأفراح» لا يمكننا التشهير بما فعله بادج ولا توجيه اللوم إليه لأنه لجأ لهذه الوسيلة، والحق فقد كان الموظفون تحت إمرة جريبو أنفسهم يبيعون ما يجمعه رئيسهم وهم على ظهر الرفاص للمشترين المحليين ويشاطرونهم الشراب.

بينما رئيسهم يتناول عشاءه غافلا عما يفعلون، وفى القاهرة وبمنتهى الثبات والبرود طلب بادج من جهاز الشرطة نفسه معاونته فى نقل المقتنيات (لأنهم طبعا يجهلون ما تحتويه الصناديق !). وفى اليوم نفسه كانت الرسالة الأثرية (برديات وألواح وخلافها) قد شحنت إلى إنجلترا ضمن الحمولات الحربية الرسمية.

لم يخرج بادج فى تصرفاته عن روح العصر الذى يعيش فيه ، فقد كان كل موظف المتاحف مثله، وكان شديد الاحتقار لهيئة الآثار والعاملين بها، ورغم أنه كان على علاقة لا بأس بها بماسبيرو، ورغم تعاونه -أحياناً- مع متحف الآثار، فقد آمن أن تعاونه مع التجار كان أجدى عليه، وقد انتقدته مجلة Egyptian Gazette لأنه «معروف بطرقه الملتوية فى الحصول على الآثار لمتحفه (المتحف البريطانى)» وكان التكتيك الذى التزم به عدم بخس السعر (أى أن يشترى بسعر معقول).

وكان كثير الانفاق على الشراء وكان يحرض التجار المحليين على الإغارة على الجبانات الخاصة بالفترة قبل التاريخية مرة أخرى بعد انتهاء الحفائر العلميَة هناك، ويقول أنه حصل على المخطوطات القبطية «بعد مداولات كثيرة أثناء تناول القهوة أو المسكرات» وكان سببا فى ثراء المتحف البريطانى بالتراث القبطى بشكل يحسده عليه باقى متاحف أوروبا.

فى الوقت الذى كانت فيه مصلحة الآثار الممثلة للشرعية تحاول فيه أن تثبت أقدامها وتشب عن الطوق، كان بادج يمثل عدم الشرعية والالتواء والخداع وكل التكتيكات المنفرة للحصول على الآثار، وكان بادج يهوى نزح المكتشفات بالجملة لأنه كان موقنا أن تصريفها سهل.

لقد كان يحاول حماية مصر القديمة ! وقد كان ضمن ما كتبه: «كان كبار لصوص المقابر ومحطمو المومياوات المصريون أنفسهم، والهجمة على هواة الآثار تصرف طائش، وما يوجه لهم من لوم لا محل له ... إذا رفض أحد الأثريين الشراء فغيره سوف يشترى، فإن لم يجد الأهالى مشترين البته فسوف يحطمون المومياوات ويستخدمونها وقودا».

ومن مقولات بادج المنطقية الطلية : «مهما وجه اللائمون اللوم لمن يخرج آثاراً من مصر، فإن العقلاء لابد أن يعترفوا بأن المومياء فى المتحف البريطانى ستكون فرصتها من العناية والصيانة أضعاف فرصتها فيما لو تركت فى مقبرتها ملكية كانت أو عادية.

وبعد وصف مستفيض للمصير الرهيب الذى ينتظر المومياوات يعود فيقول: «كان المصرى يبتهل – دائما– لإبعاد الشر عن نفسه، كما يستقى مما هو مكتوب على التمائم التى يدفنونها معهم، وفى المتحف البريطانى فسوف يحفظ بعيدا عن الشرور» ليس هذا فقط، وإنما يدعى بادج أن «المرحوم» صاحب

المومياء سوف يعلو ذكره ويشتهر أمره حيث ستتوفر له الحراسة، وبطاقات التعريف، وسيسهل تصويره، وإصدار بطاقات بريدية عليها صورته.

كان بادج يفاخر بأنه يدعم المصريين القدماء أنفسهم، ويباهى بنفسه مدعيا أن القانون الأخلاقى فى صفه وأن نهب مواقع الآثار المصرية عمل مشروع تماما وحضارى ... بشرط ترك بعض الآثار للمصريين للمشاهدة والفرجة أو للبحث.

السفينة النيلية

وما بها من آثار

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر، كانت مصر قد تبوأت مكانها بين المشاتى العالمية، فقد أصبح ميسوراً لطبقة الأثرياء ومحدودى الدخل على السواء أن يسافروا إليها بعد تطور السفن البخارية، وكان هناك خط منتظم للملاحة بين ايطاليا والاسكندرية يقطع المسافة فى ثلاثة أيام ونصف.

وكانت أيام الرومان تقطع المسافة فى ستة أيام على الأقل، ومنذ سنة ١٨٧٢ صار السفر من الاسكندرية إلى القاهرة ميسورا بالقطار، ومنها كان يسهل تأجير رفاص أو سفينة بخارية صغيرة إلى فيلة وأسوان وبالعكس، فأصبح بالإمكان تغطية زيارة لأهم الآثار والمعالم السياحية فى مصر فى مدة تقع بين ثلاثة أسابيع والشهر على أكثر تقدير.

علما بأن الدهبيات التى كانت شائعة قبل ذلك كانت تؤدى الرحلة نفسها فى ثلاثة أشهر ولا تتناسب -عادة- إلا مع الفنانين ومن فى حكمهم ممن يحتاجون لوقت كاف للتوقف عند كل أثر هام للتصوير أو للدراسة، وأصبح من الممكن للمرفهين الاتصال بشركات الرحلات مثل شركة كوك للتوكيلات

الملاحية لتنظيم رحلة مريحة لهم إلى مصر، وكانت هذه الشركات قد وصلت إلى مستوى يمكنها من تنظيم رحلات آمنة إلى أقصى أجزاء المعمورة.

رغم ذلك ظل هناك من يعتبر زيارة مصر هى «ركوب حمار، وركوب زورق وكلها مشقة وتعب» حسب ما قال عالم الآثار «جين أمبير» بسخريته اللاذعة ، لذلك كان البعض ما زال عند حسن ظنه بالدهبيات من أجل الراحة والتسلية والتثقيف، ومنهم من كان يفضل المراكب الكبيرة، وقد علمنا من قبل أن بلزونى منذ خمسين سنة مضت صحب صديقه اللورد بلمور فى رحلة بحرية على شكل قافلة.

مثل هؤلاء كان يمكنهم إذا تيسر لهم الوقت أن يتوغلوا جنوبا حتى أبى سمبل، وأغرى مناخ مصر الجاف بعض الناس بالإقامة الطويلة فى مصر، أو التردد عليها باستمرار فى فصل الشتاء، خصوصا من كانت صحته تتأثر بالرطوبة أو يشعر بآلام فى الرئتين، وكثيرون كانوا ينتهزون الفرصة للعيش فترة فى الصحراء.

من الذين زاروا مصر وأقاموا فيها فترة طويلة سيدة فاضلة قوية العزيمة اسمها الليدى «دوف جوردن» هذه السيدة أقامت فى مصر سبع سنوات متتالية (١٨٦٣-١٨٦٩) واختارت لسكناها مدينة الأقصر حيث أقامت فى دار متواضعة فى بيت فوق سطح معبد أثرى مجاور للنيل اشتهر باسم «البيت الفرنسى».

وكانت هذه السيدة ترتاد باستمرار المناطق المجاورة وتتباسط مع الجميع غنياً كان أم فقيراً، وجيها كان أم وضيعاً. لذلك أحبها الجميع.

وقد أمكنها أن تتأقلم مع طباع الأهالى لدرجة أدهشت معاصريها وطوال مدة إقامتها فى مصر كان طوفان رسائلها إلى عائلتها بانجلترا لا ينقطع.

وقد جمعت هذه الرسائل ونشرت فى مجلدين لقيا رواجا كبيرا، وكان أسلوب السيدة فى الكتابة يمتاز بالرشاقة والحيوية، رغم ما فيه من قسوة فى مهاجمة بعض أحوال المجتمع الذى تعيش فيه، وقد عبرت الليدى فى رسائلها عن شجبها لحكومة الوالى بسبب سوء معاملته للأهالى، وأتباعها لأساليب القمع والترهيب معهم، مما كان يؤدى إلى إثارتهم وتبرمهم فى كثير من الأحوال. لكن أسلوبها كان أكثر تشويقا عندما نتحدث عن عادات الأهالى فى أمورهم الجارية مثل الزراعة والحصاد أو الأزمات التى تصيبهم.. أو عن السياح الذين استرعوا انتباهها.

كانت كتابات السيدة الفاضلة عن الأهالى فى البيئة المصرية التى لم يعتدها الأوروبيون تسبب الاندهاش لقرائها، وكانت تنظر للآثار باعتبارها جزءا لا ينفصل عن معالم البيئة المصرية، وتذكر السيدة أنها التقت بأحد رؤساء العمال المسنين الذين اشتغلوا مع بلزونى، وزارت (ربما معه) مقبرة سيتى الأول بوادى الملوك.

وفى إحدى الرسائل التى أرسلتها لزوجها. وشكرها فيما بعد على هديتها له. ذكرت له أنها تهديه تمثال سبع أثرى واعترفت فى الرسالة : «لقد سرقته من أحد المعابد لأجلك» فقد وجدتهم يستخدمونه موطئا لأقدامهم كى يعتلوا ظهور حميرهم ... وقد سرق فلاح لأجلى خاتما فضيا جميلا التقطه من بين أنقاض الحفائر وقال لى «لا تخطرى به مرييت» أنت أولى به من مرييت لأنه (إذا أخذه) سيبيعه للفرنسيين، ويستولى على ثمنه، ولو لم أسرقه أنا لسرقه هو. لذلك أخذت الخاتم لنفسى بكل هدوء».

سجلت القنصلية الأمريكية سنة ١٨٧٠ أسماء ثلاثمائة سائح ويبدو أن الذى أغراهم كى يزوروا مصر كتاب ظهر فى ذلك الوقت للكاتب ذائع الصيت مارك توين بعنوان «الأبرياء فى الخارج، كتب فيه طرفا عن رحلاته بالخارج

بأسلوبه الممتع الساخر المعروف، وقد زار مصر زيارة سريعة لم تتح له سوى زيارة الأهرام وأبى الهول عاد على أثرها إلى بلاده، وأعجبه فى مصر خصوبتها والأرض المنبسطة الممتدة بلا نهاية، ولون الخضرة التى تكسوها لانتشار محاصيل الغلال على مدى البصر» وفى نهاية زيارته للأهرام حاول واحد من مرافقيه كسر شظية من وجه أبى الهول كتذكار.

لكن مارك توين لم يفعل، فقد اهتم بما رآه من العبث بالمومياوات، ووجه اللوم للمصريين لإهمالهم شأنها حتى أنه شاهدهم يوقدون بها قزانات القطارات وقبل ذلك بسبعة عشر عاما زار مصر الروائى الفرنسى المعروف جوستاف فلوبير الذى وصل فى رحلته إلى الصعيد، لكنه كان أشد قسوة فى نقده لأهالى إدفو لأنه رآهم قد حولوا المعبد إلى مبولة، كما لم ينس أن يبث شكواه لكثرة القمل.

أحدث افتتاح قناة السويس تغيراً نوعياً فى معلومات الإنجليز وعلاقتهم بمصر، فقد أصبحت مصر بعد تشغيل القناة محطة رئيسية يتوقف فيها موظفو الإمبراطورية البريطانية المتوجهين للعمل فى الهند- لقضاء بعض الوقت قبل استئناف السفر، وكانت قبلة هؤلاء الإقامة فى فندق شبرد المعروف، هذا الفندق نزل فيه مارك توين ووصفه وصفا لاذعا فقال «إنه أسوأ فندق على وجه الأرض، فيما عدا واحد آخر اضطرتنى الظروف أن أنزل فيه فى أمريكا «وكان الفندق يرتب رحلات للنزلاء لزيارة الأهرام ويوفر للسياح وسائل الترف الممكنة.

رغم تعليقات مارك توين اللاذعة» وكان نزلاء الفندق تقريبا من موظفى الحكومة البريطانية المتجهة للهند، والنصف الباقى إما من الوافدين لقضاء فصل الشتاء بمصر وإما من السياح العابرين.

كانت آميليا إدواردز من ذلك النوع الذى قلما نجده - الآن- من الروائيين الرومنطيقيين من أصحاب الإنتاج الغزير السيال- تعويضا عن عدم وجود راديو

أو تليفزيون فى ذلك الوقت» وخلال فترة حياتها التى استمرت واحداً وستين عاما كتبت السيدة أميليا عدداً لا يحصى من المقالات والكتب والمذكرات والتعليقات والمحاضرات، هذه السيدة كان أبوها طبيباً، ممن رافقوا ولنجتون فى حملته القارية (إشارة إلى موقعة واترلو)» وقد ظهرت مواهبها منذ الطفولة. وقد بدأت موهبتها الشعرية تظهر فى السابعة من عمرها، وعندما شبت عن الطوق احترفت الصحافة وكانت تراسل بعض الصحف الدورية .

وألفت السيدة الفاضلة فيما بين سنتى ١٨٥٥-١٨٨٦ ثمانى روايات ، وبعض الكتب الشعبية التى لاقت رواجا كبيرا فى الفن والتاريخ. ولقد كانت أعمالها هذه تدر عليها ربحا وفيرا يسمح لها بحياة مترفة وسهلت لها وفرة مواردها المالية سبل القيام برحلات ترفيهية متأنية للمتعة ولتجد مادة صالحة للكتابة، وكان ذلك مما يعتبره الجمهور فى ذلك الوقت (منذ قرن مضى) حقا خالصا للمؤلف الناجح.

كان اهتمام السيدة إدواردز بالتاريخ والمدنيات القديمة ما دفعها لزيارة سوريا ومصر زيارة طويلة (١٨٧٣-١٨٧٤)، وكانت النتيجة حدوث تحول فى حياتها أدى بها إلى تأليف أجمل كتبها المنشورة وهو كتاب «ألف ميل فى أعالى النيل. نشر بعد إنتهاء زيارتها للمنطقة بثلاث سنوات، وفيه تظهر خصائص أسلوبها الحار بكل وضوح.

وكانت رحلتها فى النيل رحلة مترفة نموذجية بالنسبة لأغنياء ذلك العصر، كانت رحلتها ضمن جماعة سياحية استأجرت دهبيتين لتقلهم فى رحلة بطيئة حتى الشلال الثانى، إحداهما كان فيها خمسة رجال والثانية خصصت للسيدتين المرافقتين ومنهما السيدة إدواردز.

ووصفت الكاتبة الفوج بأنه نموذج «لعابرى النيل صغاراً وكباراً، مهذبين

وغير مهذبين، مثقفين وغير مثقفين» (أى أنهم أثرياء لكن غير متجانسين) ، لكن الجميع كانوا كأقرانهم فى ذلك العصر-العصر الفيكتورى- يشعرون بتفوق حضارة مجتمعهم الإنجليزى على غيره من المجتمعات فى سلوكياته وقيمه وعقائده.

ولم تشذ نظرتهم للمصريين عن ذلك، استغلت السيدة إدواردز رحلتها أحسن استغلال فى تأليف كتابها هذا، فجاء الكتاب فى كثير من أجزائه معبراً مفعماً بالإحساسات، وقد نقلت فيه للقراء صورة حية لمشهد النيل الممتد الذى لا يكاد يتغير ووصفت الحياة السياحية منذ قرن مضى وصفاً ممتعاً.

وكتاب الألف ميل هذا كتاب تثقيفى بالدرجة الأولى، لكنه كان بعيدا كل البعد عن الجفاف الذى يميز مثل هذا النوع من الكتب عادة، لقد كان دقيقاً فى سرد الحقائق، وقد راجع ذلك بيرش الموظف بالمتحف البريطانى كما راجعه صاحبنا بادج (كان يرتاب فى صدقها)، لكن الكتاب جاء مسلياً، بثت فيه عواطفها الجياشة وإحساساتها ببراعة.

من الأمثلة على ذلك وصفها لبهو الكرنك الكبير، فهى عندما شاهدته تدفق منها النثر الفنى فى أجمل صوره، واستخدمت تشبيهات بليغة خصوصا عندما أحست بوجه الشبه بين الأساطين والنخل : ... الأشجار الضخمة تحتاج لكى تزدهر إلى ثلاثة آلاف سنة.

لكنها فى دأبها هذا لا تثير فينا شفقة وتحمل فى طياتها غموضاً مثل العمال (تقصد بناة الأساطين) فمنذ ستة آلاف سنة لم يكسر بها جذر (الأشجار)، ولم ترو بدماء الملايين ودموعهم (تلميح لتسخير العمال)، وأوراقها لا تعرف من الأصوات إلا تغريد الطيور.

ويتخللها فى الليل صفير الريح وهو يعصف على جبال كلاديوس! لكن ..

الأنفاس التى تردد فى أبهاء الكرنك المزخرفة ما هى إلا صدي لأنفاس من ماتوا في المحجر أو خلف المجداف أو تحت عجلات الطغاة.

وعندما شاهدت معابد فيلة الجميلة من فوق الذهبية عبرت عن إحساسها بما تراه وانطباعها لمرآها :

«روعة الاقتراب من النهر نحو الجزيرة لا تعادله روعة أخرى، إنها تبدو من فوق المركب كما لو كانت أشجارها ،وصفوف أعمدتها وبواباتها البرجية تخرج من البحر كالأطياف، الجزيرة تحيط بها الصخور من جانبيها، والجبال الأرجوانية تسد الطريق.

وكلما زادت السفينة قرباً كلما زادت البروج علوا حتى تكاد تصل إلى السماء، إنها لا تهرم ولا تتداعى، ولكن تظل متماسكة صلدة كاملة، وهنا يحس الإنسان بألا شيء يتغير، فلو أن صوت أغنية فرعونية انطلق فى هذا السكون، أو أن موكباً من مواكب الكهنة فى عباءاتهم البيضاء سار رافعاً زورق الإله آمون يطوفون به بين النخيل والأبراج ... لما شعرنا بالعجب».

ثم استؤنفت الرحلة النيلية حتى معبد أبى سنبل حسب البرنامج، ومكث الفوج فيها ثمانية عشر عاما زاروا خلالها الشلال الثانى، تسلقوا جبل أبى صير كما فعل بلزونى من قبل، وشاهدوا أسماء من سبقوهم محفورة على قمته- ومنهم بلزونى نفسه، أما المجموعة فاحتفت بالمناسبة بطريقتها الخاصة، فقد شربوا «عصير الليمون المثلج» المعبأ فى قربة من جلد الماعز.

لكن الذى أسرهم وبهرهم كان أبو سنبل نفسه، فكانت أميليا تصحو كل صباح لتشهد منظر شروق الشمس ومعجزة نور الصباح يشمل المعبد، فهى تصحو مبكرة: «كل صباح أرى إخوتنا يُبعثون أحياء، ثم ينقلبون تماثيل ... وشعرت أنه سيأتى وقت تشرق فيه الشمس، فينفك سحر التعاويذ، فيبعث هؤلاء المردة ويتكلمون».

وبدا لهم أن يفتحوا مقبرة صغيرة فكلفوا بذلك خمسين عاملاً من الأهالي، واستولوا على ما وجدوه فيها، واستمتعوا بتجربة الكشف الأثرى بصورة مباشرة بما فيها من توتر وانفعالات، وفحصوا الصور الجدارية التى ظلت مختفية منذ أحقاب وساوموا الكاشف على أجر فتح المقبرة حتى قبل أن يحصل هو ورجاله على «ستة جنيهات» ، وقدرين من المربى، وصندوقين من السردين، وزجاجة عطر، وصندوق كرات لعب الجولف، ونصف جنيه ذهبى.

كانت زيارة إدواردز لأبى سنبل فى وقت نشاط حركة السياحة فكان يعج بالزائرين، ورصدت فى مكان واحد مالا يقل عن ثلاث خيام أصحابها منهمكون فى رسم وتصوير المعبد، وكان سرب من الدهبيات مرصوصاً على الساحل وعلى طول النهر انتشر الزوار وتزاحموا عند المعابد والآثار الكبرى، وكانت بطيبة مراكب كثيرة «تنتشر عليها الألوان الإنجليزية والأمريكية» (تقصد أن غالبية الزوار إنجليز وأمريكيون)،

وكان هناك جنسيات أخرى: ألمان وفرنسيون، وتجار الآثار بالأقصر يسارعون ببضاعتهم إلى كل مركب ترسو فى المكان، وكانوا : «يطاردوننا وتعقبونا أينما سرنا، وكان بين الأهالى بعض الرجال العبوسين يلبسون عباءات طويلة وعمائم كبيرة .. هؤلاء اعتلوا سطح السفينة فاحتلوه وأقاموا فيه .. كل الأسبوعين .. وظلوا هكذا وعليهم سيماء الوقار والصبر، حتى إذا رأونا هبوا واقفين لتحيتنا.. ثم يخرجون من مناطقهم وفى جعبتهم أكياس صغيرة بها جعارين وتماثيل صغيرة .. هؤلاء السادة كانوا خليطا من العربان والقبط ... وكلهم مهذبون مجاملون ...».

مما أدهش السيدة إدواردز ما لمسته من تغير سلوك الزوار حتى هى نفسها عند رؤية «الأنتيكات»، واستبشعت مظاهر العبث والتخريب الذي رأته فى المقابر فى سقارة ، بعد زوال الصدمة كتبت تقول :

«سرعان ما تماسكنا بعد رؤية هذه المناظر» (تقصد آثار التخريب) «وتعودنا عليها، ثم اندمجنا فى التنقيب -والبحث بين التماثيل التى يعلوها التراب دون أن نشعر بأى حرج، حتى صرنا مثل محترفى السطو على المقابر الذين احترفوا الاستيلاء على الجثث المحنطة، هذه هى التجربة التى مررنا بها .. ومن يدرى لعلنا عندما نستعرضها فيما بعد يصيبنا العجب وربما الندم..

وهذه الخشونة من الزوار وجدناها متفشية على مستوى العالم (تقصد أن كل الجنسيات كذلك).. كان المسيطر على نفوس الجميع السطو على الآثار والاستحواذ عليها .. تملكنى هذا الإحساس لدرجة أننى أعتقد أنه لو تكررت الظروف نفسها فسوف أتصرف بالطريقة نفسها».

كانت تجارة الآثار فى طيبة تدر على الأهالى ربحا جزيلاً - سواء أكانت أصلية أم مقلدة؟ وكانت أحسن «الأنتيكات» (تحب المؤلفة هذه الكلمة وتستعملها بكثرة- المترجم) يدخرها التجار ليبعوها للسياح الأثرياء أو لمندوبى المتاحف، لكن الآثار المقلدة كانت رائجة - أيضا- ولها سوق كبير، وكانت هناك ورش تخصصت فى تقليد الآثار لا يعجزها إنتاج أى شىء من لوحات منقوشة إلي تماثيل مرمرية صغيرة إلى جعارين، وكانت الجعارين تعطى مظهرا يبدو أثريا بتأكيلها بكثرة للديكة الرومية فتنزل مع نواتج الهضم «ولها مظهر وقور (أى للمشترى)».

ولكن التجارة كان لها منغصاتها لدى الأهالى، فكان الذين يحفرون بدون تراخيص عرضه لبطش المحافظ ، ومع ذلك لم يكفوا عن الحفر كما كانت يفعل أسلافهم منذ القدم، كذلك كما كانوا أيام بلزوى يسكنون بين المقابر - يسوقون الحمير وينقلون المياه صباحا، ويحفرون القبور ليلا.

كل مصرى بالمدينة كان معه «أنتيكات» جاهزة للبيع يستوى فى ذلك الموظف الوقور المعمم أو المواطن الفقير، راجت الآثار فى الأقصر إذ نشط

العمل فى الحفر والتهريب أو فى التزييف فأصبحت مثل خلية النحل فى تجارة الآثار.

كان تجار الآثار المقلدة لا يخشون إلا السائحين الذين قد يكتشفون التزييف، وتحدثنا السيدة إدواردز أنها مع إحدى رفيقاتها ألفيا نفسيهما بالصدفة فى إحدى ورش التزييف، دخلت ظنا منها أنها دار القنصلية البريطانية هناك،

فلما دخلت وجدت نفسها فى غرفة عادية بها ثلاث مناضد، عليها كل ما يخطر على البال من آثار خفيفة (مقلدة): جعران وتمائم وتماثيل جنائزية صغيرة... وكانت فى مراحل مختلفة من التشطيب، وكانت أدوات العمل متناثرة حول القطع كما كان هناك صندوق تابوت (أثرى) لحفظ الخشب، ودخل عليها عربى مهندم وطلب إليهما ثائراً أن يغادرا فوراً، وأن القنصلية انتقلت إلى مكان آخر.

وتقول السيدة إدواردز : «لقد رأيت هذا العربى المهندم نفسه بعد يومين، لكنه زاغ منى فوراً واختفى فى مكان ما».

فى ذلك الوقت كان هناك نشاط لمندوبى مصلحة الآثار فى الحفر والتنقيب ولكن على نطاق محدود، وكانت المومياوات التى يكشف عنها ترسل فى صناديقها مغلقة إلى متحف بولاق.

وقد حظيت مسز إدواردز ذات مرة بمشاهدة عملية كشف إحدى المومياوات، فتقص علينا أنها توجهت مع مجموعتها فى وقت مبكر من أحد الأيام إلى الرمسيوم فقد عبروا النهر فى زوارق ثم امتطوا ظهور الحمير وساروا فى السهل الرملى نحو المعبد، وكان إفطارهم فوق ظهور الحمير حتى وصلوا إلى بغيتهم.

وتقول السيدة إن صباحهم كان مشرقا جميلاً، وكان منظر الشعير يغطى الوادى بالخضرة على مدى أميال مبهراً، وكان تمثالا ممنون القارنان يتوهجان تحت أشعة الشمس المشرقة، والزهور البرية تتراءى وسط الشعير فتعطى مظهرا خلاباً .

باختصار كانت الرحلة رائعة لا يمكن أن تنسى، وكان أكثر الأشياء إثارة فى هذه الرحلة إكتشاف تابوت حجرى منقوش فى نفس لحظة وصولهم نفسها، وقد وجدت هذه المومياء سليمة فى قاع عميق جدرانه مبنية بالطوب، ووجدوا المحافظ بنفسه هناك يتفقد أعمال الحفر.

فلما رأى السيدة إدواردز دعاها لتناول الغذاء معه في مقبرة قريبة، يستخدمونها كمخزن مؤقت لجمع نواتج الحفر، وتكونت الوجبة من لبن رايب (لبن حامض معروف بالصعيد- المترجم) ثم «صينية بها كعك لا يمكن أن يكون هناك أردأ منه، فأكلوا مع رائحة وعفار الأسمدة (القصد عفار الحفر).

أحست السيدة إدواردز بالعطش والرغبة فى تناول المرطبات، والحق أن المجموعة أمتعت نفسها بوجبة أرستقراطية داخل الرمسيون، حيث فرشت لهم الحصر بين أساطين المعبد، وأخذ الخدم يروحون عليهم ويغدون، بينما كانت بالقرب منهم جاموسة تحلب لهم لبنا شهياً سائغاً شرابه ، تفوح منه رائحة زكية وكان «العربان السمر فى الخرق البالية، يطوفون عليهم ببضاعتهم المزجاة: جعلان مقلدة وكسرات من توابيت الموتى وتماثيل مزيفة، وكانوا كالعهد بهم طوال الرحلة مؤدبون (إلى حد ما) وكانوا دائمى التحية والمديح لمن يرونهم رسل المدينة الذين كانوا حريصين على الظهور بالمستوى اللائق رغم اغترابهم عن أوطانهم.

كان وصف حياة السياح منذ قرن ينساب فى صفحات كتاب السيدة إدواردز تتكلم عن سياحتها، والقارئ للكتاب يجد نفسه هائما بين البهجة والثقافة

والتنوير والدهشة، وما أن وطئت قدماها أرض الوطن (إنجلترا) حتى بدأت تنشط نشاطاً غير معتاد، فأخذت تلقى المحاضرات فى النوادى والجمعيات وتكتب المقال تلو المقال عن تجربتها السياحية فى مصر.

وشجبت السيدة إدواردز ما شاهدته من نهب وتهريب للآثار، وتخريب للمعابد والمقابر الفرعونية، وأبدت أسفها واستنكارها للفوضى التى تسود عمليات الكشف عن الآثار، ونعت على المستكشفين التزامهم بالتقنيات السليمة فى الحفر والتنقيب، وكان أسفها شديدا لقيام الأهالى بتخريب وتفكيك المعابد الأثرية للاستيلاء على حجارتها.

رغم أن قلم أميليا إدواردز كان سلاحا فعالاً فى تشكيل رأى عام يقدر مصر القديمة إلا أن الإهتمام بما يتعلق بمصر كان قد أخذ فعلا فى التبلور بين أوساط المنقبين، فقد أقبل الناس حتى فى الأرياف على شراء أحدث وأهم المونوجرافات عن طيبة، وبيعت عشرات الآلاف من نسخ الروايات التاريخية التى تتكلم عن الفراعنة.

وكانت الكتب التى تربط بين مصر القديمة والكتاب المقدس، من أروج الهدايا بين الناس فى أعياد الميلاد وعيد الكريسماس، وانتابت الناس حمى الإهتمام بالفترة قبل التاريخية، ويعود الفضل فى ذلك إلى كل من : «ههنريش شليمان» الذى أجرى استكشافاته فى طروادة و«أوستن هنرى لايار» وأقرانه الذين أجروا استكشافاتهم فى وادى النهرين (العراق).

وكان التعليم الكلاسيكى مازال يميز الشخص المثقف، وكذلك كانت المعلومات الدقيقة عن الكتاب المقدس فى منتهى الأهمية.

وكان لمصر فى كل ذلك مكان ملحوظ، وكان كل مثقف ينبهر بالأهرام والمومياوات والأشكال الهيروغليفية، فقبل زمن أميليا إدواردز بكثير، كانت

المصريات قد بدأت تسيطر على الجماهير الأوروبية فاهتموا: بالمعمار المصرى والموضات، وبدرجة أقل بالأدب الجاد.

ويعود الفضل فى ذلك إلى رجال مثل ويلكنسن وليسيوس من المثقفين بالإضافة إلى آلاف المؤلفين ذوى الإهتمامات الدينية، لكن للأسف كان كثير من هذا الإنتاج الأدبى مضللا بدرجة كبيرة .

والسبب أن من المستحيل على أى كاتب من العصر الفيكتورى له نظرته الخاصة الضيقة ومبادئه الثقافية (أى القاطعة كالسيف) أن يتفهم البيئة المصرية المعاصرة له بسهولة .. فما بالك بمصر القديمة ؟!

على أى حال تحمست آميليا إدواردز للدعوة لاتباع الأساليب العلمية في الكشوف الأثرية، ولم تكل عن النشاط فى هذا المجال منذ رجوعها إلي إنجلترا حتى وفاتها سنة ١٨٩٢، واستمر فيض مقالاتها على نفس الوتيرة نفسها: «لن يقف تهريب آثار مصر وتخريبها إلا باتباع التقنيات العلمية فى الحفر والتنقيب والبحث ، وشغلها الموضوع لدرجة أنها كرست له كل جهودها وكفت عن الكتابة فى أى موضوع آخر.

كان علماء المصريات المتخصصين فى بريطانيا معنيين كثيراً بما يجرى فى مصر (فى مجال الآثار)، وقد طرحت من قبل سنة ١٨٨٠ فكرة تأسيس جمعية لحماية المبانى القديمة (الأثرية)، لكنها لم تؤد إلى نتيجة، لذلك قامت آميليا إدواردز فى مارس سنة ١٨٨٢ بتبنى مشروع يرمى إلى تأسيس «صندوق الآثار المصرية» يكون هدفه الإشراف على الكشوف الأثرية على أسس علمية.

وسعت لعقد اجتماع تأسيسى يضم شخصيات لها ثقلها فى المصريات منها المستشرق المعروف «ريجينالد ستيوارت بول» والطبيب السير «أرازموس

ويلسون» الجراح المشهور الذى مول نقل المسلة التى اشتهرت باسم إبرة كليوباترا من الاسكندرية إلى لندن.

وقد بلغت تكاليف نقل المسلة عشرة آلاف جنيه. وهو مبلغ طائل بمقاييس ذلك العصر، واجتمعت الجمعية التأسيسية للمشروع فى المتحف البريطانى وأسفر عن تأسيس «صندوق دعم الاستكشافات الأثرية المصرية» برئاسة الراعى الأكبر للمشروع. الطبيب ويلسون، وسكرتارية كل من السيدة إدواردز والسيد بول .

وأعلن عن تأسيس الصندوق فى كل الصحف المهمة، واحتوى الإعلان على طلب التبرعات لتمويل الصندوق مع بيان تفصيلى عن الموقع المزمع استكشافها.

وحددت أهداف الصندوق كما يلى : «تنظيم البعثات الكشفية فى مصر، مع العناية ببحث تاريخ وفنون مصر القديمة، وتوضيح ما جاء فى قصص التوراة عن مصر والمصريين» وكان صندوق الكشوف المصرية من أوائل الهيئات التى تقدمت للحصول على تصاريح رسمية بالحفر والتنقيب عن الآثار.

وكانت تولى عناية كبيرة للبحوث الجادة، وبهذه الصورة أصبح الصندوق منظمة علمية كشفية قانونية، له الحق فى إصدار مطبوعات عن الآثار، ومبرأ من شبهة النهب والتخريب، والجرى وراء الآثار المظهرية.

كانت الحفائر الأثرية فى ثمانينيات القرن التاسع عشر مازالت تجرى بطريقة عشوائية بعيدة عن الأسلوب العلمى، لذلك كان الحفر يؤدى فى كثير من الأحوال إلى تخريب قد يكون واسع المدى، ولم يكن يسبق أعمال الحفر دراسة ولا تخطيط ، وكان الهدف من الكشوف -دائما- الحصول على «أكبر كمية فى أقصر وقت» وكانت تقنيات الحفر نفسها متخلفة تؤدى إلى مزيد من الخسائر،

وكانت أساليب مرييت وماسبيرو ومن على شاكلتهم ذات أثر مدمر، وقد انتقد «بترى» الإنجليزى هذه الأساليب فى وقت تهيأت فيه رياح التغيير، وعاون على زيادة الوعى بأهمية تغيير أساليب جهود باحثين فى أماكن أخرى، مثل «لابار» فى العراق و«شيلمان» فى طرواده.

وطرح «بسيوس» تقنيات جديدة أخذ بها العلماء الألمان فى الحفر والتسجيل، وأدى ذلك إلى تطور فى مفهوم التنقيب الحقلى فى المواقع الأثرية، وأصبح علماً حقيقياً له قواعده وأصوله، وأصبح له أهداف نبيلة، لا مجرد اصطياد للكنوز الأثرية، بذلك نشأ علم الحفائر الحديث.

نود أن نشير من بين رواد المصريات الذين تبنوا أساليب حديثة إلى المحامى الاسكتلندى الشاب «إسكندر هنرى ريند» ذى الطبع الهادئ الوديع. هذا الرجل كان يعانى من متاعب صحية فحضر إلى مصر فى شتاء سنة ١٨٨٥ للعلاج . وفى الشتاء التالى حضر إلى مصر وفى نيته التسلى بالبحث الأثرى، وأمضى موسمين باحثا عن مقبرة سليمة كى يعاينها ويسجلها بأسلوب منظم لأنه حسب قوله كانت «عناية المستشكفين تتجه -دائما- إلى الاستحواذ على الآثار، فلم يعبؤوا بذكر الظروف التى اكتشفت فيها الآثار» (أى بالتسجيل).

ثم يذكر أن ما قام به دروفيتى وسولت من حفائر فى طيبة عشوائى عنيف غير مسئول أدى إلى كثير من التخريب، ولم يترك لغيرهما سوى فرصة ضئيلة للعثور على مقبرة سليمة.

وبعد طول عناء وجد ريند مقبرة مناسبة لأن آخر من دفنوا بها لم يقربهم أحد» ورصد «ريند» الموقع بدقة.

وسجل خطوات الحفر أولا بأول، وسجل محتويات المقبرة، وموضع كل شىء وجده فيها، وسجل ما لاحظه من الانتهاك المتكرر للمقبرة، وكشف الغطاء

عن آخر من دفن فيها، وحدد أسماءهم التى وجدها مسجلة على البرديات المصاحبة لجثثهم، وأصدر فى النهاية كتابا عنها تحت عنوان «طيبة : مقابرها وسكانها» وقد صدر هذا الكتاب سنة ١٨٦٢.

مما يؤسف له أن ريند مات فى ريعان شبابه فى الثلاثين من عمره أثناء عودته من رحلته الثالثة إلى مصر، ورغم أنه لم يكن أول من كشف عن مقبرة سليمة إلا أنه يكاد يكون أول من اعتنى بالتسجيل والحفر السليم، ولا نشك أنه لو عاش أكثر لأفاد المصريات كثيرا، لأنه كان يتسم فى عمله بالصبر والدقة.

اختار صندوق دعم الكشوف أثرياً سويسرياً كأول وكلائها فى مصر، عقب الغزو البريطانى، هذا العالم هو «هنرى نافيل» أحد تلاميذ لبسيوس النابغين، وأجرى نافيل أول حفائره فى تل المسخوطة بجوار قناة السويس فى منطقة الدلتا، وكان ذلك بناء على تعليمات مشددة من الصندوق بالبعد عن الصعيد وتركيز النشاط الكشفى فى الوجه البحرى والدلتا لأنها منطقة بكر تحوى آثاراً مهمة.

أثارت حفائر نافيل فى المسخوطة إهتماماً شعبياً كبيراً، ذلك لأنه منذ سنوات ترسخ لدى العلماء اعتقاداً خاطئا بوجود مدينتين بناهما الإسرائيليون لرمسيس الثانى، هما «بر رمسيس» و«بيثوم»، وكان هدف نافيل فى الموسم الأول التوصل إلى خيط يربط المدينة بالنصوص التوراتية، وأسفر الحفر عن ظهور أطلال أحد المعابد، وأحد أحياء مدينة قديمة ومجموعة تحصينات ومعسكر حربى، وقدر نافيل أن المدينة بنيت ما بين ١٤٠٠-١٥٠٠ق.م.

وكان ما وجده من آثار مكرساً للإله آتوم لذلك استنتج نافيل أن المدينة نفسها بيثوم أى مدينة آتوم التى تقرأ. أحيانا. بر آتوم (يعنى رأيه أن بى آتوم وبيثوم شىء واحد).

وهلل أمناء الصندوق، ونوهوا بالكشف وعملوا له دعاية واسعة لجمع المعونات للاستشكافات، ورغم أن الكثير من علماء المصريات شككوا فى آراء نافيل إلا أن الجمهور أصبح مؤمناً بأن الحفائر الحديثة قد أيدت النصوص التوراتية بدرجة كافية.

كان نافيل مثل الكثيرين من رواد المصريات يمتلك قدرة لا حد لها علي العمل الشاق الدءوب، وكان يفضل (مثلهم) اكتشاف الآثار العظيمة والمعابد، وكان مازال متأثرا بأفكار مرييت وماسبيرو اللذين تدرب معهما. فلم يستطع التخلص -تماما- من السعى وراء المظهريات، ورغم هذه السلبيات كان له إيجابياته. فقد كان يتميز بذكاء حاد وأفكار بناءة.

لذلك أمكن أن يرفع من شأن صندوق دعم الآثار المصرية حتى احتل مكانا بين المنظمات المهتمة بالبحوث الأثرية، وكانت حفائره التى أجراها فى وادى الطميلات سنتى ١٨٨٥، ١٨٨٦ ثم فى تل بسطة من سنة ١٨٨٦ إلى ١٨٨٩ مثار إهتمام كثير من الأثريين.

استمر هذا الأثرى الشهير فى العمل لحساب الصندوق حتى سنة ١٩١٣، وكان بينه وبين الأثريين الألمان خصام شديد، ويمكن تلخيص السبب فى أن نافيل ذلك الرجل الضخم اللطيف وتلميذ لبسيوس كان يبغض الطرق التيوتونية (أى الألمانية) التى تلتزم بالأسلوبية المدرسية التى تصر على الوصف التفصيلى والتسجيل على بطاقات التعريف.

ولكن المدرسة الألمانية المتزمتة في أساليبها الأكاديمية، كان لها أفضال على المصريات فى أواخر القرن التاسع عشر، وتلاميذ هذه المدرسة ليسوا جمعاً من تلاميذ لبسيوس بل من تتلمذ على يد جورج مورتيز إيبرس ، أستاذ المصريات فى ليبزج .

وكان إبيرس الكاتب العظيم فى علوم المصريات، من أعظم المدرسين أيضا، لكن أهم إنجازاته كان سلسلة من الروايات التاريخية ذات القيمة (النبرة أو الحس) المصرية القديمة، وأشهر كتب هذه السلسلة كتاب «الأميرة المصرية» الصادر سنة ١٨٦٤.

وقد ترجمت القصة إلى ست عشرة لغات، وبيعت منها أربعمائة ألف نسخة حتى سنة ١٩٢٢، وتحكى القصة حكاية أميرة مصرية أيام الغزو الفارسى، هذه الأميرة يراودها الفاتح قمبيز عن نفسها، لأن جمالها كان باهراً، وكانت حساسة شامخة لكنها فوق كل شىء «إنسانة» ، وهذه الشخصية تكاد تصف الأميرات العصريات المقهورات، ولا شك أن بطلة القصة وكانت «ذات دم أزرق (ملكى) يزيدها جمالا على جمال» عصابة رأسها تتلألأ فوق جسدها الرشيق، فتزيدها طولا. كانت تخلب لب القارئ، لكن إبيرز يوظف النص فيضمنه أوصافا تفصيلية للصناعات المصرية والعادات والألوات، وكانت مثل هذه الروايات الرومانسية يقبل عليها بنهم سيدات عصره المتعطشات إلى الحب.

من أهم رواد المدرسة الألمانية العالم الفذ أدولف إيرمان مدير الآثار المصرية بمتحف برلين، وقد دخل اسمه فى الموسوعة المعروفة التى عرفته بأنه «إعصار» ، وهو الأعظم، بعد شمبليون». كان إيرمان من المهتمين بالهيروغليفية وبحوثه فيها مهمة جدا.

ومن أهم إنجازاته أنه أثبت العلاقة بين الهيروغليفية واللغات السامية، وإيرمان طرح فكرة تقسيم التاريخ القديم فى مصر إلى العصور الثلاثة : العصر القديم والعصر المتوسط ثم العصر المتأخر.

كذلك كان إيرمان من الرواد فى ترجمة وتفسير النصوص الهيروغليفية، وكان إيرمان من النوع الموسوعى سواء فى الفكر أو فى النشاط، فقد اهتم بمجالات كثيرة أهمها الآثار والتاريخ واللغة.

وإيرمان له كتاب مشهور اسمه «الحياة اليومية فى مصر القديمة»، وهو كتاب مبتكر فى موضوعه يصف المصريين القدماء فى حياتهم العادية، اعتمد فيه على مصادر فرعونية بحتة، لذلك خرج الكتاب فى شكل رائع لاتزول جدته، والكتاب حتى يومنا هذا من الكتب المتداولة المعروفة الفريدة فى بابها.

تضافرت ظروف وأحداث عديدة على إيصال علم الآثار المصرى إلى أعتاب مرحلة جديدة، أدت إلى تغيير جذرى إلى الأفضل.

فقد أصبح لعلماء المصريات الألمان والفرنسيين تأثير كبير وارتفعت أصواتهم وكلماتهم البليغة والمؤثرة، وزاد من تأثيرهم تحسن الاتصالات، وتدفق المعلومات عن المصريين القدماء، وكلها تشير إلى ضرورة توفر المعلومات الموثقة المسجلة الدقيقة.

كانت روايات إيبر يقبل عليها القراء بنهم، كما كانت كتب السيدة أميليا إدواردز ومقالاتها ذات صفة تنويرية لقطاع كبير من المثقفين لم يكن موجودا من قبل، وكانت الأمور فى مصر قد أصبحت مستقرة تحت علم الإمبراطورية البريطانية، مما هيأت الجو سياسياً لمواصلة الحفائر الأثرية على الأسس العلمية (اللائقة).

قامت السيدة أميليا إدواردز برحلة إلى الولايات المتحدة فى ١٨٨٩ - ١٨٩٠ للدعاية لصندوق دعم الآثار، ودعوة الأمريكيين للتبرع له من أجل الاستكشافات الأثرية واستمرارها، وكانت رحلتها ناجحة للغاية، ومحاضراتها تلقى ترحيباً كبيراً، كانت السيدة قد كتبت قبل ذلك منذ سنة ١٨٨٣ «قام الفرنسيون فى الوجه القبلى والإنجليز فى الوجه البحرى ببذل الجهود المضنية للكشف عن الكنوز المدفونة لأعرق شعوب الأرض».

ثم تستطرد فى ثقة «قدماء المصريين المدفونين فى ثرى مصر أكثر من

كل الرجال والنساء الذين يعيشون فوق ثراها» وقبل ذلك بست سنوات استأجر الصندوق (صندوق دعم الكشوف المصرية) شاباً إنجليزياً ليقوم لحساب الصندوق بإجراء حفائر فى الدلتا.

واستمرت العلاقة بين الفتى والصندوق ثلاثة سنوات فقط، هذا الفتى إسمه فلندرز بترى، كتب له أن يكون واحداً من الرموز البارزة فى الاستكشافات الأثرية فى وادى النيل.

نقوش وأدوات

وأماكن واحتمالات

ولد فلندرز بيترى سنة ١٨٥٣ فى أسرة معروفة بحب الأسفار والاهتمام بالبحث العلمى أحياناً. ولم ينل بيترى تعليماً نظامياً يذكر، لكنه تلقى على يدى أبيه تدريباً جيداً فى المساحة والهندسة.

واعتاد بيترى التجول فى الريف ومعه بعض أدوات أبيه مثل مقياس الارتفاعات والتلسكوب لرصد بعض المواقع عند الحفائر الأثرية.

وكان حسب قوله «يصرف خمسة ونصف على الطعام كل أسبوع، وضعفها على المبيت». ويقول بيترى : «لقد درست الأرض والناس فى جنوب إنجلترا كله، وكنت أبيت فى أحد الأكواخ». ويعتبر هذا تدريباً جيداً سوف يساعد بيترى فيما بعد فى عمله فى الصحراء بالإضافة إلى إهتمامه بدراسة العملات والإطلاع على الكتب فى المتحف البريطانى.

وكان بيترى وأبوه يوليان اهتماماً كبيراً بالأهرام[١] المصرية منذ فترة

(١) فى الأصل الأهرامات وهى خطأ لغوى والصواب أهرام جمع هرم ، وقد تفاحش هذا الخطأ اللغوى على لسان كثير من الكتاب والمذيعين والصحفيين فأرجو أن يتنبه له.

طويلة. وأحد أسباب هذا الاهتمام إطلاعهما على كتاب للفلكى «بيازى سميث» عنوانه «ميراثنا من الهرم الأكبر» ، وهو كتاب تأملى ليس له أهمية تذكر اشتراه بيترى مصادفة وهو فى الثالثة عشرة من عمره. وأزمع الأب وابنه على القيام برحلة لإجراء مسح شامل للهرم الأكبر، يكون أكثر دقة من محاولات مسحه السابقة.

لذلك اتصلا «بستونهنج» سنة ١٨٧٢ ثم شرعا فى وضع خطة مناسبة للمسح استغرق إعدادها عدة سنوات. وفى نوفمبر سنة ١٨٨٠ سبق بيترى أباه فى السفر إلى مصر ليبدأ حياة جديدة، وكان آنذاك فى السابعة والعشرين من عمره . وتأثر بيترى عندما علم أن أباه صرف النظر عن اللحاق به فى مصر وآثر البقاء فى وطنه.

المهم أن بيترى وصل إلى الاسكندرية بعد رحلة عاصفة استغرقت شهراً كاملاً. ولم يمض أسبوع على وصوله حتى كان قد استقر فى هدوء داخل مقبرة عند الهرم فى الجيزة، بعد أن حصل بسهولة على التصريح اللازم لأنه لم يكن يسعى لإجراء أى حفائر يمكن لمرييت أو لمصلحة الآثار أن تعترض عليها.

كان مسح بيترى للهرم مبتكراً حسب المقاييس المعاصرة فى ذلك الوقت، فقد أمضى عدة أسابيع فى اختيار نقط الرصد ودراسة تركيب الأهرام، وقد توفر لديه وقت كاف ليراقب أسلوب مرييت ومعاونيه فى الحفر، فوجده منفراً متخلفاً.

كان مرييت لا يبالى بنسف كل الحجارة الجرانيتية الساقطة من المعبد ترافقه كتيبة ضخمة من العسكر، ولا يبالى برفع الحجارة ونقلها باستخدام الروافع... لم يكن العمل يجرى بنظام وانسجام، ولم تكن هناك خطة (للتنفيذ)، وما أن يبدأ العمل فى مكان حتى يترك دون إكمال، ولم يكن هناك أى اعتبار للمستقبل فى مجال الاستكشاف، كما لم تتبع أساليب متحضرة أو وسائل

مناسبة لحماية العمال. إنه لشيء مؤلم أن نرى المدى الضخم لتخريب كل شيء ... وكان آخر ما ينال الإهتمام هو الحفظ والصيانة.

استرعى المسح الذي أجراه الشاب الإنجليزى الأثريين الجادين، فزاره كثيرون فى بيته المقبرى، منهم الجنرال الكبير «لين فوكس بت ريفرز» أحد رواد الحفائر الدقيقة، وأبدى حماسا شديداً وتشجيعاً لجهود بيترى. وقد افتتن بيترى بكرانكات الهرم ومقاييسها. (كرانك معناها ذراع.. والمعنى هنا مبهم – المترجم).

وفى أوقات راحته من أعمال المسح كان بيترى يجمع الشقفات الخزفية وما يستطيع من أدوات أثرية خفيفة. وكان ماسبيرو قد نصحه بإخفاء الآثار الخفيفة فى جيوبه هرباً من التفتيش. كان ماسبيرو يستخف الآثار الخفيفة، أما بيترى فكان يعتقدأن مثل هذه الآثار كالأوانى الخزفية المزججة فيها ما يعين على كشف الغموض عن مصر القديمة.

وهذا بالإضافة إلى ما رآه حوله من آثار التخريب هو الذى دفع بيترى كى يحول اهتمامه من مجرد المسح على الحفر نفسه.

كانت عمليات المسح التى يقوم بها تؤيدها الجمعية الملكية، فلما عزم على الحفر توجه لصندوق دعم الكشوف لدعمه ماديا. وفى البداية كان أعضاء مجلس الإدارة ساخطين على هذا المارق حتى السيدة آميليا إدواردز نفسها.

ولكن نجاحه فى مسح الهرم دفعهم للسماح له ببعض البحوث لكن بلا تمويل. ولم يمض إلا قليلاً من الوقت حتى وصلت من بيترى رسالة إلى السيدة إدواردز: «إن مجال الحفر الأثرى فى مصر يستهوينى كثيراً، وأرجو أن تكون النتيجة محققة للآمال وأشعر أن الأسلوب المناسب يتلخص فى العناية بالتدوين والمقارنة بين التفاصيل الدقيقة .. (وليس) فى السعى وراء جمع (الآثار) بالجملة والارتجال فى تنظيف (المواقع)».

كانت الاستكشافات الأثرية المصرية فى وضع خطير، وكان بيترى مدركا لأوجه النقص فى هذا المجال من اتصالاته بالمتحف البريطانى ، وكان مدهوشاً من هذا القصور. ومن الأمثلة على ذلك أن المستشرق بيرش طلب من بيترى أن يرسل له صندوقا يحتوى على فخاريات متنوعة من «كل موقع مهم» لمساعدته في تتبع التسلسل التاريخى فى مصر.

ويقول بيترى إنه «بعد سنة من وجودى فى مصر أحسست أنها مثل البيت المشتعل بالنار ... فقد كان التخريب يجرى بسرعة مذهلة. وكان يتعين على جمع ما أستطيع جمعه بسرعة، كى أحفظه حتى أبلغ الستين من عمرى فاتفرغ له ولم يكن هناك أى إهتمام بالدقة والإتقان.. أما النهب والسلب فكانا على أشدهما».

أسرع بيترى بالعودة إلى مصر، وبدأ يدخل فى الحفر فى بعض المواقع ومنها تانيش ونوقراطيس. وكانت الأرض فيها «غنية بالخزف الإغريقى القديم (الأثرى)، لدرجة يشعر المرء معها (بالذنب) كما لو كان يدنس المكان وهو يدوس أكوام الفخار الأسود اللامع فتتحطم تحت وطء قدميه.

وانفرد بيترى عمن سبقوه باتباع أسلوب تأجير العمال وإيوائهم بنفسه دون وساطة الشيوخ ليأمن مكرهم واستغلالهم للعمال. لأنهم اعتادوا على إبعاد العامل الذى لا يدفع «المعلوم» وبهذا الأسلوب اختزلت مشاكل العمل بشكل ملحوظ.

سرعان ما اكتشف بيتري أن ماريت كانت له أساليب مختلفة. كان مرييت يترك الأمر برمته للمشرفين، فكانوا يتعهدون بإحضار العمال من القرى، ويتولون صرف أجورهم . فكان من الطبيعى أن يميل المشرفون إلى التغاضى عن تعبئة الموسرين من الفلاحين لأنهم أقدر على دفع الرشوة .

أما فقراء الفلاحين فكانوا يساقون قسراً للعمل. وكانت أغلب الحفائر المحلية تجرى بصورة عشوائية، وكان الحفر الذى يقوم به الأهالى كما يقول بيترى ينحصر فى «عمل حفرة عميقة مستديرة ينثرون حولها ما يجدوه بلا نظام، وقد قاسيت الأمرين لحثهم على حفر خنادق مستقيمة ضيقة.

ورغم أن طرق بيترى فى تنفيذ الحفائر كانت أحسن من غيره، إلا أنها بالنسبة للطرق الحديثة كانت متخلفة ومخربة. كانت طبقات ثلاثة من العمال : الحفارون، والغواصون (الذين ينزلون إلى الأبيار)، والنزاحون (لرفع المخلفات وإخلاء المنا[illegible]ذ.

وكان بيترى يحرص على توفير الرقابة على العمال، وإن كنا نجهل كيفية ذلك بالضبط ولم يمانع بيترى فى استخدام الفتيات فى الدق والتكسير. وكانت تسلقه بلسانها بلا توقف، ولا تكف لسانها السليط حتى وهى تنهال عليه بمقطفها».

كان العمل يبدأ فى الخامسة والنصف صباحا وينتهى فى السادسة والنصف مساءاً، مع فترة راحة قصيرة عند اشتداد الحرارة في الظهر. وأحيانا كان بيترى يذهب لخيمته للإفطار، ومن هناك يراقب العمل بالتلسكوب. وفى الأوقات الأخرى تجده دائماً فى مواقع العمل وعينه كعين الصقر لا تغفل عما يجرى.

هذا بينما كان مرييت لا يزور مواقع الحفر إلا مرة واحدة كل فترة (ثلاث أسابيع أحياناً). وفى كل زيارة كان يعطى تعليماته بما يراه جاهزاً فى زيارته القادمة.

وكان يطلق يد المشرفين فى قيادة العمال فحققوا من توظيف العمال والرشاوى أرباحاً طائلة. وكان هؤلاء يتخوفون من أن الإنتاج إن لم يكن غزيراً،

فإن أعمال الحفر قد تتوقف، فكانوا إذا تعثرت الحفائر لا يتورعون عن شراء بعض الآثار الخفيفة من تجار الآثار بالقاهرة حتى تظل شهية مريبت مفتوحة للحفر.

أما نواتج الحفر المهمة فكانوا يخفونها حتى تحين الفرصة المناسبة التى تحقق لهم ما يطمعون من ربح فيظهرونها (المقصود طبعاً المنح الإضافية والبقشيش... إلخ).

لذلك لا نستغرب كثيرا إذا ما كان يصرح به متحف القاهرة من احتوائه على كل ما ينتج من أعمال الحفر التى يقوم بها الأجانب موجود بالمتحف ، لا يعنى سوى خدعة كبيرة (أى لا أساس لها من الصحة).

حصل بيترى من حفائره على نتائج جيدة مفيدة إذ تمكن من تنظيف وكشف جزء من معبد وفناء كبير مسور للفرعون بسوسنس الأول من الأسرة الحادية والعشرين، واكتشف كمية كبيرة من الفخار ومن الصناديق المليئة بالبرديات التى حُمل بعضها فيما بعد على الزجاج ثم ترجم. وقد أرسل الكثير مما اكتشفه إلى إنجلترا وعرض فى معهد الآثار الملكية بلندن.

وأهم من ذلك كله أن بيترى أثناء وجوده فى انجلترا أمضى وقته فى تسجيل نتائج أعماله كى تنشر نتائج أعماله بسرعة.

وكانت أميليا إدواردز تطلب ما ينشر له فى الصحف المتخصصة، وتعتمد عليها فى كتابة مقالات مشوقة تنشرها فى جريدة التيمز اللندنية . كان هذا على وجه الحقيقة لا يعدو أن يكون مقدمة فى الكشوف الأثرية التى استغرقت حياة بيترى كلها بعد ذلك فى مصر وفلسطين. على الرغم من أن حفائر فلندرز كانت أكثر انضباطاً ممن سبقوه، إلا أن تقنياته كانت متخلفة حسب المقاييس الحديثة. فقد اعتاد على استخدام قوة عمل كبيرة تزيح بالكامل تلالا من الترسيبات الأثرية.

ففى حفائره فى نواقراطيس سنة ١٨٨٥، استخدم بيترى مائة عامل وسبعة عملوا تحت إشراف اثنين فقط من الأوروبيين، مما أربك عملية صرف البقشيش (المكافأة) نظير العثور على الآثار الخفيفة،

وكان بيترى فى الواقع يتنافس فى ذلك مع تجار الآثار المحليين، مثل من سبقوه. وحاول حل المشكلة على أساس نوعى. كل نوع له ثمنه، فإذا حدث خلاف على السعر رفض شراء الأثر. والظاهر أن هذه السياسة أثبتت نجاحها.

أدرك بيترى الأهمية القصوى للتبويب حسب التسلسل التاريخى أثناء إجراء حفائره فى نوقراطيس، وأهمية طبقات الحفر وأعماقها فى تصنيف التسلسل التاريخى للآثار. ونجح فى كثير من الأحيان فى تحديد تاريخ إنتاج الآثار التى حصل عليها. وحاول تحديد عمر المعابد والمبانى بربطها بالطبقات الرسوبية.

ومن حسن حظه أن لكثير من الآثار الخفيفة على أعماق مختلفة يتألف من جعارين وعملات وأشياء منقوشة يسهل تحديد عمرها من النصوص المنقوشة عليها إذا وجدت من يحسن قراءتها. هذا الاتجاه كان جديداً تماماً لم يستخدم فى مصر قبل بيترى.

فى سنة ١٨٨٧، ترأس بيترى بعثة كشفية مهمة فى الفيوم عقب إنهاء عقده مع صندوق دعم الآثار اللندنى للعمل كوكيل مستقل. كان اهتمامه. فى الفيوم. موجها إلى هرم هوارة الذى أشاد به بلزونى منذ سبعين عاماً. ولم تكن ظروف العمل مريحة، إذ عسكر بيترى فى خيمة صغيرة، وكتب شاكياً «تصور كيف يمكن لإنسان ما أن يتكوم فى مساحة طولها ستة أقدام ونصف وعرضها مثل ذلك.. ومع السرير كان معى تسعة صناديق تحوى كل أنواع المؤن، بالإضافة إلى بانيو (الحمام) وموقد للطبخ وزير (للشرب) وحامل للزير ذى ثلاثة أرجل ... وبعض الآثار (أيضاً). هكذا كتب علىّ أن أعيش وأنام واغتسل ...

واستقبل زوارى». وكان يحفظ المومياوات المهمة تحت سريره زيادة فى الاحتياط.

وكان يعمل مع بيترى عدد ضخم من العمال، بدا له أنهم أحبوا العمل معه : «كان النفخ فى المزامير مستمرا، يصحبه الغناء والتصفيق والصياح، وحالة عامة من المرح وشق العمال خندقاً يصل إلى قلب الهرم مصحوبا بالاستكشاف أولاً بأول داخل الهرم. ولم يؤد الخندق إلى شىء، إذ انتهى إلى سقف غرفة سميكاً جدا ولم يكن الوقت المحدد لإنهاء الاستكشاف يسمح بنقبه.

ولكن بيترى حوال ذلك الوقت كان قد وجه اهتمامه إلى مجموعة مومياوات رومانية واردة من جبانة مجاورة ، قدر عمرها بسنتى ١٠٠ و ٢٥٠ ميلادية. كانت ألواح التوابيت الخشبية الخاصة بالمومياوات عليها نقوش بالشمع الملون تمثل صور وجوه بشرية (بورتريه).

وهذا النوع معروف أنه كان قبل الوفاة ويعلق على جدران البيوت ثم يسوى منه التابوت ويوضع فيه الميت ثم يدفن. وكانت الجثث تدفن فى أبيار جماعية لكل أسرة تحفر بجوار البيوت وتستعمل لجيل من الأفراد وربما أكثر، ثم تنقل من المقبرة الأسرية إلى الجبانة إلى القاعية الكبيرة المجاورة للهرم.

كل هذه البورتريهات ومعها ستون صندوقا حاوية لكثير من الآثار الأخرى شحنت إلى متحف بولاق حيث كومت فى العراء تحت رحمة الرطوبة وأمطار الربيع. والتلف. وكاد بيترى يصيبه الغثيان وعندما أصر المتحف على الاحتفاظ بأحسن ما فى الرسالة من البورتريهات والمنسوجات.

رغم ذلك بقى لبيترى مامكنه إقامة معرض جميل لبعض البورتريهات والمومياوات فى صالة كبيرة من الجناح المصرى فى بيكادللى، هى القاعة نفسها التى أقام فيها جيوفانى بلزونى معرضه من قبل.

وكانت هناك فرصة بالطبع لدى الزوار الذين طال بهم العمر، لكي يجروا مقارنة بين المعرضين.على أي حال كان معرض بيترى ناجحاً وحضره جمع كبير، وقد أظهر من الإقبال على المعرض أن المصريات قد ثبتت أقدامها وأصبحت علماً له احترام وتقدير كبيران.

في الموسم التالي عاد بيترى إلى الموقع ودخل الهرم بنفسه، وقد وجد أحد ـائدى الكنوز الألمان يعمل في الفيوم بتصريح رسمي. لكنه لم يحقق نجاحاً فتحول إلى المواقع التي أعدها بيترى للحفر في الأسابيع التالية. من أجل ذلك قام بيترى بتكليف رجلين بالحفر في المقابر الملحقة بهرم اللاهون، كما كلف اثنين آخرين بالحفر في أبو غراب حفظاً لحقوقه. هذان الموقعان الإضافيان كان بيترى يضطر لزيارتهما مشيا علي الأقدام لمسافة ١٧ كيلو متراً كل أسبوع.

وقد أبدى بيترى ضيقه لذلك فقال «كانت متعبة للغاية». احتاج كسر السقف العالق لغرفة الدفن بهرم هوارة إلى شهر كامل لأنه كان من الكوارتز الصلد بطول ٢٠ قدماً وعرض ٨ أقدام وسمك ٦ أقدام. بعد أن دخل الغرفة وجد بها تابوتين حجريتين فارغتين، وكانت المياه تغمر الغرفة حتى وسط الزائر. بعد ذلك عثر على خرطوش يحمل إسم الملك أمنمحات الثالث (١٨٠٠ق.م)، فتم بذلك تنسيب الهرم لصاحبه وتعريفه.

استمر العمل في كشف هوارة واستؤنف تنظيف وكشف المدخل الأصلي لحجرة الدفن. كانت الممرات كلها مسدودة بالطين نزع بيترى ملابسه وانزلق للداخل ليجرى قياساته. وفي هذه الأثناء كانت مجموعات العمال ترفع النفايات والأقذار، حتى أمكن رصد مكان باب الهرم الرئيسي. وجدت حجرة الدفن على عمق ٤٠ قدماً داخل الهرم ووجد بها مجموعة رائعة من تماثيل الأوشابتي وتابوت حجري ضخم. كانت كل الموجودات غارقة حتى الوسط في الماء وقد أصابتها ملوحة شديدة تكفي قطرة منها لجعل العين تلتهب.

وتمكن بيترى من تحريك تماثيل الأوشابتى بالرقود فى الماء وتحركيها بقدميه. وكان تحريك التابوت الحجرى أكثر صعوبة فدقت خروم فى غطاء التابوت، لوضع البكارات حبال رفع ذات خطاطيف، بينما كان بيترى نفسه وسط الأملاح ينظف التابوت من الرمل العالق به.

وقال عند ذكره لهذه الواقعة: «كنت راقداً أنظر مثل الجاموس». المهم أنه أمكن نقل التابوت إلى مكان مضىء، لا يضطر فيه بيترى للخوض فى ماء عميق «وسط الخشب العفن والجماجم».

استمر العمل بكثافة فى موسم ١٨٨٨ فى اللاهون ومدينة العمال بكاهون وهى القرية التى بنيت أثناء الأسرة الثانية عشرة لإيواء العائلات التى اشتركت فى بناء اللاهون .

أخلى بيترى كثيرا من بيوت كاهون للفحص فوجد بالبيوت أدوات نحاسية ومساند قناديل وأثاث خشبى بالإضافة إلى أدوات أخرى تافهة. وعلى أساس حفائر كاهون فبنى بيترى تصوراً معقولاً عن الحياة اليومية للعمال أثناء الأسرة الثانية عشرة.

أما من سبقوه فكانوا يركزون إهتمامهم على الآثار والمقابر الضخمة على حساب المدن والقرى البسيطة.

ومما يستحق الذكر أن مكتشفات بيترى الأثرية فى كاهون كانت الأساس الذى اعتمد عليه أدولف إيرمان فى تأليف كتابه المعروف «الحياة اليومية فى مصر القديمة» الذى صدر سنة ١٨٩٥ .

كانت كشوف بيترى فى أبى غراب أقل أهمية من الناحية الأثرية، لكن موقع المدينة نفسه كان له دلالته التاريخية. وقد قام بيترى بتنظيف وإخلاء جزئى فى المدينة وبالأخص الساحة الكبيرة المسورة بجوار المعبد. وأظهرت المعاينة أنها

كانت مخصصة لسكنى مجموعة من الأجانب. ولاحظ بيترى وجود فخاريات على الأسطح وشقفات تنتمى إليها فى البيوت.

وبالفحص ثبت أنها مصنوعة فى مرسينا ومماثلة لما عثر عليه شيلمان فى ميسنا باليونان، وما عثر عليه غيره فى الجزر الإيجية. من ذلك يثبت وجود علاقات تجارية بين المصريين والإجيين ترجع إلى سنة ١٥٠٠ سنة قبل الميلاد.

زار بيترى ميسينا بنفسه بعد ثلاث سنوات وتحقق من وجود هذه الأشياء التى كانت مصر تستوردها، وتنتهى لنفس الفترة ومطابقة لما وجد فى أبو غراب (الفترة هى الأسرة ١٨).

من كل ذلك أظهر بيترى أن علاقات مصر التجارية مع ميسينا بدأت حوالى سنة ٢٥٠٠ قبل الميلاد. التاريخ الذي بدأ فيه حضارة ميسينا، ثم تجددت بين سنتى ١٥٠٠ ، ١٠٠٠ قبل الميلاد.

هذا الأسلوب يعتبر من الأمثلة المبكرة على الاستفادة من الآثار بأسلوب يعرف بالمقابلة التاريخية أى إسقاط تاريخ أدوات ما معروف تاريخ إنتاجها على الموقع الأثرى فى البلاد البعيدة لتحديد عمر هذا الموقع، وهو أسلوب مازال متبعا حتى الآن فى دراسة الأزمنة العتيقة.

تحمس علماء الآثار العاملين بميسينا لهذه النظرية خصوصا «جاردنر» تلميذ بيترى الذى قرر أن بيترى «أنجز فى أسبوع واحد أكثر مما أنجز الألمان فى عشر سنوات لتاكيد العلاقات بين ميسينا ومصر» وكان علم التاريخ وتسلسله قد استقر منذ عدة سنوات . وعليه كان يعتمد السير «آرثر إيفانز» فى تاريخه لقصر مينوس فى كريت، وأمكن للمرة الأولى إثبات أن المدنية المصرية لم تزدهر فى عزلة أو فراغ، ولكن فى ظل علاقات تجارية نشطة مع المجتمعات الأخرى. كذلك ثبت أن العلاقات التجارية قد عكست آثارها على السجل الأثرى.

تميز فليندرز بيترى عن غيره من هواة جمع الآثار بمعلوماته الواسعة النقدية الشاملة عن الشرق الأدنى وعلم الآثار الأوروبى. وقد يكون مع زملاء آخرين دائرة من الباحثين تهتم بالتعميم أكثر من التخصيص وذات نظرة شمولية أكثر من التركيز على موقع واحد أو على مصر وحدها.

واعتاد تلاميذ «شليمان» و«إيفانز» و«بيترى» فى أواخر القرن التاسع عشر على إحاطة بحوثهم الأكاديمية بجو من الزيارات الميدانية المتبادلة والمناقشات الحرة. بالإضافة إلى ذلك أتجروا فى الآثار، وتراسلوا مع شخصيات العصر الفيكتورى النشطة بصورة جعلت أكثر الباحثين انشغالا فى القرن العشرين يصيبهم الرعب من جدول أعمالهم (العبارة مبهمة ولعلها تعنى أن الباحثين وجدوا أن النهب كان على أشده).

كان بيترى يوقن أن الشهرة آتية لا ريب فيها، فلم يتعجلها. وفى نهاية الموسم كتب إلى صديق له يقول «أعظم ما يسعدنى أن أتمكن من إصدار سلسلة من الكتب تظل أجيالاً وقروناً مرجعاً للحقائق والمعلومات فى موضعها» وهذا الإتجاه يتعارض تماما مع اتجاهات من سبوقه، لأنهم نادرا ما اهتموا بنشر أى شىء عن أعماله، أو اعتنوا بتسجيل مصادر الآثار التى اكتشفوها.

كان بيترى من المؤمنين بضرورة استيفاء السجلات والشروح (الوصف)، وبالأخص السجلات، وقد ذكر خمساً من الخبرات التى استخدمها هو شخصياً فى عمله :

أولا: «الفن الرفيع المسمى فن اقتناء الآثار، وجمع المعلومات الضرورية عنها وتقدير أهميتها بدون مبالغة أو شطح، وإثبات الفروض واختبار صحتها باستمرار أثناء العمل، والمحافظة على كل ماهو مهم. ليس لنفسى فقط، ولكن لغيرى أيضا».

ثانيا: «نسج (تركيب) تاريخ يعتمد على الأدلة المتناثرة باستخدام المواد المتاحة مثل النقوش والأدوات والمواقع مع الأخذ (بكافة) الاحتمالات».

أما الخبرات الأخرى التى سجلها فهى :

ثالثا: البيئة المادية (أى الموجود بها الأثر).

رابعا: المسح الأثرى (الحفر والتنقيب).

خامسا: الأوزان (لعله يقصد إجراء المقارنات. المترجم).

هذه هى الخبرات والفنون التى يقول بيترى أنه التزم بها.

كان هدف بيترى هو النشر، والتخطيط الدقيق، والحفائر المتقنة، وإمساك السجلات (التسجيل الدقيق). والتزم بذلك فى كل الأحوال، وهو ما يتعارض بشكل ملحوظ مع مرييت الذى استغرق ظهور كتاب عن السيرابيوم منه أربعين عاماً.

فى هذه الأثناء دخل بيترى -من حيث لايدرى- فى دوامة الصراع السياسى الشائك بسبب تصاريح الحفر وتصدير الآثار. وكان الفرنسيون منذ أيام مرييت قد سيطروا على الإدارة فى قطاع الآثار ولاحظ بيترى أن البنية الإدارية بالقطاع فاسدة وعاجزة، كما لاحظ أن تصاريح الحفر كانت تعطى لتجار الآثار أو للمستكشفين غير المؤهلين.

وكانت حالة المتحف نفسه يرثى لها. والموظفون يتسمون بعدم المبالاة. فتركوا المومياوات والتماثيل الثمينة مكدسة فى الممرات والهواء الطلق عرضة للصدأ والتلف، كذلك كان كثير منهم ضالعين فى معاملات مشبوهة مع تجار الآثاربالقاهرة.

وحضر بيترى نفسه إبرام صفقة من هذا النوع بين تاجر كبير وأحد أمناء

المتحف، ذكر أحد أصدقاء بيترى بعدها أن التاجر «انصرف وملء ذراعية كراتين (صناديق ورق مقوى)». كذلك أشار بيترى إلى أن «المتحف كانت له أحوال غريبة من المتاجرة بدون رقيب ولا حسيب».

فى ذلك الوقت ارتفعت الأصوات فى انجلترا مطالبة بالحد من تدمير الآثار المصرية وضرورة المحافظة عليها. وكان تبنى هذه النظرة نتيجة للمعارض التى أقامها بيترى ومحاضرات أميليا إدواردز ومنشوراتها. من أجل ذلك تأسست «جمعية الآثار المصرية» من ذوى النفوذ والمكانة. وعند التأسيس طالبت الجمعية بضرورة توظيف مفتش مستقل من انجلترا، وهذا الاقتراح وقف ضده الفرنسيون بكل حزم.

شكلت لجنة للآثار لدراسة المشكلة، سيطر عليها الفرنسيون خصوصاً «جريبو» الذى كان متعاوناً مع التجار حسب ظن بيترى، استجابت بلا تردد لمشروع بيترى، وسرعان ما صدرت تشريعات جديدة تنظم تصدير الآثار جعلت من المستحيل على أية بعثة أجنبية أن تنقب عن الآثار فى مصر حتى بيترى نفسه حُرم من إجراء أى حفائر.

عند ذلك «اشتعل الموقف وانهالت الرسائل والاستجوابات على البرلمان (الإنجليزى) بكثافة، كما قال بيترى وهو فى حالة انتشاء «وبذلت جهود سياسية مكثفة أدت إلى صدور قوانين حازمة لكنها أكثر مرونة تحدد بوضوح مواصفات الأعمال الاستكشافية، منها ضرورة النشر، وتضييق الخناق على التجار حتى لا يحققوا أرباحاً بأسلوب انتهازى».

كان الباحثون منذ سنين يسعون للكشف عن أصل المدنية المصرية قبل ظهور حضارة عصر الأسرات، وكانت هناك نظرية تدعى أن أول من حموا مصر الموحدة غزاة أصلهم من بين النهرين (العراق). وتستطرد النظرية فتقول أن هؤلاء حملوا معهم إلى مصر مدنية وادى النهرين الأكثر تقدماً.

لكن بيترى عثر سنة ١٨٩٤ على جبانة شاسعة بجوار بلدة نقادة، وبالحفر فى الموقع استخرج هياكل عظمية مع كثير من الأوانى والأثاث المقبرى. ولاحظ بيترى أن الأوانى الفخارية لهذه الحضارة لا تنتمى إلى الحفائر الذى عثر عليها فى مقابر الدولة القديمة إذ كان أكثر اتقاناً وينبئ عن حضارة تأصلت وأسست جذورها فى وادى النيل فى البيئة المصرية الصميمة.

كان أول انطباع لدى الأستاذ فى موقعه الأكاديمى الجديد أن حضارة نقادة وافدة من ليبيا (لا العراق). لكن مع استمرار الحفائر لاحظ بيترى أن الجبانة كانت مكتظة بالجثث منذ العصور العتيقة.

ثم واصل بيترى حفائره للكشف على ما فيها، وتمكن فى سنة ١٨٩٤ من الكشف عن ألفى مقبرة، وبعد سنوات قليلة من مواصلة الحفائر عثر على مدفن ملكى فى نقادة نفسها، وهو دليل قاطع على التواصل بين الحضارة العتيقة بأوائل حضارة عصر الأسرات، بذلك ثبت أن الحضارة المصرية القديمة جذورها ممتدة إلى حضارات سابقة له فى العصور العتيقة قبل عصر الاتحاد، وأنها نمت وتأصلت فى وادى النيل نفسه. وكان لبيترى أسلوبه المميز الذى ظل يطوره بنفسه فى الحفر والكشف واستخراج الآثار الموجودة بجبانة نقادة .

يلخص بيترى أسلوبه هذا كما يلى :

الخطوة الأولى ارسال أولاد (مهاراتهم محدودة) لتحسس الأماكن سهلة الحفر (اللينة) فى أرض الجبانة، وحالما ينظفون حافة المرقد المقبرى يصرفون على الفور. بعد ذلك يتولى العمل عمال عاديون (مهارتهم غير عالية) يقومون بتنظيف المرقد حتى يلمسوا (بالفئوس) الأوانى الفخارية داخل الحفرة.

بعد ذلك يتولى عمال من الدرجة الأولى (فى المهارة) يقومون بإزالة الأتربة حول الأوانى الفخارية والمومياوات دون أن يحركوها من مكانها وأخيرا

يأتى دور (على السويفى) البارع لتنظيف الموجودات تماما من آثار الأتربة، بحيث يكون كل شىء فى الحفرة وما بها من عظام وأزرار... إلخ - ظاهراً للعيان وهنا ينتهى العمل».

يقول بيترى : «درست الفخار الموجود فى القبور بعناية حسب أشكاله وزخارفه». ومما لاحظه بيترى حدوث تغير تدريجى فى حجم الأوانى، كان أكثر ظهوراً فى مقابض نوع معين من الجرار. كانت التصميمات الفخارية المبكرة ذات وظيفة عملية لتسهيل الاستخدام اليومى، ثم بدأ يضاف إليها أشكال زخرفية تحولت مع الزمن إلى مجرد خطوط ملونة. وكشف عن جرار شبيهة فى مواقع أخرى مثل ديوسبوليس بارفا تمثل حضارات ما قبل الأسرات كانت منسجمة مع الأثاث الجنازى.

بعد ذلك اكتشف بيترى مقابر أخرى، استطاع بعد فحصها من تصنيف الأثاث الجنائزى فى مجموعات على أسس «مرحلية» تنسب لفترات متتابعة دل عليها التطور الأسلوب فى صنع الجرار.

أطلق بيترى على أولى المراحل اسم المرحلة الثلاثينية، وهى مرحلة لم يعثر فيها على ما يدل على وجود مجتمعات قبل أسرية. وتوالت مراحل التصنيف، وبعد خمسين مرحلة وصل إلى المرحلة الثمانينية، التى واكبت المرحلة الأسرية زمنيا، هذا التصنيف يعتبر أول محاولة لوضع تسلسل زمنى لمصر ما قبل الأسرات، ومنذ ذلك الوقت التزم بيترى وغيره بهذا الأسلوب فى كافة الحفائر فى وادى النيل بعد ذلك.

تعتبر نظرية بيترى عن التتابع التاريخى واحدة من أهم إنجازاته لأنها تسهل دراسة الآثار التى يستعصى تنسيقها بوسائل أخرى. وتزيد دقة التقديرات كلما زادت كمية الآثار المكتشفة. وقد علق بيترى على ذلك فقال : «لا أجد ما يبرر الغض من أهمية العصور التاريخية الموثقة».

وهى نظرية تفاؤلية ذكرها بيترى فى كتاب له ظهر سنة ١٩٠٤ بعنوان «طرق وأهداف البحث الأثرى» ضمنه ما توصل إليه فى هذا المجال، هذه النظرية فى فحواها ليست أكثر من شكل معدل لترتيب الآثار لا يعرف تاريخها على أساس تطورى. على أى حال كان ظهور هذه النظرية خطوة جريئة ساهمت فى تحسين الأساليب التاريخية للآثار المصرية.

أدت استكشافات بيترى ذات الطابع الابتكارى إلى القيام برحلات عديدة بطول مصر وعرضها. لكن الصراع بينه وبين مصلحة الآثار والمتحف لم يهدأ، إذا لم يسكت بيترى عن الاعتراض والإدانة للصفقات سيئة السمعة بين المصلحة وتجار الآثار.

وفى سيرته الذاتية المعنونة «سبعون عاما مع الآثار» يروى لنا بيترى كثيرا من «خطايا الزملاء الفرنسيين». من ذلك أن باحثا عالميا (فرنسيا) قام بكشوف فى مقبرة أبيدوس الملكية، فلم ينشر دراسة عنها، والأدهى «أنه استعمل ما وجده من الأعمال الخشبية الخاصة بالأسرة الأولى كوقود فى مطبخه». أما ما اقتناه فقد تبعثر بين شركائه الذين مولوا الكشف حتى بيعت فى مزاد علنى بباريس.

وكان بيترى يرى أن خلفاء ماسبيرو فى إدارة المتحف كونوا صفا من الموظفين عديمى الكفاءة. ووصلت الأمور إلى الحضيض فى عهد آخرهم، فيكتور لوريه. ويذكر أن لوريه بلغت به السلبية واللامبالاة شأوا بعيدا، وكان كما يقول بيترى إذا نبهه أحد إلى احدى حالات السطو والتلاعب فى الآثار ولو كانت واضحة، لا يزيد على أن يصيح «هذا مستحيل هناك قانون».

فى هذه الأثناء تجدد عقد ماسبيرو بشروط جيدة وراتب مجز بلغ ١٥٠٠ جنيها فى السنة خلاف البدلات. وصرح ماسبيرو لبيترى بالحفر فى أبيدوس ومعالجة الفوضى الضاربة هناك.

وتمكن بيترى عند بدد العمل هناك من كشف مقابر أربعة ملوك من فراعنة الأسرة الأولى الثمانية، ومقبرة إحدى الملكات.

وهؤلاء جميعا تمكن من تمييزهم وتحديد أسماءهم وشخصياتهم. وبالإضافة إلى ذلك كشف بيترى عن أكثر من ثلاثة آلاف مقبرة من مقابر الخدم والحاشية. واستغرق العمل فى هذه الكشوف من ٢٢ من يونيو سنة ١٨٩٩ إلى مارس سنة ١٩٠٠.

ونالت كشوفه فى أبيدوس ما تستحقه من أهمية لأنه قام بتسجيلها ونشرها. وفى ٢٢ من يونيه من نفس السنة (١٩٠٠) انتهى بيترى من فهرسة التواريخ وكان للفهارس وقعا عظيما لأن نشرها واكب عرض مكتشفاته فى لندن.

كذلك شعور جماهيرى جيد، فبدلا من الإهتمام بأدوات الزينة والآثار المهربة، تجمهر الزوار حول المناضد يشاهدون بافتتان المعروض عليها من كسرات وشقفات الأسرة الأولى حتى أن بعض العمال أمضوا استراحة ساعة الغذاء فى غرفة العرض.

لم ينقطع النزاع بين بيترى ولصوص الآثار والتجار فى الجزء الأول من المدة الطويلة التى قضاها بيترى فى الاستكشاف. ورغم أن أبيدوس لم تكن المكان الذى يسهل فيه ممارسة السلب والنهب، إلا أن الأمر لم يسلم من تعرض بيترى لممارسات من هذا النوع. وفى إحدى المرات كان بيترى يعاين اثنى عشر مبناً ملحقا بالمعبد الكبير، أثناء ترميمها. وأثناء تجوله للإطمئنان على جودة التشطيبات وألوان الأخاديد، تسلل لص إلى حديقة بيته محاولا سرقة تمثال ثقيل وزنه مائة رطل والهروب به.

لكن قدميه لم تسعفاه فوقع على الأرض وأمكن اعتقاله. لكن اللص أطلق سراحه لأنه قدم رشوة لرجال الشرطة. وفى مرة أخرى اقترب رجل من الكوخ

وأطلق غدارته عشوائيا فكادت تصيب الرصاصة السيدة بيترى، ولكن الله سلم وطاشت الرصاصة .

عندما أعيد اكتشاف مقبرة فى لاهون سبق أن تعرضت للنهب، اتخذت احتياطات أمنية مكثفة. ووجد بيترى التابوت الحجرى فى المقبرة فارغاً، فلم يتوقع أن يعثر على شيء ذى بال. ووجد بجوار التابوت اختاما اسطوانية ذهبية دقيقة الصنع، فصرف العمال فورا ولم يستبق منهم سوى واحداً مع تلميذة «برانتون» لإحساسه أنه بصدد الكشف عن خبيئة ثمينة. شرع بيترى وبرانتون فى جمع القطع الذهبية.

وكان برانتون يلازم المقبرة صباح مساء لتخليص الكنز فى المقبرة وتنظيف الأختام متحاشيا إتلافها، ثم تصويرها وتغليفها أولا بأول.

رغم ذلك كان بيترى يخشى تعرض الكنز للسرقة فحذر كل العاملين معه وأمرهم بالكتمان وعدم الحديث أو الكتابة عن الكنز الذهبى المكتشف.

وثبت أن المجموعة تنتمى إلى الأسرة الثانية عشرة. هذا الكنز اشتراه متحف المتروبوليتان بنيويورك بعد مفاوضات طويلة لم تنجح فى بيعه للمتحف البريطانى.

كان نشاط بيترى وسرعته فى الإنجاز مثار دهشة الباحثين بعده. وكان من عادته قضاء الشتاء بطوله فى مصر منهمكا فى الاستكشاف الأثرى، ثم يعود لولده حيث يقضى الربيع والصيف ليكتب عن كشوفه ويقيم المعارض. وكان بيترى يتميز بغزارة الإنتاج، فيصدر كل سنة كتابا على الأقل، بالإضافة إلى محاضراته الجامعية والعامة.

وكان ينظم ويحضر حلقات البحث فى مقر عمله بجامعة لندن. وفى حياته الكشفية التى استغرقت اثنتين وأربعين سنة زادت كشوف بيترى عن كشوف

مرييت نفسه. وقد حقق من النتائج أكثر مما حقق سابقوه أو ألحقوه. ويمثل اكتشاف مدينتا نقراطيس وكاهون عن نقوش العمارنة ومقابر أبيدوس والأختام الذهبية بها جانبا يسيرا من إنجازاته.

ويمكن اعتبار بيترى باعث حضارة مصر العتيقة بعد أن كانت راقدة فى نقادة، وفى ديوسبوليس. وبيترى هو الذى عثر على لوحة مرنبتاح. أول أثر مصرى يشير إلى الإسرائيليون، حتى أن أحد زملائه علق على الكشف بقوله «فليهنا الكمجليون «أى الحاخامات».

والخلاصة أن بيترى كان من المبتكرين فى فنه، وسابقا لعصره، ورغم ذلك كان يجد نفسه مضطرا لبيع الآثار التى يجمعها إلى متاحف أوروبا ليمول استكشافاته. مع كل هذه المزايا كان بيترى ضيق الصدر حاد الطبع لا يعبأ بشخص ومركز من يجادله، لدرجة أن الكاتب الموهوب «جيمس بيكى» الذى له مؤلفات كثيرة عن مصر القديمة لم يسلم من حدة لسانه، فقال يسخر منه«إنه رجل أنيس (يقصد محبا للثرثرة).. يجادل كل من هب ودب بلكنة يونانية ويغنى الأغانى الاستكلندية بطريقة منفردة».

ولما كان بيترى لم يتلق تعليما نظاميا فإنه لم يهتم أويعبأ بالإطلاع على مؤلفات معاصريه مهما كانت قيمته. كذلك كان من طبعه الإصرار على أن الحق دائما معه. ولاشك أن هذا شىء غير مستساغ ولا مرغوب فيه فى مجال علم الآثار.

لم تقتصر إنجازات بيترى علي تأسيس مدرسة إنجليزية فى المصريات، ولا على إدخال أساليب جديدة لها احترامها في الحفر والتنقيب إلى مصر، بل زاد على ذلك أنه درب بنفسه جيلا كاملا من الأثريين الذين تتلمذوا عليه فى الهيروغليفية وتلقوا عنه أساليبه فى الحفر والبحث عن الآثار.

ومن تلاميذه من أدخل بعض التحسينات على هذه الأساليب. كان «هوارد كارتر» ممن عملوا معه، كما عمل معه آرثر جاردنب فى نقراطيس قبل انتقاله إلى أثينا ليدير مدرسة الآثار بها. وهناك عاون أستاذه فى الكشف عن واردات ميسينا من السلع المصرية. ويجدر بنا أن نذكر أن السير «آلان جاردنر» من ألمع علماء المصريات فى العصر الحالى، وكان متحمسا لبيترى وقضى عمره فى دراسة الهيراطيقية ونصوصها. ويعتبر كتابه قواعد اللغة المصرية «الصادر سنة ١٩٢٧ مرجعا أساسيا للطلبة فى دراة اللغة المصرية القديمة.

ومن تلاميذه النوابغ «جى برانتون» الذى دخل دائرة الضوء بكشفه عن كنز اللاهون، ثم أصبح واحداً من أشهر الأثريين لاكتشافه بعض مقابر وقرى عصر ما قبل الأسرات.

أما تلميذته العظيمة» جرترود كاتوين طومسون» فكان لها السهم الوافر فى اكتشاف أقدم المزارع المصرية فى منخفض الفيوم فى عشرينات القرن العشرين، قبل أن تتوجه للواحات الخارجة بحثا عن حضارة صيادى العصر الحجرى القديم. هذه الباقة من التلاميذ النوابغ ما أحراها بالتنويه.

خلاصة

انقضى أكثر من مائة وخمسين عاماً منذ نفض بلزونى عن قدميه غبار الاسكندرية لآخر مرة، لكنه لو قدرت له العودة لوقعت عيناه على كثير من المناظر المألوفة له .

فالأهرام مازالت شامخة فى مكانها كالقلاع، وأبو الهول مازال رابضا فى مكانه يحوم حوله السياح الفضوليون، والشمس مازالت تشرق وتغمر الصحراء الشاسعة بنورها، وتنتشر على الأراضى الزراعية الخضراء على ضفتى النيل،

ومازالت حرارة وسط النهار الحارقة تطوق هواء المعابد الكثيف أو المقابر الملكية كما كان الحال منذ قرون، ومازالت السفن ذات الأشرعة البيضاء تمخر عباب النهر فى المسار نفسه الذى كانت تسير فيه الزوارق والقوارب التى استخدمها بزلونى وهو يحقق اكتشافاته العظيمة.

فهناك نوع من الخلود فى وادى النيل لا ينال منه مر السنين والأحقاب ، ومن يزور مصر يستنشق ماكان يستنشقه المصريون القدماء أنفسهم من غبار ساخن ومن رائحة عشبية، ومن روائح النيل المنساب إلى الشمال، وكل سنة فى دقة الساعة يأتى الفيضان ليجلب الخصب ويرعى الزراعة التى لم تتبدل طرقها كثيراً من أيام الفراعنة (هذا رأى المؤلف ويبدو أنه غير مطلع على النهضة الزراعية فى مصر وطرق الزراعة الحديثة المتبعة الآن. المترجم)، هنا يحس المرء بحالة من التوازن الحق والصدق كما كان القدماء المصريون يحترمونه (أى القانون) ليتلاءموا مع بيئتهم المستقرة (التى لا تتغير).

كان حضور بلزونى إلى وادى النيل مواكبا للوقت الذى ظهرت فيه للدنيا للمرة الأولى أمجاد حضارة مصر القديمة، وكان ما جمعه علماء بعثة نابليون (وعرضوه فى أوروبا) قد بعث الحرارة فى علماء أوروبا، وتسبب فى تهافت المثقفين على التحف المصرية فى العواصم الأوروبية.

وكان المتحف البريطانى قد تسلم لتوه حجر رشيد، كما كان اللوفر قد فرغ بالكاد من فك العبوات المحتوية على الآثار التى جلبوها من مصر، وامتلأت نفوس الناس بالرغبة الجارفة فى حيازة كل جميل غريب، فعملت المتاحف القومية على اقتناء كل ما هو فريد من نتاج المقتنيات الغريبة.

وكان من الأولويات فى قوائم الشراء لأمناء المتاحف. التحف والآثار المصرية، ومن ثم بدأ التهافت على نتاج المدنية المصرية القديمة، وبدأت حملة

شرسة هدفها نهب آثار مصر تحت دعوى الظروف الدبلوماسية أو البحث الثقافى من قبل أناس فارغين (المقصود أغنياء منعمين لكن غير مؤهلين. المترجم).

وتفاقم الوضع حتى أدى إلى التخريب، والطمع والكسب غير المشروع، وقد بدأ علم الآثار سواء فى مصر أم فى غيرها من الأمم بسلب الكنوز الأثرية، وبالتدريج تحول إلى نظام عام مسلح بالطرق والتقنيات التى عرفت فى الزمن المعاصر(القرن العشرين) وأصبحت متبعة فى تنفيذ العمل الميدانى فى مواقع الآثار.

لكن عندما بدأ تطبيق هذه التقنيات الحديثة كان الكثير من تراث مصر القديمة قد فقد إلى الأبد، إما على أيدى صائدى الكنوز، أو جامعى الآثار معدومى الضمير، أو السياح الفضوليين.

لم يكن رجال حملة نابليون فى تكالبهم على جمع الآثار المصرية يشذون عن القاعدة الإنسانية فى حب التملك. وكان الأثريون القدامى- دائما يسيطر عليهم حب البحث عن الآثار ونهبها، أو على الأقل نقلها إلى مكان آخر حيث يمكنهم ملاطفتها وتأملها فى هدوء بعيدا عن جوها المحلى (واضح أن كل هذا الكلام المعقد معناه استسهال زيارتها فى أى وقت).

وسرعان ما تدخلت عناصر القومية والطمع الأجوف من جانب الدبلوماسيين والحكام الإلمام بمصر القديمة والتعرف على حضارتها المبهرة، وليس هناك شك فى حقيقة أن مصر كانت أعظم ممثل للحضارات القديمة، كان مجتمعها قوياً متماسكا قمع الإسرائيليين، وعانى من الأوبئة الفتاكة (الطاعون). فصمد للمحن حتى احتل مكاناً مرموقا فى التاريخ، ولكن ما يدعو إلى الأسف أن المعرفة عادة ما تقترن بحب التملك والتربح فى ذهن كثير من الناس.

ليس اسهل أن نوجه اليوم اللوم إلى أمين متحف أو جامع آثار فى عهد ولى منذ مائة وخمسين عاما، على مبادئ السلوكيات التى كانت تحركهم، لقد كانوا حيثما تولوا لايرون إلا معابد تحطم وتماثيل تكسر ومقابر تنهب بحثاً عن الجواهر(الكنوز).

لم يكن الأمان متوفراً فى مصر، لكن إذا وقعت بردية فى يد المتحف البريطانى فسوف تفض وتفرد بعناية وتنجو من التلف تحت رعاية أعظم متاحف العالم، وعلى رأى «زواليس بادج» فإن أى مومياء تعرض فى المتحف البريطانى ستكون فى وضع أفضل كثيرا، من نظيرتها فى مقابر طيبة المعرضة للنهب.

فمثلا لا يجرؤ أحد على انتهاك أى مومياء بالمتحف البريطانى أو تحطيمها، كانت التكتيكات الشرسة التى تجرى فى تجارة الآثار عن طريق القطاع الخاص، مع القيام بالحفائر الأثرية سرا تحت حماية السلطة (الظاهر أن السلطة المقصودة السلطة الدبلوماسية) كان مما يمكن التغاضى عنه فى مقابل عدم وجود أى وسيلة أخرى (فى ذلك الوقت) لإنقاذ تراث مصر القديمة من الضياع.

وقد أثار كثير من الناس السؤال الآتى: «ماحاجة المصريين لماضيهم ؟» ثم إن حكومة الباشا كانت لا تكف عن تحطيم الآثار وإهدائها (للأجانب) طول الوقت، فإذا انتقلنا إلى الفلاحين لوجدناهم لا يرعون حرمة للمقابر والمعابد القديمة ولا يشعرون بالانتماء إلى مصر القديمة. كل ما يهمهم كان ثمن الجثث (المحنطة)، لم يكن فى مصر احساس قومى مثل ذلك الذى ثار فى اليونان عندما استولى اللورد «الجين» على الأفاريز المرمرية من بوابة البارثينون (موجودة بإسمه فى المتحف البريطانى الآن)، وآمن معظم مندوبى المتاحف والسياح منذ قرن ونصف أن المصريين القدماء أنفسهم استباحوا محتويات المقابر الملكية.

لقد انتهكوا أكثر الأماكن قدسية والمقابر الملكية جريا وراء الذهب والثراء الذى يمكنهم من الحياة حياة ناجحة ومقابلة تكاليف الحياة اليومية، وهذه الخطيئة التى بدأها الأسلاف ورثها الأخلاف، وكان جامعو الآثار فى القرن التاسع عشر ينظرون إليها بازدراء، وإنها حقا لعجزة أن يكون قد بقى شىء حتى الآن نتمتع به (من ذلك التراث).

أمكن لرواد الكشف الأثرى مثل بلزونى وبادج أن يستنقذوا كثيرا من النتاج الرائع للعصور الفرعونية، رغم أنه لا يمكن التغاضى عن أساليبهما البدائية العنيفة فى الحفر، وعلى سبيل المثال لا الحصر أمكن استنقاذ بردية آنى وكتاب الموتى والمخطوطات القبطية.

وهى موزعة بين المتحف البريطانى واللوفر. هذا بالإضافة إلى عدد من التماثيل والمسلات والكنوز الأثرية الجميلة، وهؤلاء الرواد رغم عيوبهم وأخطائهم كان لهم الفضل فى جذب أنظار العالم إلى مصر، وإلى الاهتمام بآثارها، والإيمان بضرورة صيانتها وحفظها للأجيال القادمة ولولا جهودهم لفقدت واختفت من الوجود[1].

والذى يدرس تاريخ المصريات سوف تقابله أسماء عمالقة، نخص بالذكر منهم شمبليون وويلكنسون اللذان فتحا الباب للدارسين بالتغلب على مشكلة قراءة الهيروغليفية، وهناك مرييت -أيضاً- الذى بدأ حفائره فى مصر ممثلا لمتحف اللوفر.

وما لبث أن أصبح كبير الدعاة للمحافظة على الآثار وصيانتها من أجل

---

(١) قلت : أرى أن تطالب مصر بهذه الآثار بعد أن عرفنا قيمتها وصرنا نحافظ عليها فهى تاريخنا ، ونحن أحق بها مع نشر المزيد من الوعى بقيمة آثارنا ، وأن يدرس بالمدارس والجامعات مادة الوعى الأثرى والسياحى ضمن مادة التربية الوطنية ، وأن يدرس أيضا باب عن أهمية المحافظة على الممتلكات العامة الحديث منها والقديم ، وأن تنشر هذه المادة فى أجهزة الإعلام خاصة التليفاز .

العلم والسياحة الرشيدة، وأخيرا وليس آخراً لا يجب أن ننسى بيترى أول من أدخل التقنيات الحديثة فى الحفر والتنقيب عن الآثار.

وأدت دعوة شمبليون العقبرى، ومرييت صاحب الحماس والحيوية إلى تأسيس متحف للآثار يحميها من النهب والتخريب، وأصبحت مصر أول دولة فى الشرق الأدنى تقوم بتأسيس المتاحف القومية لحفظ الآثار، ولا يقلل من شأنها أنها بدأت متواضعة فى أحد الحدائق الخلفية فى القاهرة ، ولا تأثرها فى عملها بالضغوط السياسية أحياناً، فقد كف الدبلوماسيون بالتدريج عن إقحام أنفسهم فى مجال الآثار وعادوا للإهتمام بأعمالهم الدبلوماسية الأصلية.

كذلك أصبح السياح أكثر اهتماما بزيارة الأماكن الأثرية والاستمتاع بالتراث وأبعدوا أنفسهم عن الانغماس فى سلب الآثار أو تخريبها، كذلك أصبحت مصر نفسها بلداً مهماً فى ذاتها وأصبحت قبلة للسياح الذين أصبحوا يزورون معالمها الأثرية كالأهرام والمعابد كجزء من البرنامج السياحى للزيارة

يمكن القول إن السياح والمثقفين - إلى حد ما - كان لهم دور فى إنقاذ آثار مصر، وظهر أول قانون لحماية الآثار فى مصر سنة ١٨٣٥، وكانت فعاليته محدودة لعدم توافر وسائل تنفيذه،، وكان عرض آثار مصر المنهوبة فى أوروبا المنبه الذى أيقظ الرأى العام العالمى لضرورة وضع حد لنزيف آثار مصر لأنها ملك للإنسانية جمعاء.

وأدركت الجماهير أن عنف مرييت فى رفض طلب أوجينى إمبراطورة فرنسا للحصول على مجوهرات أثرية تخص متحف بولاق، كان له ما يبرره، ومن جهة أخرى كانت السياحة قد تطورت إلى نشاط، وتجارة ونشطت حركتها، لذلك تساءل المهتمون بالسياحة كيف يمكن أن تزدهر الحركة السياحية إلى مصر أن خلت من المعابد والمقابر القديمة ومن متاحف الآثار؟ وماذا يفعل السياح وماذا يزورون؟

كان المنطق المدروس والبيروقراطية البريطانية الفعالة فى مصر- فى ذلك الوقت- وراء ظهور اتجاه يرمى لتغيير بعض عادات الجمهور المصرى ، وكانت سياحة أميليا إدواردز فى مصر قد تمت خلال مدة طويلة تميزت فيها الحالة السياسيةبالاستقرار.

وكانت مصلحة الآثار قد أخذت فى تشديد الحراسة على الآثار وتعيين المفتشين والوكلاء النابهين لحماية الآثار من النهب والتخريب، والاستيلاء عليها بطرق غير قانونية.

وبالطبع لم يسلم الأمر من وجود حالات صارخة من العبث والنهب المشبوه للمقابر الأثرية، ارتبط بعضها بأسماء متاحف أوروبية محترمة، لكنة الاتجاه الجماهيرى والأخلاقيات الأثرية كانت قد تحولت لصالح المحافظة على الآثار واتباع الطرق العلمية فى الكشوف الأثرية.

وحتى أولئك الذين استهواهم تلطيخ الآثار بكتابة أسمائهم (أو تعليقاتهم) عليها أصبحوا يواجهون بالشجب والاستهجان لهذه الخطيئة الشنعاء، وصارت عملية نزع الآثار من مصر أكثر صعوبة، وأصبح هناك تأييد لدعم متحف الآثار بالقاهرة ليكون على رأس المتاحف التى يحتفظ فيها بالتراث المصرى القديم على مستوى العالم، وسرعان ما سوف تتكون هيئته من المصريين بالكامل.

أدت غطرسة الامبراطورية البريطانية وتعاليها إلى تنامى الشعور بالوطنية فى مصر، وحلت فى النفوس رغبة مكبوتة في التخلص من النفوذ الإمبريالى البريطانى، وصاحب ذلك تزايد الإحساس الوطنى بالتواصل التاريخى مع الماضى.

وانعكست هذه الوطنية على الأحداث التاريخية التى يعرفها الجميع، لكنها انعكست -أيضا- على رفض «الامبريالية الثقافية» التى ترمى إلى نقل خير ما

فى مصر من تراث الماضى إلى بيئات أجنبية، وقد ألهب توت عنخ آمون سنة ١٩٢٢ (المقصود كشف مقبرته) الشعور ضد الحفر والتنقيب عن الآثار المصرية بواسطة الأجانب على الرغم من تخلى عائلة اللورد كرنرفون عن محتويات مقبرته للمتحف المصرى .

وفى عشرينيات القرن العشرين بدأت تقل بالتدريج فرص الكشف الأثرى أمام الأجانب، وفى الوقت نفسه بدأت الخلافات بين المتحف المصرى والمتاحف الأجنبية تزداد حدة لرفض المتحف السماح بنقل الآثار للخارج.

لكن الخلافات خفت حدتها بعد مدة ورأت مصر فى المصلحة أن تستأنف السماح للأثريين الأجانب بمعاودة الاستكشافات الأثرية، وهذه المرة كان السماح مشروطا فى ظل ظروف جديدة وتحت السيطرة المصرية.

تغيرت فى وقتنا الحالى الأجواء الفكرية بالنسبة للآثار بحيث أصبحت عاملا فى زيادة الانتماء القومى وأصبح الناس أكثر إدراكا لأهمية الآثار والوعى بإدراك بما يمكن أن يؤدى إليه التنظيم فى مجال الدراسة الصحيحة للجنس البشرى، ويوجد تراث مصر القديم- الآن- مبعثرا فى كثير من الدول.

وتتراكم التوابيت والتماثيل المصرية القديمة فى مخازن المتاحف وأروقتها وقد علتها الأتربة، وكانت هذه الآثار أصلا من مقتنيات هواة جمع الآثار، تنازلوا عنها بعد ذلك للمتاحف، وجاءت نتيجة تكثيف الحفائر فى مواسم قصيرة يقومون (هواة الآثار) بتمويله. وكان اهتمامهم بالكم -دائما- فوق اهتمامهم بالكيف، وحل محل هذا العبث الذى استمر خمسين عاما موجة من الإتجار فى الآثار بطرق غير قانونية يحكمها مبدأ العرض والطلب لاستيفاء رغبات المتاحف والعملاء الأثرياء، هذه الظاهرة سجلها الصحفى المعروف «كارل ماير» فى كتابه «الماضى المنهوب، واستهجنها، وأدان هذا العمل الذى تمتد جذوره إلى بلزونى ومن يشاكلونه.

والكتاب يشبه عريضة دعوى ضد التخريب الذى ينال آثار مصر فى القرن العشرين، ويصف «ماير» الوعى الجماهيرى بخطورة المشكلة بأنه مفقود «فى درجة الصفر» ويقول إن ذلك سببه سهولة تفهم أهمية الآثار للبشرية من الوجهة النظرية، وصعوبة تكوين وعى أثرى لأن المشكلة نادرا ما تثار فى الصحف، ويخلص المؤلف إلى أنه من الصعب إقناع دافعى الضرائب بجدوى الصرف على تمويل الكشوف الأثرية على حساب أولوياته الأخرى.

حدت الحكومة المصرية من السماح بالتنقيب عن الآثار، متبعة فى هذا الصدد سياسة قومية، لكنها كانت تصرح أحيانا ببيع الآثار المكررة التى لها نظائر بمتاحفها ولا تألوا جدها فى الاتصال بالمؤسسات الخارجية لصيانة ما لديها من تراث مصر الفرعونية والمحافظة عليه.

ورغم ذلك لم يتوقف السطو على المقابر ولا التخريب فى معبد دندرة، ومازال اللصوص يبحثون عن البرديات ، ومازالت تجارة الآثارة بصورة غير قانونية موجودة، وهذا كله ممكن فهمه، فدأب المتلاعبين -دائما- الخروج على القانون سواء فى الآثار أم فى غيرها، لكن ما لا يدرك كله لا يترك كله ... والمهم أن قطاع الآثار -حاليا- تحت السيطرة الحكومية.

لتشجيع السياحة والحفاظ على الماضى، توجه المصريون بنداءاتهم إلى العالم كله لأن التراث ملك للبشرية جمعاء، وعند بناء السد العالى تم الاتصال بالهيئات الدولية وجرت محاولة تحت إشراف اليونسكو لإنقاذ معبدى أبى سنبل وآثار النوبة من الغرق خلف السد تحت بحيرة ناصر.

وقام مئات من الأثريين بتمشيط المنطقة التى سوف يغرقها السد وهى آلاف من الأميال المربعة، وأفلح النداء الذى وجه للعالم فى زيادة الاعتمادات، لنقل تماثيل معبد رمسيس الثانى إلى موقع جديد عال مرتفع عن مستوى ماء

بحيرة ناصر وقد تولى التنفيذ هيئات دولية استعانت بالمقاولين والأثرين وجاءت النتيجة باهرة تماماً.

والآن، مازالت الشمس تشرق على باب المعبد الأصلى كما كانت أيام بزلونى وصحبه، وإن كان المكان غير المكان، والكاشف وقراه قد اختفت إلى الأبد، وقد كوفئ المشرفون على النقل بالسماح لهم بالاحتفاظ ببعض الآثار الصغيرة التى وجدوها، ومما يقلل من حدة المشكلة أن المواقع الأثرية التى لم يمكن انتشالها سجل معظمها بدقة قبل أن يندثر إلى الأبد.

بعد ذلك نفذت منظمة اليونسكو مشروعا طموحاً، هو إنقاذ معبد إيزيس بفيلة بنقله من موقعه الأصلى الذى كان يتعرض للغرق سنويا. منذ إنشاء سد أسوان القديم، وقد أمكن للمهندسين بناء صورة طبق الأصل من الجزيرة الأصلية نقلوا إليها محتوياتها قطعة قطعة إلى مكانها نفسه (الملخص أن جزيرة فيلة بما عليها قد استنسخت بكاملها)، والآن ليس هناك من يعرف عن فيله الأصلية أى شىء، أما العالم فأسعده هذه النسخة منها حيث حافظت على التحفة المعمارية الرائعة (المعبد) سليمة.

لكن مشروع السد العالى له سلبياته، فقبل ذلك كان ماء الفيضان يغسل التربة ويمدها بالخصب، ولكن بعد السد ازدادت ملوحة التربة، وظهر تأثيرها على المحاصيل وعلى المعابد أيضا، وهناك جهود تبذل من عدة مؤسسات نخص بالذكر منها مؤسسة جيتى ومعهد الدراسات الشرقية التابعة لجامعة شيكاغو (أسسها جيمس بريستيد) هذه الجهود هدفها تسجيل النقوش وترميم المعابد، للحفاظ على ما يمكن إنقاذه قبل فوات الأوان، وهذا للأسف سباق ضد الزمن وليس فقط ضد لصوص الآثار، فتغير المقننات المائية لها تأثيرها على المدى القصير والطويل. حيث تزيد الملوحة فتؤدى إلى تدهور حالة الآثار، هذا بالإضافة إلى كثافة السياحة إلى هذه الأماكن وما تنطوى عليه من سلبيات.

أثرت طائرات الجامبو على النسيج السياحى المصرى وأدت إلى تغيير جذرى فى النمط السياحى، فقد كان السياح حتى ستينيات القرن الحالى (العشرين) يستعملون وسائل بطيئة نوعا كالسفن والطائرات المروحية وطريق قناة السويس، فمنهم من كان يمضى أياماً قليلة فى السياحة، ومنهم من كان يقضى الشتاء كله فى مصر، لكن النمط الذى أصبح سائداً -الآن- هو السياحة الكثيفة السريعة.

لذلك صار ضغط الزوار ثقيلا على الأقصر والكرنك ودندرة ووادى الملوك، وهذا وضع مرهق بالنسبة لموظفى الآثار، ومن سلبيات الزيارات الكثيفة أنها بدأت تتسب فى ظهور تلفيات فى المعابد والمقابر، من ذلك أن ألوان نقوش مقبرة سيتى أخذت تبهت، فأغلقت فى وجه الزائرين لترميمها.

والمفروض للمحافظة على الآثار أن تغلق إلى الأبد عشرات من المواقع الأثرية مثل وادى الملوك ولا يسمح للجمهور بارتيادها، ولكن ذلك سوف يكون له تأثير سلبى على الحركة السياحية، وهكذا يجد المشرفون على قطاع الآثار أنفسهم بين نارين- نار المحافظة على التراث ونار تشجيع السياحة وتنمية الاقتصاد، ووسط هذه الحيرة يقف المسئولون عن الآثار وأيديهم على قلوبهم حائرين خوفاً على تراث مصر الخالد.

يشاع أن المصريين القدماء لديهم قوة سحرية تسرى فى كل مكان فيما يعرف بسحر الفراعنة، لذلك افتتن الناس عندما سمحت مصر فى سبعينات القرن العشرين بعمل معرض متجول لمجموعة قيمة من آثار توت عنخ آمون، وكانت صنوف الزائرين تتكدس خارج أماكن العرض مثل المتحف البريطانى والمتحف الإقليمى بلوس أنجلوس ومتحف الفنون بسياتل (الأخيران أمريكيان)، فاضطرت المعارض لعمل سياجات تنظم مرور الزائرين وتقلل من زمن الزيارة بقدر الإمكان.

وفى هذه المناسبة دعى المئات من الأثريين الذين لديهم علم بالكشف عن هذه الكنوز لإلقاء محاضرات عامة عنها، وكان إقبال الجمهور على هذه المحاضرات كثيفا، إذ قدر عدد من حضرها فى شهر واحد بنحو ثمانية عشر ألف شخص

لذلك أطلق على هذه الظاهرة الاجتماعية الفريدة توتمانيا ، بعد ذلك ببضع سنوات أقيم معرض محدود لرمسيس الثانى شهد هو الآخر إقبالا منقطع النظير، وسحر الفراعنة اصطلاح غامض لم يفسره أحدا تفسيراً مقنعاً حتى الآن، أهذا مثلا ما يشاع من أن هناك ما يسمى «قوة الأهرام» أى يعتقد البعض أن هذه الصروح الجبارة قادرة على الوصول بالمشاهد إلى قمة السكون النفسى (حالة النرفنا)؟

أم هذا تأثير المومياء ولفائفها الكثيفة (أى تأثير كيماوى)؟ أم هذا تأثير الذهب الكثيف الذى يغطى توت عنخ آمون نفسه؟ أم هذا مجموع الحضارة المصرية نفسها تلك الحضارة الغريبة عن الأوروبيين، والتى ولدت لديهم الاعتقاد بأنها تفسر الحياة نفسها، أيا كان السبب فى تفسير هذا السحر فإن افتتان الناس بالآثار المصرية والتكالب على اقتنائها أحد العوامل التى تسهم فى تخريب المتبقى من آثار هذه المدنية الفذة بين المدنيات القديمة.

لم يخف على متاحف العالم أمر افتتان الناس بمصر وآثارها، والجمهور بطبيعته متقلب المزاج ولابد من العمل على اجتذابه والتنافس عليه مع وسائل الترفيه الأخرى.

ومصر القديمة تعتبر ورقة رابحة فى أيدى المعارض، فعندما أهدت مصر للولايات المتحدة معبد دندور تقديرا لجهودها فى إنقاذ آثار النوبة تنافست عليه ثلاثة متاحف للفنون هى : متحف المتربوليتان (الشهير فى نيويورك) ومؤسسة سميث سونيان وأخيرا أسرة كيندى.

وكانت تنوى إقامته بجوار شواطئ البوتوماك الرطبة الباردة بجوار مجمع كيندى، ثم استقر أخيرا فى متحف الميتروبوليتان، وفى الوقت الذى فاز فيه هذا المتحف بالمعبد كان قد فرغ لتوه من بيع آثار مصرية خفيفة : مومياوات وجعلان وخرز وفخار من نتاج حفائر سابقة.

وهذا التصرف بالبيع رغم مشروعيته أسخط المصريين لأن فيه إهدار لماضيهم، فهل كان واليس بادج محقا فى قوله إن المومياوات فى المتحف البريطانى «فى الحفظ والصون»؟ حتى الآن يعتبر قوله صحيحا، ولكن لا ندرى ما الذى سيحدث مستقبلا فى دنيا لم يبق فيها من التراث الفرعونى سوى القليل للدراسة أو للتمتع به.

فى الوقت الحالى كاد الطلب على شراء الآثار المصرية ينعدم، لأن أسعارها قد ارتفعت بصورة خيالية، ثم كيف لنا أن نتصور أن يزدهر سوق الآثار إذا اعتنق الناس أفكارا مثل أفكار أندريه إمريش الذى وقف ليعلن على الملأ أن «الولايات المتحدة -دون غيرها- هى التى لها حق الوصاية على الفنون البشرية كلها «حقا إننا نعيش فى زمن العلم والاستنارة إلا فى عالم الآثار.

وإذا استمر الحال فربما يفقد الناس اهتمامهم بها فتنعزل مصر القديمة وينالها النسيان. ولكن هيا بنا نشارك شمبليون فى قوله : مصر هى مصر - دائما وفى كل مراحل تاريخها، دائما عظيمة، ودائما جبارة: فى فنونها وقدرتها على التنوير، وفى كل العصور تتلألأ مصر ... وبنفس العبقرية. أما نحن فينقصنا شىء واحد لنشبع غزيرة حب الاستطلاع فينا، ذلك الشىء هو معرفة منشأ المدنية نفسها وتطورها».

الحياة الفرعونية

المساكن

١- المدن :

تحولت مدن الفراعنة إلى تلال من الأتربة تختلط بها بقايا من الفخار وأطلال ضئيلة، ولا عجب فى ذلك إذ كانت المدن والقصور تشيد بالطوب اللبن. ومع كل، فقد كان بعضها أحسن حالا مما هى عليه الآن وقت أن كان العلماء ، الذين أحضرهم بونابرت معه، يقومون بحصرها .

وقد هدم الكثير منها فى الزمن الحاضر بالإضافة إلى ما تهدم منها فى الماضى بوساطة الأهالى الذين لم يعودوا يقنعوا بأخذ السباخ من الخرائب وانتزاع الأحجار الكبيرة منها بل اعتادوا أيضا تلك العادة المؤسفة فى البحث عن الآثار.

ولا يوجد غير مدينتين يمكن أن نتحدث عنهما بشىء من الإطمئنان فهما مدينتان عمرهما قصير، يرجع الفضل فى إنشائهما إلى أوامر صادرة من السلطة الملكية، وقد هجرتا أيضا بغتة بعد حياة قصيرة، أقدمهما هى مدينة حتب سنوسرت التى أنشأها فى الفيوم الملك سنوسرت الثانى وبقيت عامرة لمدة تقل عن قرن من الزمن .

والمدينة الثانية هى أخيتاتون وقد اتخذها أمنحتب الرابع عاصمة لملكه بعد نزاع مع كهنة آمون. وقد بقى خلفاؤه مقيمين بها حتى اليوم الذي نقل فيه توت عنخ آمون بلاطه إلى طيبة وقد يكون من المفيد أن نشير إليهما باختصار قبل أن نتناول بالوصف مدن الرعامسة، كانت المدينة التى أنشأها سنوسرت محاطة بسور طوله أربعمائة متر وعرضه ثلثمائة وخمسون متراً وكانت تكفى لإيواء عدد كبير من الأهالى فى مساحة ضيقة.

وكان المعبد مشيداً خارج الأسوار، وأقيم جدار سميك يقسم المدينة إلى منطقتين خصصت إحداهما للأغنياء والأخرى للفقراء : ويشق المنطقة الأخيرة طريق عرضه تسعة أمتار يتقاطع بزوايا قائمة مع شوارع أقل منه اتساعاً. كانت المنازل متقاربة وظهورها متلاصقة بحيث تطل واجهاتها على الشارع، أما الغرف والدهاليز فكانت ضيقة إلى حد كبير. أما الحى الذى تعيش فيه طبقة الأغنياء فكانت تخترقه شوارع فسيحة تؤدى إلى القصر وإلى مساكن كبار الموظفين. وكانت مساحتها تعادل نحو خمسين مرة مساحة المساكن المخصصة للطبقةالشعبية.

وكانت المساكن والشوارع تشغل كل الميدان. وكان المصريون يحبون دائما الحدائق. ويروى لنا حور خوف -هذا المكتشف الذى أحضر من النوبة قزما راقصا هدية لمولاه فرعون الصغير- أنه بنى منزلا وحفر حوضا وزرع أشجاراً ... وقد سجلت سيدة عاشت فى عهد سنوسرت، على لوحة حجرية، أنها أحبت الأشجار كثيراً وكذلك غرس رمسيس الثالث الأشجار فى أمكنة متفرقة. ولكن لم يغرس منها شيئا فى هذه المدينة، سواء أكانت أشجارا للزينة أم للنزهة.

أما عاصمة أخناتون فكانت مدينة مترفة تقع بين النيل والجبل فى مكان نصف دائرى. ويخترق المدينة من أقصاها إلى أدناها طريق يوازى النيل ويتقاطع مع الشوارع الأخرى التى تؤدى إلى شاطئ النهر وإلى جبانة المدينة ومحاجر الرخام.

أما قصر فرعون والمعبد والمبانى الحكومية والمحلات التجارية فتشغل الحى الرئيسى بالمدينة. وتقع فى الشوارع منازل ضيقة، تجاور منازل عظيمة وزعها رجال الآثار على أعضاء الأسرة الملكية.

وقد خصصت مساحات فسيحة لزراعة الأشجار والحدائق، سواء داخل المنازل أو فى أراضى المدينة. أما عمال الجبانة والمحاجر فقد عزلت مساكنهم داخل قرية أحيطت بأسوار. وقد هجرت هذه المدينة على حين غرة حتى أنه لم يكن مستطاعا تعديل ما فعله سكانها الأصليون. وبعكس ذلك كانت المدن التى عمرت زمنا طويلا- وهى الأكثر عددا- فقد سادتها الفوضى إلى أبعد الحدود.

فمثلا «من نفر» -ثابت هو الجمال، جمال الملك أو جمال المعبود- وهى التى سماها الإغريق ممفيس، فكانت تسمى أيضا «عنخ تاوى» - حياة الأرضين «وحات كابتاح» - قصر روح المعبود بتاح «رسخات» - «شجرة الجميز»، وكل إسم من هذه الأسماء يصلح أن يكون مستعملا لكل ما فى هذه المدينة.

أما فى الأصل فكان يراد بها إما القصر الملكى وملحقاته وإما معبد بتاح، معبود المدينة وإما معبد حاتحور المعروف فى منف باسم «سيدة شجرة الجميز» وكان الحال كذلك أيضا فى طيبة، المدينة ذات المائة باب، كما وصفها هوميروس مكان يطلق عليها اسم آيات مثل الإقليم الرابع فى الصعيد الذى كانت تتبعه.

كما كان يطلق عليها اسم «أوبت» فى عهد الامبراطورية الحديثة. وكان البعض يترجم هذا الإسم بمعنى «حريم» والبعض الآخر «معبد صغير» أو بمعنى «قصر» والمكان الذى يشغله الآن الموقع الأثرى الذى يطلق عليه قرية الكرنك كان يعرف باسم أوبت آمون فى عهد أمنحتب الثالث.

وكان طريق الكباش يربطه بمعبد الأقصر المسمى أوبت الأوسط. ويحيط بكل من المعبدين «أوبت آمون» و«أوبت الأوسط» سور من الطوب اللبن به أبواب كثيرة بنيت قوائمها بالحجر الجيرى وأبوابها من خشب الصنوبر اللبنانى المصفح بالبرونز والمطعم بالذهب.

وتغلق هذه الأبواب فى وقت الخطر. وقد ذكر بى عنخى أن هذه الأبواب

كانت تغلق وهو يقترب من المدينة ولا تشير النصوص التى بين أيدينا إلى إغلاق هذه الأبواب فى أى وقت على مدار السنة زمن السلم ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن حرية المرور كانت مكفولة سواء فى النهار أو فى الليل.

وفى داخل المدينة بين السور وبين المعبد بنيت المساكن والدكاكين والمخازن التى اختفت الآن تماما فوق مساحة شاسعة. وكذلك خططت الحدائق والبساتين التى كانت تسحر البصر- وكانت قطعان أغنام آمون ترعى فى الزراب وقد رسمت إحدى هذه الحدائق على جدران بهو حوليات تحتمس الثالث حيث سجل عليها أنواع الأشجار والنباتات التى استوردها من سوريا وبين السورين على جانبى طريق الكباش وعلى امتداد شاطئ النهر شيدت القصور والمساكن الحكومية.

وكانت رغبة كل ملك فى أن يكون له قصره وكادت الملكات والأمراء وكبار الموظفين ألا يكونوا أقل رغبة فى امتلاك مثل هذه القصور ولما كانت هذه المدينة قد ظلت تنمو طوال عهد ثلاث أسرات ملكية متوالية فربما كانت منازل الطبقة الفقيرة والطبقة المتوسطة تبنى بين هذه القصور الفخمة بدلا من أن تبنى فى منطقة منفصلة كما حدث فى عهد الملك «حتب سنوسرت».

وفى مواجهة الأقصر والكرنك على الشاطئ الغربى للنيل نشأت مدينة ثانية هى جاميه والأجدر وصفها بأنها مجموعة مبان فخمة تراكمت حولها منازل ودكاكين، وكان يحيط بهذه المبانى جدار من الطوب اللبن بلغ طوله أربعمائة متراً أو أكثر وعرضه ثلثمائة متر، ولا يقل طول الجدار الذى بناه أمنحتب الثالث عن ٥٠٠ متر ويبلغ سمك أساس هذه المبانى العظيمة نحو ١٥مترا وارتفاعه نحو ٢٠مترا أو أكثر. وكان يخفى ما بداخله من مبان تماما دون أن يظهر منها غير الطرف الهرمى للمسلات أو أعالى الأبراج أو التيجان التى تعلو رءوس التماثيل الضخمة.

وقد قاومت غالبية هذه المدن مقاساة شديدة من الإنسان ومن الزمن على السواء، فتمثالا ممنون موجودان الآن وسط حقول القمح ولم يقاما هنا ليظلا فى مثل هذه العزلة الفريدة.

ولكنهما كان يزينان مدخل معبد عظيم كانت تحوطه مبان من الطين يسكنها الكثيرون من الأهالى وتوجد بها كميات وافرة من البضائع. وقد قاوم هذان التمثالان تقلبات الزمن..

وقد لقى سواهما من التماثيل الضخمة فى غير هذا المكان اهمالا شديداً. وهذه البقايا الأثرية التى قد تكشف عنها أعمال سريعة من الحفائر الأثرية سرعان ما تختفى تحت ثرى الأراضى الزراعية.

أما معبد رمسيس الثالث فى مدينة حابو، ومعبد الرمسيوم فى الشمال، وعلى امتداد شمال معبد سيتى الأول ثم معبد الملكة حتشبسوت المدرج -الدير البحرى- فهى لاتزال حتى الآن، مبانى أثرية رائعة. ويمكننا أن نلم بالحالة التى كانت تبدو بها هذه المدن المسورة، عندما كانت حديثة البناء بمقارنتها بمدينة حابو .

فبعد أن يرسو القارب على سفح سلم مزدوج، يجتاز الزائر جداراً غير مرتفع بين رواقين للحراس وهذا السور مزود بتحصينات، ويفصل طريق دائرى بين هذا السور وبين السور الكبير المبنى باللبن.

ويخترق هذا السور باب مدرع يماثل المجدل السورى وهو عبارة عن برجين متماثلين تفصل بينهما مسافة قدرها ستة أمتار يحوطها مبنى به فتحة تتسع لمرور عربة.

أما النقوش الغائرة التى تغطى الجدران فهى تتغنى بمدى سلطان فرعون. كما رسم أعداء مصر الألداء من ليبيين وعرب وزنوج ونوبيين وهم يحملون

الجزية فوق رءوسهم ويشعر الإنسان بشيء من الرهبة وهو يسير بين هذه الجدران.

أما فى القاعات العليا فكانت موضوعات الرسم أشد بهجة، فقد رسم الفنان رمسيس وهو يداعب ذقن غادة مصرية ظريفة بينما يقوم ندماؤه على خدمته ومع ذلك فلم يكن هذا البناء إلا ملاذا فى حالة الاضطرابات فالقصر والحريم كانا يوجدان على مسافة أبعد من ذلك إذ كانا يقعان بجوار المعبد، ولم يكن يقيم هناك عادة غير الحراس.

وبعد اختراق البوابة نجد فناء متسعا ينتهى بجوار سور ثالث يوجد بداخله المعبد وقاعات الحريم والقصر والأفنية والمبانى، كما توجد مساكن صغيرة شديدة الالتصاق تماما على أحد جوانب السور بينما يحيط ممر رئيسى بالجوانب الأخرى لهذا السور الثالث.

وكان كهنة المعبد وعدد وفير من الأهالى هم السكان الدائمون لهذه المدينة الصغيرة، حيث كان يقيم فرعون عندما يحضر مع نسائه وخدمه العديدين إلى الشاطئ الغربى.

وعلى هذا النحو كان قصر رمسيس حاكم أون فى أملاك آمون وكذلك الرمسيوم. وهكذا كان الحال فى العشرين أو الثلاثين مدينة ملكية فى الضفة الغربية من النيل.

وبالرغم من مظهرها الخارجى الخشن فقد حوت من الداخل مزيجا من روائع الفن الهندسى ومن القصور المموهة بالذهب تقوم بجانبها أكواخ معتمه قاتمة. ولا شك أنه حدث فى وقت ما أن أمراء مصر العظام وأميراتها الفاتنات ممن كانوا موضع فخر مصر وحاشيتهم كانوا يسرعون الخطا بين هذه الطرقات وتلك الأفنية.

وكان صدى الضحكات والأغانى ورنين الموسيقى يملأ تلك المساكن الملكية. وعندما ينتهى الحفل كان لايسمح باجتياز البوابة المحصنة إلا لقطعان الأغنام وصفوف العبيد الذين يحملون الأمتعة على رءوسهم أو على أكتافهم وللجنود وكتبة الحسابات والبنائين والعمال يمرون جميعا خلال الغبار والضوضاء ثم يتفرقون إلى المصانع والحوانيت والاسطبلات والمذابح بينما يتوجه التلاميذ والصبية لينالوا قسطهم من العلم ونصيبهم من ضربات العصى.

ولم تكن مدن الدلتا أقل من مدن الصعيد فخامة فى مبانيها وعماراتها أو فى قدمها التاريخى، تلك المدن التى اجتاحها الهكسوس وأهمل شأنها ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، قد رممت ووسعت وازدادت جمالا بفضل الملوك الرعامسة.

وكان رمسيس الثانى معجبا بالجزء الشرقى من الدلتا إذ أنها مهد عائلته وكان يجد فيها الجو الملائم والأراضى ذات العشب الأخضر وساحات المياه الشاسعة وكروم العنب التى تنتج نبيذا أحلى مذاقا من العسل.

وعلى جانب الفرع التانيسى للنيل وسط مراع تذروها الرياح كانت توجد مدينة قديمة عاش فيها الكهنة وكانت مركزا لعبادة الإله «ست» كما كانت مركزا أيضا لمدرسة فنية ذات طراز أصيل، ويرجع تاريخها إلى عهد بعيد.

هذه المدينة هى حت واعرت وقد اتخذها الهكسوس عاصمة لملكهم . ومنذ أن طردهم الملك أحموزا[1] أخذت المدينة فى الإضمحلال وقد انتقل إليها رمسيس بعد أن انتهى مباشرة من دفن أبيه وقام بآخر الواجبات الجنائزية.

وعلى الفور بدأ القيام بالأعمال العظيمة التى أعادت إلى المدينة القديمة رونقها فأخذت تنمو حتى أصبحت عاصمة فريدة فى نوعها وكما كان الحال فى

---

(١) يقال له أحمس .

طيبة، كان المعبد وسائر المبانى داخل سور من الطوب اللبن، له أربعة أبواب تمتد أمامها الترع والطرق من الجهات الأربع. ولأجل بناء قدس الأقداس فى المعابد وتوفير اللوحات والمسلات» أحضرت من أسوان كتل من الأحجار ذات أحجام غير مألوفة، دون أدنى اعتبار لبعد المسافة أو صعوبة النقل، بعد أن تم صقلها وتكسيتها حتى بلغت ذروة الإتقان.

ونحتوا كذلك أسودا ذات أوجه آدمية عابسة من صخور الجرانيت الأسود، كما نحتوا تماثيل أبى الهول من صخور الجرانيت الوردى اللون وقد وضعت بحيث يواجه أحدها الآخر على طول الطريق الضيق المرصوف بأحجار البازلت، بينما كانت أسود راقدة تسهر على حراسة الأبواب وتماثيل لمجموعة معبودات يحوى كل منها معبودين أو ثلاثة معا، وتماثيل ضخمة واقفة أو جالسة، ينافس الكثير منها مثيلاتها الموجودة فى طيبة ويفوق تلك التى على شاكلتها فى منف. وقد كانت متراصة أمام البوابات ذات الأبراج.

كان القصر متلألئا بالذهب واللازورد والفيروز مزدانا بالزهور فى كافة أرجائه والطرق التى أحسن تظليلها تخترق الريف المنزرع بطريقة تدعو إلى الإعجاب وكانت البضائع الواردة من سوريا ومن الجزر ومن بلاد بونت مكدسة فى الحوانيت. وكانت فرق من المشاة وحملة السهام والأقواس وراكبى العربات الحربية ورجال البحرية لهم معسكراتهم بجوار القصر ووفد الكثيرون من المصريين ليسكنوا بجوار الشمس.

قال الكاتب باباسا «ما أحلى الإقامة هناك، فليس للمرء أية أمنية يتساوى فيها الصغير والكبير.. والناس جميعا سواء، فى الإفضاء بطلباتهم ».

ومثلها مثل سائر المدن الكبرى الأخرى حيث يخالط المصريين الليبيون والزنوج. غير أن الأسيويين كانوا قد تدفقوا بصفة خاصة قبل عصر الخروج

وحتى بعده، وكان من بينهم نسل أبناء يعقوب، وغيرهم من البدو الرحل، ممن سمح لهم بالإقامة فى مصر ولم يرغبوا مطلقا بعد ذلك فى مغادرتها.

كما كان من بينهم الأسرى الذين أتى بهم من بلاد كنعان وعامور ونهارينا وتحول أبناؤهم بمضى الزمن إلى عمال زراعيين أو إلى عمال مهن حرة. وسرعان ما اتسعت المدينة الملكية بعد أن أضيفت إليها أحياء شاسعة الأرجاء تحوى الكثير من المساكن والحوانيت.

وسرعان ما أصبح لهذه الأحياء الجديدة معبدها الخاص وقد أحيط بأسوار من الطوب اللبن مثل أى معبد كبير. وكان من الضرورى تخصيص مكان للجبانة لأن أهل الدلتا لم يعتادوا مثل أهل الصعيد دفن موتاهم فى الصحراء القريبة منهم.

ولذلك شيدوا مقابرهم ومقابر حيواناتهم المقدسة إما خارج السور وإما داخله على بعد خطوات من المعبد. ونظرا لضيق المكان، لم يكن فى استطاعتهم بناء عمارات ضخمة على غرار مثيلاتها فى منف.

وكانت المقابر التى فى تانيس أو أتريب صغيرة الحجم إلى أبعد الحدود بغض النظر عن مكانة الشخص الذى يدفن فيها.

لم يترك رمسيس الثانى لمن خلفه ما يشغلهم كثيرا فى شئون البناء، ولذلك ركز رمسيس الثالث إهتمامه برعاية الحدائق والمشاتل والإكثار منها، قائلا :

«لقد أخصبت الأرض كلها بزراعة الأشجار وغرس النباتات، بحيث أصبح فى استطاعة الناس الجلوس تحت ظلالها». وقد شيد حدائق كثيرة في مقر عرش جده العظيم، تتخللها طرق تؤدى إلى الريف، زرعت بالكروم وأشجار الزيتون وعلى جانبى الطريق المقدس انتشرت الزهور اليانعة وفى أون أمر الملك بتنظيف بحيرات المعبد المقدسة، برفع القاذورات التى تراكمت منذ وجدت

الخليقة، وجدد غرس الأشجار والنباتات فى كل مكان وزرع البساتين اليانعة بالكروم ليقدم للمعبود توم النبيذ والمشروبات الروحية.

كما زرع أشجار الزيتون التى تنتج «أجود الزيوت المصرية لتبقى شعلة النيران متقدة فى معبدك المقدس». ومعبد هورس الذى كان فى طى النسيان تماما، أصبح فى مقدمة المعابد، «لقد أوليت جل اهتمامى لزراعة أشجار الأخشاب المقدسة النامية فى داخل أسواره.

كما عنيت بغرس أوراق البردى على نحو ما تزرع فى مستنقعات آخبيت (حيث عاش هورس زمن طفولته) وكان عالم النسيان قد أتى عليه منذ العهد الغابر.

لقد عملت على ازدهار أشجار الأخشاب المقدسة فى معبدك وغرستها فى نفس الأماكن التى اقتلعت منها وعينت البستانيين للعناية بها حتى يقطر منها الخمر للشراب والقرابين».

وهذا جمع بين النافع والممتع. وقد لاحظ هيرودوت أن معبد بربسط المحاط بالأشجار الضخمة كان من أروع ماشاهد فى كافة أنحاء مصر. ولاشك أن المسافر فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد كان يستطيع أن يحس نفس هذا الشعور خلال زيارته لكثير من المدن المصرية.

فمنظر المساحات الخضراء كان يعوض خشونة منظر الأسوار الضخمة المبنية باللبن، وكان سكان المدن يتمتعون بالنسيم العليل على شواطئ فروع النيل تحت ظلال الأشجار الضخمة، وفى أفنية المعبد كان الزهور والورود أثرها فى إظهار جمال التماثيل.

كانت المياه الكثيرة لازمة للحيوان والنبات والإنسان على السواء. وكان الانتقال لجلب المياه من الترع، أمرا مقلقا حقا، حتى لو كانت مجارى المياه

قريبة من أبواب الأسوار، كما كانت عليه الحال فى مدينة حابو وفى بى رمسيس، وفى أكثر المدن التى تحوطها أسوار، شيدت أحواض من الحجر. وقد أقيم سلم يؤدى إلى سطح المياه على مدار العام.

ووجود الآبار أمر مؤكد منذ عهد الامبراطورية الحديثة، على الأقل، وقد اكتشف بعضها فى الأملاك الخاصة وكذلك فى أحياء المدن. وقد وجدت أربع آبار على الأقل داخل أسوار مدينة بى رمسيس بنيت بالحجر بعناية تامة وأصغرها فى غرب المعبد وقطرها ثلاثة أمتار وعشرة سنتيمترات.

كان النزول إليها بوساطة سلم مستقيم مسقوف تبلغ درجاته ثلاثا وعشرين درجة يؤدى إلى سلم حلزونى داخل البئر عدد درجاته اثنتا عشرة درجة.

أما البئر الكبرى فتوجد جنوبى المعبد وقطرها نحو خمسة أمتار ويؤدى إلى البئر سلم مسقوف أيضا تبلغ درجاته أربعة وأربعين درجة من سطحين، وتتوسطها بسطة للاستراحة، ويمكن الوصول إلى مياه هذه البئر مهما قل المنسوب، بسلم حلزونى على شكل حدوة، لملء الأباريق بالمياه.

أما فى فترة زمنية أخرى فكانت المياه ترفع بطريقة أيسر بوساطة الشادوف وتصب فى حوض وتنقل منه إلى حوض آخر داخل مبنى المعبد بوساطة قناة من الحجر.

وفى القسم الشرقى من المدينة، اكتشف على عمق كبير، كثير من القنوات المصنوعة من أنابيب من الفخار من مختلف الأشكال وأكثرها مصنوع من أوان خزفية متداخلة فى بعضها قد أحكم وصلها بالأسمنت.

ولم يتمكن أحد حتى اليوم، أن يتتبع امتداد هذه القنوات واكتشاف بدايتها ونهايتها، كما لانستطيع تحديد تاريخها، إذ أننا نجهل ما إذا كانت قد

أعدت لنقل المياه الصالحة للشرب أو خصصت لتصريف مياه المجارى. على أنه يجدر بنا أن نشير إلى وجود هذه المنشئات التى تدل على أن الإدارة الفرعونية كانت تنشد الخير للأهالى وتحرص على الصحة العامة.

كان للعقارات الملكية أو المقدسة قوة جاذبية عجيبة على من يقيمون حولها، ففى أزمنة الاضطراب كان الأهالى الذين ينتابهم الذعر يغتصبونها ليقيموا بها ويرفضون تركها، ويشيدون منازلهم فى الحدائق والبساتين وبذلك يشوهون جمال التصميم الذى أراده لها مشيدوها السابقون. كانوا يتسربون إلى ساحة المعبد المقدسة الخارجية ويقيمون فوق الأسوار، يعطلون إقامة الشعائر الدينية ويقفون حجر عثرة فى سبيل الحراس.

وقد لاحظ أواج جود حر، أحد الأطباء الذين عاشوا فى عصر الملك قمبيز، بعض الأجانب يقيمون فى معبد الإلهة نايت، معبودة سايس فتألم لما رأى، ولما كان ذا كلمة مسموعة لدى الملك فقد حصل على أمر بطرد جميع أولئك الأجانب، غير المرغوب فيهم وهدم منازلهم والتخلص من نجاستهم حتى يمكن الاحتفال بالأعياد والمواكب كما كان متبعا من قبل.

وقد لاحظ أحد السحرة أيضا ويدعى جد حر وكان يعيش فى أثريب أنا أناسا من عامة الشعب بنوا أكواخهم بالطوب اللبن فوق جبانة الصقور المقدسة. ولما لم يكن له مثل نفوذ الطبيب الصاوى فقد حاول معهم طريق الإقناع واستطاع أن يجلى المغتصبين عن المكان الذى احتلوه والانتقال إلى مكان أفضل أرشدهم إليه.

وكأن فى الحقيقة موقع مستنقعات، غير أن علاج ذلك كان فى متناول أيديهم، إذ كان من المستطاع هدم المنازل الداخلية واستخدامها فى ردم المستنقعات. وهكذا شيدت مساكن الطبقة الطيبة من أهالى أثريب فى مكان حسن الموقع لطيف الجو، يكاد يكون قليل الرطوبة زمن الفيضان.

وفى تانيس لاحظنا زحف الأهالى بمساكنهم على المعبد. ووجدنا الكثير من المساكن فى أفنية المعبد وعلى أسواره، وشخصية ذات أهمية إسمها بان مريت، بنى منزله فى الفناء الأول للمعبد ملاصقا للصرح كى تستطيع تماثيله الاستفادة من الاحتفالات المقدسة.

وقد عاش بان مريت فى عصر متأخر عن طبيب سايس وساحر أثريب. ولكن مصر هى بلد التقاليد، وكان الأهالى ينتهزون فرصة عدم يقظة السلطات أو ضعفها ليهجروا الأحياء التى لا تروقهم وينتقلوا إلى داخل الأسوار الكبرى ليحتموا بها وربما ليسطوا على الأموال. وعندما تتيقظ السلطات فإنها كانت تطرد الغاصبين فيستعيد المعبد والعاصمة عظمتهما إلى أن تتكرر هذه المحاولة من جديد.

وفى عهد سيتى الأول وسنوسرت العظيم ورمسيس الثالث لم يجرؤ أحد على الاقتراب من أرض لا يملكها، ولكن حدث ذلك فى الوقت بين حكم مرى إن بتاح وسات ناخت، بل حدث أسوأ من ذلك فى عهد آخر ملوك الرعامسة.

١- القصور :

كثيرا ما أثار القصر الملكى فى مدينة بي رمسيس إعجاب الكثيرين من المعاصرين، ومن سوء الحظ أن وصفهم له غير محدد وحتى مكانه أيضا غير معروف بالضبط، ولم تسفر الحفائر عن أية معلومات دقيقة. ونحن نعرف أنه كان فى الدلتا قصور ملكية أخرى فقد عثر على بقايا قصر فى قنطير وهى قرية تظللها أشجار النخيل البديعة على بعد ٢٥ كيلومترا جنوبى مدينة بى رمسيس، حيث كان فرعون ينتظر خطيبة ابنه ملك الحيثيين، التى جاءت في فصل الشتاء مخترقة آسيا الصغرى وسوريا لتلقاه.

خطر له خاطر طريف هو تشييد قصر حصين فى الصحراء بين مصر

وفينيقيا حيث كان ينتظرها. وبالرغم من بعد القصر ووجوده فى مكان ناء إلا أنه كان مكتظا بكل ما كانت تشتهيه الأنفس.

وكانت كل جهة من جهات القصر الأربع تحت حماية أحد المعبودات، فكان آمون يحمى الناحية الغربية وسوتخ الناحية الجنوبية، وعشتروت الناحية الشرقية وأواجيت الناحية الشمالية. ولتمجيد ملك مصر وزوجته الآسيوية وضع معبودان مصريان ومعبودان آسيويان لأن ست منذ ذلك الوقت اتخذ زينة الشعر والملابس التى يتميز بها المعبود بعل، ولم يعد يشبه معبودات المصريين وأقيمت أربعة تماثيل ذات أسماء كالأحياء هى : رمسيس ميا آمون، له الحياة والصحة والقوة، ومونتو فى الأرضين سحر مصر، وشمس الأمراء الذى أصبح فى منزلة الإله الوريث والباشا.

كان لرمسيس الثالث قصر أطلق عليه اسم : «بيت الهناء» يقع داخل مدينته، غربى طيبة، وقد وجدت بقاياه التى تولى دراستها علماء الآثار المصرية بمعهد الدراسات الشرقية بشيكاغو، وكانت واجهة هذا القصر تطل على الفناء الخارجى للمعبد.

أما النقوش المحفورة التى كانت تزين هذه الواجهة، وترى من بين أعمدة البهو، فقد أحسن اختيارها فى عناية تامة لتظهر مدى سلطان الملك. فقد رسم رمسيس وهو يقتل أعداءه بضربات من دبوسه.

كما رسم أيضا الملك يتبعه حرسه فى أحسن زينة وهو يزور حظائر الخيل. وكذلك رسم وهو يمتطى عربته متقلدا أسلحته الحربية فى طريقه ليتولى قيادة الجيش أثناء المعركة.

ثم رسم أخيرا وهو جالس مع رجال حاشيته يشاهد خير جنده وهم يتصارعون ويتمرنون. كانت الشرفة المخصصة لظهور الملك فى الحفلات العامة

تتوسط هذه الواجهة وقد زينت أفخم زينة، فى مقدمتها أربعة أعمدة طويلة على هيئة ساق البردى يعلوها أفريز ذو ثلاثة طوابق، رسم قرص الشمس المجنح على الطابق الأدنى، ورسمت زينات من خوص النخيل على الطابق الأوسط، بينما رسم على الطابق الأعلى رءوس الثعابين تتوجها تيجان على هيئة قرص الشمس.

وكان الملك يظهر فى هذه الشرفة عندما كان يسمح للأهالى بالتجمع فى فناء المعبد فى عيد آمون، ومنها كان يوزع عليهم العطايا. كانت الشرفة متصلة بالمساكن الملكية، وكان يتوسط هذه المساكن عدة غرف ذات أعمدة، منها قاعة العرش وغرفة الملك وحمامه الخاص. وتفصل ردهة بين هذا الجزء الرئيسى وبين جناح الملكة الذى كان يحوى الكثير من الغرف والحمامات. وكانت هناك ممرات طويلة مستقيمة تيسر الذهاب والمراقبة أيضا، لأن رمسيس الثالث وقد علمته التجارب، كان حذرا.

ويبدو أن النقوش الداخلية لقاعة العرش كانت عابسة، كما يتضح من اللوحات الصغيرة المموهة بالمينا التى اكتشفت منذ ٤٥عاما أو من القطع الصغيرة ذات النقوش الغائرة التى اكتشفتها أخيرا البعثة الأمريكية. رسم الملك فى كل مكان على هيئة أبو الهول وقد جثم على مؤخرتيه، وقد سجل اسمه بالكتابة الهيروغليفية، ويشاهد أعداء مصر أمامه، وقد قيدت أقدامهم وهم فى ملابسهم الثمينة المزركشة بزينة البربر.

وقد بذلت عناية كبيرة فى رسم أشكالهم وزينة شعرهم وحليهم. وقد وسم الليبيون بالوشم بينما حلى الزنوج آذانهم بالأقراط، أما السوريون فكانوا يتزينون بحلى كبيرة تتدلى من رقابهم.

أما قبائل شاسو الرحل فكانوا يضعون أمشاطا وسط شعرهم الطويل

المرسل إلى الخلف. وليس من المستعبد أن نعتقد أن الرسوم والزينات التى كانت تحلى القاعات الخاصة بالملك والملكة كانت ذات موضوعات أكثر رقة وطرافة.

كانت المساحة التى يشغلها مسكن الملك غير بالغة الاتساع إذ كانت عبارة عن مربع يقل طول ضلعه عن أربعين مترا وكانت إقامة الملك فيه غير طويلة المدى، فقد كان فى استطاعته الإقامة فى الجانب الآخر من النهر.

أما فى الدلتا فلم يكن له إلا أن يختار بين منف وأون وبى رمسيس، وكانت كلها تترقب استقباله. وقد شيد بين أون وبوبسط، فى المكان الذى أطلق عليه العرب اسم تل اليهودية، مبنى حديث العهد، اكتشفت فيه لوحات مموهة بالمينا تماثل تماما تلك التى وجدت فى مدينة حابو.

وقد أتى الزمن تماما على قصور الملك سيتى والملوك الرعامسة حتى أننا إذا أردنا أن نكون فكرة حقيقية عن قصر فرعون فى عصر الامبراطورية الحديثة كان علينا أن نتخيل أنفسنا فى قصر اخناتون الذى تولى الحكم قبلهم بوقف قصير. كان بلاط أرضية القاعات ذات الأعمدة تمثل مستنقعا يزخر بالأسماك ونباتات البردى، تطير خلال أغصانها الطيور المائية ويحوطها الغاب والبردى، وعجول تقفز وسط أجمات وبط برى يطير خوفا منها.

وفوق رءوس الأعمدة كانت تلتف أغصان الكروم والنباتات العارشة. وزينت تيجان الأعمدة والأفاريز بالنقوش الزاهية وعلى حواجز الجدران رسمت نقوش تمثل مناظر الحياة العائلية، فالملك والملكة يجلسان وجها لوجه.

كان اخناتون يجلس على مقعد ونفرتيتى على وسادة وعلى ركبتيها طفل رضيع، وكانت كبرى الأميرات تعانق شقيقتها الصغرى، وتلعب أميرتان صغيرتان على الأرض وقد قيل فى مبالغة بأنه لم يرد فى الفن المصرى القديم كله ما يضاهى هذا الرسم رقة. والواقع أن المستنقعات ونباتات البردى والطيور

والحيوانات التى تقفز أو تركض كانت ضمن الموضوعات المألوفة. وفى مدينة حابو رأينا الملك محاطا بمحظيات رائعات الجمال.

ونحن لا نخشى شيئا حين نؤكد أن قصور فرعون فى عهد الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين كانت مزينة دائما بأفخم النقوش وكذلك الحال فى عهد اخناتون، إذ كانت الجدران والسقوف والأفاريز والأعمدة والأرضيات بهجة للعين والنفس. وكانت فخامة الأثاث وروعة الحلى والملابس تكمل هذه المجموعة سمواً وروعة.

٣- المنازل :

لم تدخر كبار الشخصيات جهدا فى محاكاة المساكن الملكية من حيث الفخامة والرفاهية، كانت مساحة مساكنهم فى المدينة أو فى الريف تبلغ نحو هكتار أو تزيد، كما كانت على نسق المعابد أو القصور الملكية يحوطها سور عريض مرتفع له باب حجرى يؤدى إلى حيث يقيم رب البيت، بينما توجد أبواب ثانوية وهى عبارة عن فتحات صغيرة فى السور تؤدى إلى الحدائق ويستعملها عامة الناس.

هكذا كان منزل المرأة الغادرة تبوبوى التى استقبلت فيه حبيبها فى مدينة بوبسط بينما كان منزل آبوى يماثل معبدا قصيرا . فيه رواق ذو أعمدة علي هيئة سيقان البردى يسبق واجهة المبنى. بينما يسند سطح العمود إفريز مزخرف برسوم من سعف النخيل.

وكان باب المدخل الرئيسى من الحجر الكبير المنحوت وأسكفة الباب مزخرفة بدورها بسعف النخيل وكان المنزل الذي قابل فيه الملك آي زوجته نفر حتب وكافأها، له شرفة ذات أعمدة تسند سطحا خفيفا يغطى جميع جهات المنزل وتقوم أطرافه على أعمدة عالية رفيعة يتكون منها رواق حوال المنزل.

يمكن أن تكون فكرة عن الشكل الخارجى لهذين المنزلين على ضوء الرسوم التى رسمها كل من أيوى ونفر حتب على جدران مقبرتهما، ولمعرفة التنظيم الداخلى لهما يحسن أن نزور حفائر تل العمارنة. من باب المدخل يعبر المرء دهليزا قبل أن يصل إلى قاعات الاستقبال ذات الأعمدة التى يستند إليها السقف.

وهذه القاعات العامة تمتد بوساطة خزائن للملابس مبنية بالطوب وتستخدم كأسونة للملابس الداخلية وللثياب، كما توجد غرف صغيرة تخزن فيها المواد الغذائية والمرطبات. أما الغرف المخصصة لرب البيت وقاعة الحمام ودورة المياه فتشغل باقى المبنى.

ونرى جدران الحمام قد كسيت بالأحجار، وفى أحد الأركان نشاهد كتلة مرتفعة من الحجر ومثبتة فى البناء ومحاطة من الخلف بجدار ساتر يصعد عليها أحد الخدم ليصب المياه على المستحم.

وبعد أن يفرغ المستحم من الاغتسال يجلس على مقعد قريب للتدليك. وتطلى دورة المياه التى تقع خلف الحمام بالجير، وبها مقعد من حجر الكلس مثقوب الوسط يوضع فوق صناديق من الطين تملأ بالرمال.

وفى كل منزل مهما كان متواضعا، توجد عدة أفنية، فى أحدها صوامع للغلال على هيئة خلية النحل. وتقع مراقد الكلاب وحظائر الحيوان فى الشمال، وفى الشرق توجد عادة على التوالى، المطبخ والمخبز وبيوت صغيرة من الطوب يأوى إليها الخدم. وكان على الخدم فى هذه الحالة أن يسيروا مسافة طويلة لإحضار أطباق الطعام لسادتهم.

ويوجد مدخل للخدم يؤدى إلى حجرات الاستقبال، أما المنازل الصغيرة، المخصصة للخدم، فتقسم فى أغلب الأحيان إلى أربع غرف، المدخل وحجرة فى

الوسط يستند سقفها إلى عمود ومطبخ وحجرة نوم فى الداخل. ويتجمع كل أفراد الأسرة الواحدة فى هذا المكان الضيق الذي يتقاسمونه مع المواشى، وهناك سلم يؤدى إلى سطح المنزل. وتقع بيوت المديرين فى نهاية هذا الحى، وتكون مبانيها عادة واسعة ومريحة. وتجلب المياه الصالحة للشرب عادة من بئر حجرية.

أما الحدائق فكانت تقسم إلى مربعات ومستطيلات تتقاطع عموديا ومستقيمة تمام، وتزرع بالأشجار وتظلل بالكروم وتغص بها الزهور التى كان المصريون يعنون بها عناية تامة. وقد جمع أنا فى حديقته كافة الأشجار التى تنمو فى وادى النيل مثل النخيل ونخيل الدوم وشجر جوز الهند التى كانت تسمى نخيل الكوكو وشجرة الجميز وشجرة زيت النخيل وشجر العناب واللبخ والطلح والرمان والسرو والأثل والصفصاف وأنواع أخرى من الأشجار لا نعرف مدلولها وتبلغ ثمانية عشر نوعا.

وزرع الوزير رخ مارع فى حديقته المحاطة بأسوار قوية كل أنواع الأشجار والنباتات التى كانت معروفة فى عصره. وكثيرا ما كانوا يشيدون تحت الأشجار أكشاكا لا تخلو من جمال وإن بنيت بمواد خفيفة الوزن. وكان السادة يتناولون فيها طعامهم صيفا. وكانت الخصاص الخشبية تجثم فى كل مكان، حيث كانت المشروبات تثلج فى أيار كبيرة تخفيها أوراق الأشجار بجوار الموائد والرفوف حيث رص الخدم بعناية فائقة كل مشهيات المطبخ المصرى.

ولا يمكن أن نتخيل وجود حديقة دون بركة ماء، وهذه تكون عادة إما مربعة أو مستطيلة الشكل ومبنية بالحجر، وتطفو نباتات التيلوفر فوق سطح المياه ويعوم فيها البط. وتؤدى درجات من سلم إلى هذه البركة حيث أعد قارب لتلبية مسرات أصحاب المنزل فى غالب الأحيان.

وتتكون بيوت الطبقة الوسطى عادة من عدة طوابق، وتوجد أحيانا صوامع الغلال فوق سطوحها، ولا تزخرف واجهة البيت بأية زخارف. ويقع الباب قرب أحد أركان الجدار وهو يتكون من عمودين قائمين وأسكفة وعتبة من الحجر. ولا يتسرب الضوء إلى الطابق الأرضى إلا عن طريق هذا الباب.

أما النوافذ وعددها اثنتان أو أربع أو ثمانية نوافذ فى الطابق الواحد فكانت صغيرة ومربعة ومزودة بستائر لتحمى السكان من الحر والغبار.

وقد عثر فى تزنيس على نافذة من الحجر لا يزيد طول ضلعها على ذراع واحدة وكانت عبارة عن قطعة من البلاط المثقوب كالدنتلة وتقوم مقام الستارة.

كما عثر أيضا فوق نافذة مربعة على إطارين منقوشين باسم الملك مرى إن بتاح. وقد رسمت على بعض النقوش بطيبة، خطوط أفقية على الجدران كأنها عملت بالبلوط السميك أو زخرفت بالألواح. وفى تانيس ظهر تفسير هذه الخطوط إذ اتضح أن البنائين يضعون الملاط على السطح الأفقى للبناء بينما يكتفون بالطين بين الفواصل الرأسية. وحينما يتم البناء نجد أن الجدار قد أصبح مخططا بخطوط أفقية بيضاء.

وتخصص الغرف فى الطابق الأرضى فى غالب الأحيان للحرف المنزلية، حدث هذا فى طيبة، على سبيل المثال، فى منزل أحد الأهالى المدعو تحوتى نفر حيث كان النساء يغزلن بينما يعمل الرجال بالنسج على الأنوال، وفى الغرف المجاورة كانوا يطحنون الحبوب ويعدون الخبز.

ويعيش أصحاب المنزل فى الطابق الأول فى غرفة أكثر اتساعا، ينفذ إليها الضوء من خلال نوافذ صغيرة مرتفعة. وتسند سقفها أعمدة على هيئة ساق اللوتس. ويبدو أن الباب كان مزدانا بلوحات طعمت به بالمينا إذ لم يكن الخشب نفسه قد نقش مباشرة.

ولم تكن ثمة نقوش على حواجز الجدران وإن كان من المألوف لدى المصريين أن يغطوا بالرسوم كل ماديهم من سطوح خالية. وقد عثرت فى تانيس بأحد المنال، التى تنتمى إلى العصر المتأخر، على حواجز جدران داخلية طليت بالملاط وبها لوحات قديمة عليها راقصات ومراكب.

ولا ريب فى أن هذه الوسيلة كانت قديمة العهد، مما يحملنا على الاعتقاد بأن غرف المنازل تماثل غرف المقابر فى طيبة حيث كانت ترسم كرمة على السقف بينما ترسم مناظر الصيد والرحلة إلى مدينة أوزيريس المقدسة ومناظر أخرى مماثلة كانت ترسم فوق الجدران الداخلية.

وكان سقف الطابق الثانى منخفضا إلى حد لايحتاج الإنسان معه إلي الوقوف على أطراف أصابع قدميه لكى يلمس السقف بأصبعه.

وتخصص فى هذا الطابق غرفة لرب البيت ليتولى فيها زينته. كان يجلس على مقعد مريح ذى مساند جانبية ويحمل إليه الهدم الأبريق والطشت والمروحة والمذبة، وأمامه يجلس الكتبة القرفصاء يقرأون البريد ويسجلون الأوامر.

ولا يتوقف خدم آخرون عن الحركة فوق درجات السلم وفى الممرات، وهم يحملون صرراً على رءوسهم وجرارا مملوءة بالماء معلقة فى طرفى عصا يحملونها على أكتافهم.

كان نفس هذا النظام سائدا فى منزل أحد الأشخاص المدعو ماحو، فكانت الجرار مكومة فى الطابق الأرضى. أما الطابق الأول فكانت توجد به حجرة الطعام، وكان الطابق الثانى مملوءا بالدروع والأسلحة وأدوات أخرى كثيرة، ولما كان ماحو رئيسا للشرطة، فإننا نعتقد أنه كان ينام الليل هنا ليستطيع فى حالة استدعائه بغتة أثناء الليل أن يحمل سلاحه ويعدو فورا خلف المجرمين. كانت سطوح المنازل عادة مسطحة، ويمكن الصعود إليها إما

بدرجات سلم مبنى أو بوساطة سلم متحرك. أقام البعض عليها، مثل تحوتى حتب صوامع للغلال.

وأقام آخرون سورا من الخشب على حافة السطح حماية لأطفالهم أو تجنبا لنظرات متطلعة إليهم وهم ينامون ليلا فى العراء. وأقام كل من نب آمون ونحتى على سطحى منزليهما بناء إضافيا على هيئة مثلث هرمى بزاوية قائمة فسر بأنه بئر للتهوية.

ومع ذلك فإن المنازل ذات الأسطح المدببة لم تكن مجهولة في مصر، ففي إحدى مقابر أبو رواش، بالقرب من القاهرة، التى تعاصر زمن الملك دن الذى عاش فى عهد يرجع إلى ألفى عام قبل عصر الرعامسة، قد وجدت قطعتين من أدوات اللعب المصنوعة من العاج وهى تمثل منازل ذات سطوح مائلة ومكونة من مثلثين ومن شكلى شبه المنحرف.

وبناء السطوح على هذه الصورة العلمية فى مثل هذا العهد العتيق ليدعو حقا إلى الدهشة لأن مثل هذه الفكرة لايمكن تصورها إلا فى بلد تكثر فيها الأمطار أو تتوافر فيها الأخشاب، أما فى مصر فلا توجد أمطار إلا فى المنطقة الساحلية. وحتى فى هذا المكان، وإلى يومنا هذا، فكل المنازل تعلوها سطوح مستوية.

ومن المحتمل أن تمثل قطعتا أبو رواش نوعا من المساكن الدخيلة على مصر، إذ ليس لدينا أى برهان على أن مثل هذه المساكن كانت سائدة فى أى مكان بالإقليم المصرى فى عهد الرعامسة.

وحتى فى طيبة لم تكن المساكن متلاصقة تلاصقا شديدا. ولم تكن الأرض غالية الثمن لتحول دون إمكان زرع أشجار إما في فناء صغير داخل المسكن أو أمام واجهته. ففى منزل نب آمون تظهر نخلتان وكأنهما ناميتان فوق سطح المنزل.

ومع ذلك فقد كانتا مثقلتين بثمار البلح. كما تظلل باب منزل نخت نخلة وشجرة جميز. وقد رسم على جدار المقبرة رقم ٢٣ فى طيبة منزل مرتفع أكثر مما هو عريض، بين صفين من الأشجار، بينما فى مقبرة أخرى معروفة برقم ٢٥٤ نرى أمام منزل، ثلاثة أشجار رمان زرعت فى أصص من الفخار المزخرف بألوان عديدة.

كما نشاهد أمامه أيضا شجرتان من الدوم. وقد بذل المصريون كل جهدهم، حتى الطبقات الفقيرة منهم، لتكون مساكنهم جميلة ومريحة، كما عنوا عناية كبيرة بالعمل على وقاية أنفسهم من أعداء الراحة المنزلية وهى عديدة كالحشرات والفيران والأبراص والثعابين والطيور الجارحة.

وتحوى بردية ايبرس الطبية بعض الوصفات النافعة فإذا أردنا التخلص من الحشرات المنزلية فينبغى رش المنزل بمحلول النطرون أو طلاء جدرانه بمادة تسمى «بيبت» تصحن مع الفحم. وإذا وضعنا ملح النطرون أو سمكة مجففة من البلطى أو حتى بذور البصل فى مدخل جحر الثعبان، فالثعبان لا يغادر جحره.

أما دهن طيور الصفارى فجد مفيد ضد الذباب، وبويضات السمك ضد البراغيث، وإذا وضعنا دهن قط على الزكائب على الصرر فالفيران لا تقربها. ولإبعاد الحشرات القارضة عن الغلال يحرق فى المخزن روث الغزلان أو تطلى الجدران أو الأرضية بمحلول من هذا الروث.

وهاك وصفة مؤكدة لمنع الحدأة من الخطف، يزرع فى الأرض فرع من شجرة اللبخ وتوضع بجانبه كعكة، ويتلى عليها ما يلى : «كانت حدأة تخطف من المدينة ومن الريف ... طيرى، اطبخيها ثم كليها». وترديد هذا الكلام على فرع شجرة اللبخ، بعد أن توضع عليه فطيرة هى الوسيلة الكفيلة بمنع الحدأة من الخطف.

ورائحة البخور ناجعة فى تنقية هواء قاعات الثياب، ولم تكن هذه الوسيلة فى متناول جميع الناس، إذ كان يجب أن يضاف "بخور صمغ التربتين وبعض المواد الأخرى المصرية والأجنبية. وهذه الوصفة مثل سابقتها دليل على الرغبة فى الإبقاء على المنزل نظيفا نقيا. كانت هذه الرغبة الطبيعية تحمل السلطات على إصدار أوامر عامة لنزح المياه القذرة ورفع القمامة وفضلات المنازل. ومع ذلك، فلا نستطيع الجزم بذلك لعدم وجود مستندات تؤيد ما نقول :

٤- الأثاث :

يتألف الأثاث، فى أغلب الأحيان فى قاعات الاستقبال فى القصور الملكية وفى مساكن الأغنياء من مقاعد مختلفة الأشكال، صناعتها بسيطة فى معظم الحالات وتماثل صندوقا مربعاً، له مسند لا يزيد طوله عن طول اليد الواحدة. وزخرفت جوانبها بغرس من قشور نباتية.

كانت جودة المواد الخام التى يصنع منها الأثاث، ودقة الصناعة تعوضان بساطة صنعه. غير أن المقاعد المثقوبة من ناحية إلى أخرى، كانت أكثر منها فخامة ومريحة إلى أبعد الحدود، لها أربع قوائم على هيئة أرجل الأسد ومسند كبير ومرفقان. أما المقاعد المخصصة للملك والملكة فكانت أكثر روعة، تحلى مساندها ومتكآتها من الواجهة والخلف بنقوش من النحت الرفيع سواء أكانت منقوشة على الخشب أم على الجلد، أم المعدن المطروق كالذهب والفضة والنحاس وترصع بالأحجار الكريمة.

وقد يمثل الملك على هيئة عقاب أو على هيئة أبو الهول يحميه ثعبان الكوبرا أو الصقر أو العقاب الذى يمزق بمخالبه أسيويا أو زنجياً. وتشاهد كائنات غريبة مثل أولئك الذين استجلبوا بثمن غال من بلاد بونت أو من أعالى النيل، وهم يرقصون على دقات الطبول. والملك يتناول من يد الملكة الزهرة التى

تجلب الحب. بينما تربط الملكة عقداً حول رقبة زوجها، وترى رسوم تمثل رءوس أسود أو عقبان أو نساء على حافة المقعد. وفى الناحية الأمامية للمتكآت وبين قوائم المقعد تنمو النباتات الرمزية للجنوب والشمال وتكون علامة هيروغليفة كبيرة هى رمز الاتحاد.

وكان هناك نوعان من المقاعد التى لا مساند لها، وأكثرها بساطة تلك التى كانت أرجلها رأسية، وأكثر منها فخامة تلك التى كانت أرجلها متقاطعة على هيئة العلامة × وتنتهى برأس بطة، وكانت القضبان بدورها تنتهى برءوس حيوانات وكانت الأرضية تفرش بالحصر وعليها الكثير من الوسائد وكانت الوسائد توضع أيضا خلف ظهور الجالسين على المقاعد وتحت أقدامهم. وإذا كان عدد الناس يزيد عن عدد المقاعد، فيجلس آخر من يأتى أو أصغر الموجودين سنا على الوسائد أو حتى على الحصر.

وإذا كانت قاعة الطعام منفصلة عن قاعة الاستقبال ، فإنها تزود بمقاعد وتجلب لها مناضد مستديرة للضيوف، وموائد وأرفف توضع عليها سلات الفاكهة وأطباق اللحوم والخضراوات والأوانى والأكواب. وهذا الأثاث كثير العدد ولكنه صغير الحجم. ولم يفكر المصريون إطلاقا فى عمل مناضد كبيرة يمكن أن يجتمع حولها عدد كبير من الضيوف، فكان من عادة المصرى أن يتناول الطعام وحده أو ضمن مجموعة من اثنين.

ومنذ أقدم الأزمنة، كان يستعمل نوعان من أوانى المائدة فكانت الآنية العادية من الفخار أما الآنية الفاخرة فكانت من الحجر، وكانت تصنع غالبا من حجر الشست الأسود أو الأزرق ومن الرخام الأبيض. وكانت فى النادر تصنع من الرخام الأحمر.

أما الأوانى الكبيرة الحجم فكانت تصنع من الجرانيت. وكانت الكئوس الصغيرة الحجم تصنع من الحجر الصخرى المتبلور (الكريستال) وكانت تصنع

من هذه المواد المختلفة الآنية ذات الشكل الأسطوانى أو البيضاوى والكئوس والأقداح والأكواب والأطباق والبرانى ذات الصنبور والأباريق وسلاطين الحساء والأوانى ذات القاعدة، وقد رسم بعض الصناع ممن وهبوا خيالا واسعا، على سطح أبريق الشبكة التى يقدم داخلها هذا الأبريق، أو يشكلون إناء على هيئة مركب أو حيوان.

ولم تتوقف إطلاقا صناعة الأوانئ الجميلة من الأحجار، ومقابر عهد الامبراطورية الحديثة تقدم لنا منها مجموعة هامة ، ومع ذلك فقد كانت الآنية المفضلة هى التى تصنع من الذهب أو الفضة، وكانوا يصنعون أباريق لتستخدم فى الطقوس الدينية، ويصنعون كثيرا غيرها للاستعمال الدنيوى.

وكانت تحضر المشروبات الساخنة فى أوان على هيئة غلايات ذات مصفاة داخلية مثبتة داخل الصنبور، وتشبه أبارق الشاى التى تستعمل في الوقت الحاضر. كما كان من الممكن صب المشروب الساخن خلال مصفاة يتسرب منها السائل فى قدح يمسكه الشارب، لو فضل ذلك.

وقد هيئ الأبريق المشهور ذو الماعز وهو أحد كنوز بوبسط ليكون إناءً لحفظ اللبن. وكانت الأوانى المخصصة للمشروبات، ذات أشكال مختلفة، فمنها أقداح ذات قاع مستدير وصنبور، وآنية مستديرة ذات مقبض وصنبور وأقداح فى نهايتها مقبض طويل تماثل معيار اللبن فى فرنسا.

وكانت الفناجيل ذات المقبضين والأوانى المستطيلة المزينة ملائمة للزبد والفطائر. وكان يصر رمسيس الثالث، عند قيامه بحملة حربية على أن يحمل ضابط الإمدادات معه إناء كبيرا من الذهب ذا مقبض، سعته ثلاثة لترات تقريبا، كما يحمل قنينة المياه، وكان الذين لا يستطيعون استعمال هذه الأوانى، التى تعد على درجة كبيرة من الفخامة، يكتفون بأوان من الفخار.

وكان صناع الفخار ينتجون منذ زمن قطعا جميلة من الفخار الجيد النوع ويرسمون عليها زخارف هندسية أو صور أزهار أو رسوما حية مثل تلك التى نراها محفورة على الأوانى المعدنية وتمثل طائرا يلتهم سمكة وحيوانات تتسابق راكضة.

ومنذ أول عهد الامبراطورية الحديثة استوردت مصر من الخارج، من الجزر ومن سوريا ومن بلاد النوبة، أدوات كمالية فاخرة مثل أوانى الخلط وجرار الخمر وقواعد الأوانى المصنوعة من المعادن والأحجار الكريمة والتى لم تكن الحاجة إليها ماسة ولكنها كانت تستخدم كوسيلة لتكوين مجموعات من شتى أنواع النبات والحيوان فى البلاد الأجنبية، الحقيقى منها أو الخيالى على السواء.

وكان للمعابد نصيب وافر من معظم هذه الأشياء الثمينة ولكن فرعون كان يحتفظ لنفسه ببعض النماذج الجميلة منها. وقد انتشر ذوق هذه القطع الأجنبية الجميلة بين الأهالى . فبدأ الصياغ المصريون فى صناعة مثيلاتها.

وكان من ضمن الأعمال المكلف بها الأمير قنامون الذي كان يشغل مناصب عليا، تقديم هدايا رأس السنة إلى الملك، وقد سجل على جدران مقبرته، المجموعة الكاملة لتلك الهدايا التى صنعت فى المطانع الملكية.

ويلاحظ بصفة خاصة قطعة من الأثاث رسمت عليها غابة من نخيل الدوم ونخيلات سورية وقد تشابكت مع نباتات النيلوفر وزهور الأقحوان .

وترى قرود تقفز فوق سيقان النباتات لتجنى جمار النخيل. وهناك قطع أثاث أخرى تتفق والذوق التقليدى. وتماثيل من الأبنوس وأخرى من الأبنوس المطعم بالذهب تمثل الملك والملكة فى أشكال مختلفة، إما فوق قاعدة أو في صوان أو على شكل أبو الهول ذى الرأس الآدمى، أو رأس الباز، أو ماعز

وغزلان مستلقية فوق الموائد والصناديق وأعتقد أن كل هذه القطع كانت مخصصة لتأثيث القصور الملكية وقاعات الاستقبال.

أما فى غرف النوم فكان السرير هو القطعة الأساسية. وكان من الأسرة ما هو بسيط الصنع إلى أبعد الحدود. إطار خشبى تقوم عليه عارضة تحملها أربع قوائم، تماثل فى أغلب الأحيان أرجل الثور أو الأسد. وقد حفظت لنا مقبرة توت عنخ آمون أسرة فاخرة، كل ناحية منها على هيئة حيوان كامل، البقرة والفهد، وفرس البحر. وتحتوى الغرفة أيضا على أصونة من الخشب المشغول بالمرصعات حيث كانت توضع بها الملابس الداخلية والثياب.

أما أدوات الزينة كالمرايا والأمشاط ودبابيس الشعر والشعور المستعارة فكانت تحفظ فى صناديق وخزائن مختلفة الأحكام. وأما مستحضرات التجميل كالمراهم والروائح العطرية فكانت توضع فى أوان من الزجاج الطبيعى أو من العاج. أما القاعات المخصصة لأفراد الأسرة كالأطفال والنبات فكانت تترك بها الآلات الموسيقية وصناديق اللعب.

أما قاعات المكاتب فكانت تؤثث بأصونة ذات طابع خاص تزدحم فيها المخطوطات وملفات الرقوق وأوراق البردى وجميع الأدوات التى يحتاج اليها الكاتب. وعندما تكتب ورقة البردى كانت تطوى وتربط ثم تختم وتوضع الملفات فى ربطات.

وتحفظ الربطات فى حقائب من الجلد. وهذه تحفظ بدورها فى الأصونة. ولم يكن الكتاب فى حاجة إلى مناضد ليكتبوا عليها، وكان يكفى الكاتب أن يبسط ورقة البردى على ركبته وهو جالس.

وفى بعض الأحيان كان يكتب وهو واقف قابضا على ورقة البردى باليد اليسرى، دون أن تطوى الورقة. وعندما يفرغ من الكتابة يضع كل أدوات

الكتابة داخل مايشبه حقيبة، ذات سطح مستو، مزودة بقفل ينزلق ليسدها، وفى نهايتها سير تعلق منه.

أما أثاث المطابخ فيتكون من مناضد ذات أربع قوائم وأوعية من الفخار السميك ذات الأشكال والأحجام المختلفة. وكانت الأفران تصنع من الصلصال الذى يتحمل النيران. أما المواقد المعدنية ذات القوائم الطويلة التى كان يشوى عليها الأوز، فلم تكن تستخدم، كما أعتقد، إلا فى المعابد، ولم يكن يلجأ إلى استعمالها طباخ يهوى مهنته.

أما فى المنازل الصغيرة، حيث كان يتجمع كل أفراد الأسرة في غرفة لا تتجاوز مساحتها عشرين مترا مربعا فكانت تقل قطع الأثاث فيها حتى تصبح مجرد حصير، وبعض أوان من الفخار. وهنا كانت بعض الأرفف والصناديق الخشبية تعد على أنها دليل على الثراء.

الجنــازات

١- الشيخوخة :

كتب لنا كل من بتاح حتب الحكيم، وسنوحى المغامر عن الشيخوخة فى صراحة فوصفها بأنها سن القبح، وسن الضعف الجسمانى والمعنوى. ويصبح الإنسان ضعيف البصر، ثقيل السمع، ضعيف الذاكرة، لا يستطيع أن يقوم بعمل إلا وهو يشعر بإعياء شديد، ولا ينتفع بالطعام الذى يأكله.

ومع ذلك فقد كان المصريون جميعا يتمنون أن يبلغوا هذه السن المرذولة، مثلهم فى هذا مثل سائر البشر.

والشيخ الذى احتفظ بمظاهر الشباب بفضل العناية الصحية وبقيت قواه المعنوية سليمة كان يثير إعجاب الجميع. فكبير الكهنة رومى روى أنه قد أقر

بأنه بلغ الشيخوخة وهو فى خدمة آمون الذى غمره بعطفه، حيث يقول :إن أعضاء جسمىْ تتمتع بصحة طيبة- بصرى قوى ، والطعام الذى أتلقاه من معبده يبقى فى فمى.

وقد تناول الحديث فى البلاط الملكى رجلا مسنا من الطبقة الوسطى قيل إنه يبلغ من العمر ١١٠ سنة ويأكل بشهية حتى اليوم خمسمائة رغيف من الخبز، وكتف ثور، ويشرب مائة جرة من الجعة (البيرة) ، ولكن لم يذكر بوجه التحديد إذا كان يأكل كل هذا الطعام فى يوم أو خلال شهر أو فى فصل من فصول السنة أو فى سنة بأكملها.

وكان هذا الرجل المسن ساحرا عالما، وقديرا قويا. فاعتزم فرعون استدعاءه ليقيم بجواره، ووعد بأن يطعمه أطايب الطعام التى يمنحها الملك من المئون المخصصة لأفراد الحاشية ويتمتع بكل ذلك حتى يلحق بآبائه فى الجبانة. وقد كلف ابن فرعون نفسه بالقيام بهذه الدعوة.. فقطع مسافة طويلة من الرحلة فى سفينة، ثم قطع مسافة ثانية على كرسى محمول على محفة لأن العربات لم تكن قد عرفت بعد. فوجد من كان يبحث عنه ممداً على حصيرة أمام باب بيته، وكإن أحد الخدم يروح له بالمروحة، وآخر يدلك له قدميه ... وعندما حياه الأمير، أجابه فى بشاشة قائلا :

«سلام عليك، سلام عليك ياديديف حر، أيها النجل الملكى المحبوب من والده، ليمنحك أبوك خوفو نو الصوت العادل، الثناء العاطر ويعلى شأنك، لتكون مثل من بلغ أشده من الرجال، ولتتمكن روحك (الكا) من إحباط محاولات أعدائك.. ونفسك (البا) تعرف الطريق السرى الذي يوصلك إلى البوابة، فمد الأمير ذراعيه وعاونه على القيام وقاده ممسكا بيده حتى شاطئ النهر.

فوصل الإثنان فى ثلاثة سفن إلى القصر الملكى حيث قابلهما الملك فورا. وعبر الملك عن دهشته لأنه لم يسبق له أن تعرف بهذا المواطن الوقور أكبر

رعاياه سنا، فأجاب الضيف ببساطة نبيلة وكان تعبيره مثالا للملق، قال : «مولاى وسيدى إن من يأتى هو الذى يستدعى، فقد عييت وهأنذا قد حضرت»

وما كانوا يسمونه، فى العرف السائد، بالشيخوخة السعيدة، لم تكن الشيخوخة الخالية من الأمراض أو العاهات بل كان يجب أن يصحبها السخاء أيضا أو على الأقل سعة العيش، والذى يصل إلى مرتبة الشخص المحترم إيماخر لم يكن يكفل له العيش فى أيام الشيخوخة فحسب، بل كان يمكنه أن يعتمد على أن يكون له قبر جميل. فعندما عاد سنوحى من المنفى منح منزلا تملكه، ويصلح لأحد رجال الحاشية.

اشتغل كثير من العمال في بنائه وكانت أعمال النجارة فيه من الخشب الجديد، وليس من مخلفات مبان قديمة، كان يؤتى إلى بالطعام من القصر الملكى ثلاث مرات وأربعا كل يوم، علاوة على ما كان يعدنى به دائما أنجال الملك.

وبعد أن كان سنوحى يتسلم القرابين الجنائزية الملكية، أصبح الآن يقوم بالإشراف على تشييد بيته الأبدى. فزوده بالأثاث ونظم فى دقة كل ما يتعلق بصيانة مقبرته وبالمحافظة على المراسيم الجنائزية. وكان هذا العمل مما يسر له كل شيخ طاعن فى السن، وخاصة إذا كان هذا الشيخ صديقا للملك، وكان للملك أن يمنح أو أن يرفض، وفقا لرغبته، هذا اللقب أماخو المرغوب فيه بين الناس. وبما أن الملك كان بناء على وصف المداحين له، طيب القلب وعادلا وقديرا وعليما بكل شيء.

فقد كان الأهالى واثقين من أنه لن يضن بالإنعام بهذا اللقب على أحد ممن خدموه بإخلاص. وكان كبار رجال الدولة يتخذون أعمال الملك نموذجا يحتذونه.

لقد كان عدد الخدم والموظفين كبيرا لدى حكام المدن والولايات ورؤساء الدين وقواد الجيش، وكل من بلغ من هؤلاء الخدم والموظفين سن الشيخوخة كان السيد الرحيم يلحقهم بوظيفة يسيرة تتناسب وقواهم المضمحلة وبذلك يكفل لهم العيش والمأوى إلى أن تحين ساعتهم.

لذلك كان فرعون، بالرغم من أنه لم يغفر لسنوحى فراره عندما كان فى سن الشباب لايرغب فى أن يحرمه من حقوقه الأساسية، فسمح له بأن يعود إلى مصر عندما علم أنه أصبح على وشك الشيخوخة.

ذلك أن مصر لم تكن تفرط فى شيوخها كما لم تكن تضحى بأبنائها. على أنى لا أريد أن أجزم بأنه لم يحدث فى هذه الأرض المباركة أن وارثا متعجلا أنهى عمر أحد مورثيه الذى أبدى جهارا وفى إصرار عن رغبته الملحة فى أن يعيش إلى سن العاشرة بعد المائة.

لقد حدث أن ملوكا خلعوا عن عروشهم، ولكن يلاحظ أن أمنمحات الأول الذى حكم نحو عشرين سنة. عهد بالحكم الفعلى إلى ابنه.

وقد عاش بعد ذلك حياة مستقرة مايقرب من عشر سنوات، استطاع خلالها أن يدون وصاياه الصارمة. والملك أبريس، وقد هزم وخلع عن عرشه، ربما استطاع أن يحتفظ بحياته، لو أنه لم يستثر غضب المصريين بقسوة لا مبرر لها.

وعلى الجملة فقد كانت مصر من البلاد التى تعنى بالمعمرين فى حياتهم.

٢- وزن الأعمال :

يخطىء كثيراً من يعتقد أن المصريين القدماء كانوا يرغبون فى الانتقال من أرض الأحياء، فهم يعلمون أن الموت لا يستمع لأى شكوى إنه لا يلين

لضراعة أو شفاعة. وعبثا يتذرع الإنسان بأنه لايزال شابا «إذ أن الموت يختطف الطفل وهو رضيع من بين ثديى أمه.

كما يدرك الرجل عندما يصبح طاعنا فى السن» وعلى كل ، «فما قيمة تلك السنين التى يعيشها الإنسان على الأرض مهما طالت؟ إن الغرب هو أرض الرقاد والظلام الحالك، هو المكان الذى يقيم فيه من جاء إليه، وهؤلاء الراقدون المكفنون فى لفائفهم لا يستيقظون إلا لرؤية أخوتهم.

ولكنهم لا يرون آباءهم ولا أمهاتهم وتنسى قلوبهم زوجاتهم وأولادهم، والماء العذب الذى تمنحه الأرض لمن يعيش عليها هو بالنسبة لى ماء آسن، يأتى الماء بالقرب ممن كان على الأرض، أما الماء الذى يجاورنى فهو آسن .»

إن خير ما يعبر به رجل متدين عن العالم الآخر هو أن الإنسان يتخلص فيه من منافسيه ومن أعدائه، وأنه وجد الراحة أخيرا، كما يلاحظ أن بعض المتشككين أخيرا. يذهبون إلى القول بأنه «لا يعود إلينا أحد من الموتى ليقول لنا كيف حال المتوفين وماذا ينقصهم حتى تطمئن قلوبنا إلى أن تأتى الساعة التى سنذهب فيها بدورنا إلى حيث ذهبوا». ويقول هذا الحكيم أيضا «إن كافة المقابر تنها ، وقد طمست أيضا معالم مقابر الحكماء القدامى، كأن لم توجد من قبل».

ومع ذلك لم يستنتج من قول هذا الحكيم أنه من العبث أن يعد المرء مقبرته فى مثل تلك العناية وأن يفكر فى أمر الموت، قبل أن يأتيه بمدة طويلة، ولو أنه قال ذلك، ما استطاع أن يقنع معاصريه. لأنهم كانوا وهم فى عهد رمسيس، يماثلون أسلافهم من عهد بناة الأهرام، يقومون بإعداد انتقالهم من هذا العالم إلى الآخرة، فى عناية ودقة. لأن انتقال الموتى إلى العالم الآخر، كان يعد اختبارا رهيبا: إنه وزن أعمالهم. فالملك الطاعن فى السن الذى حرر وصاياه لمرى كارع، كان يحذر ابنه من القضاة الذين يظلمون الناس. وقد قاده هذا الموضوع إلى الحديث عن نوع آخر من القضاة:

«يجب ألا تؤمن بأن كل شيء سينتهي إلى عالم النسيان في يوم الحساب، لا تعتمد على طول سني الحياة، فإن الحياة عند الآلهة ساعة واحدة مما تعدون، ذلك أن حياة الإنسان تستمر بعد وفاته، وأن أعماله تتكدس بجواره. ومن تقدم بين يدي قضاة الموتى دون ذنوب، كان بمثابة إله. واستطاع أن يسير في حرية مثله في هذا مثل سادة الأبدية .

لقد واتت ستنا ابن رمسيس أوسر مارع، فرصة لا مثيل لها، إذ دخل الأمنتيت حيا، حيث شاهده الإله الكبير أوزيريس جالسا على عرشه الذهبي الخالص، متوجا بالتاج ذي الريشتين وعن يساره الإله الكبير أنوب، وعن يمينه الإله الكبير نحوت كما كان عن يساره آلهة بصح البشر في الأمنتيت، وعن يمينه الميزان المقام في الوسط أمامهم حيث كانوا يزنون السيئات مقابل الحسنات.

بينما كان الإله الكبير تحوت يقوم بدور الكاتب المسجل، وأنوب يتحدث إليهم، كان المتهمون يقسمون إلى ثلاث فئات : فئة كانت سيئاتهم تفوق كثيرا حسناتهم، وهؤلاء يسلمون إلى الكلبة المريعة أمابيت وفئة كانت فضائلهم تفوق رذائلهم، وكان هؤلاء يقادون لينضموا إلى مجلس الآلهة. وفئة أولئك الذين كانت سيئاتهم تعادل حسناتهم كانت توكل لهم خدمة المعبود سوكر أوزريس بيوتهم مثقلون بالتمائم.

كان المصريون يعرفون تماما أن عددا قليلا جدا منهم سوف يمثل أمام القاضي الأعظم، دون أن تكون له ذنوب، فكان ينبغي لهم إذن الحصول من الآلهة على الصفح عن السيئات وأن يتطهروا من أدرانهم. وكان هذا الرجاء شائعا جدا بين الناس وكثيرا ماذكر في الصلوات الجنائزية.

«لقد أنمحت خطاياي وطرحت ذنوبي جانبا وانهارت معاصي» أنك تلقى «بخطاياك لدى نن نسوت.

«تطهرك الساحرة الكبرى .. عليك أن تعترف بخطيئتك التى سوف تمحى، لعمل أشياء مقابل كل ماتكون قد قلته. تحية لك يا أوزيريس فى ديدو إنك تستمع لحديثه، فتمحو ذنوبه، وترفع صوته فوق صوت أعدائه وتثبت قواه فى محكمة هذه الأرض إنك ثابت بينما يسقط أعداؤك، وكل ما يقال عنك من شر، لا وجود له. إنك تمثل بين يدى مجلس الآلهة الكبير وتخرج منه صادق القول»

وقد وضع الفصل الخامس والعشرون بعد المائة بأكمله من كتاب الموتى لتخليص المذنبين من أدرانهم وخطاياهم، وكأن المصريين ينسخون هذا الفصل على ورق البردى ليوضع داخل التابوت بين ساقى المومياء. ويخيل لقارىء هذا الفصل بأن ماجاء به ما هو إلا قرار سابق لمحاكمته.

لكنها محاكمة يدور كل شىء فيها على خير مايرام، ولسبب لا نعلمه، سميت قاعة المحكمة، قاعة الحقيقتين، يجلس فيها أوزيريس على العرش داخل معبد صغير، وتقف خلفه شقيقتاه، أيزيس ونفتيس، بينما يصطف فى الداخل أربعة عشر من النواب، وقد نصب فى وسط القاعة ميزان كبيرا، حلى مسنده (فى أعلاه) تارة برأس الحقيقة وتارة برأس أنوبيس أو رأس تحوت.

ويتربص وحش بجوار الميزان لحراسته. ويلاحظ فى وسط القاعة كل من تحوت وأنوبيس وفى بعض الأحيان هورس والحقيقتان وهم جميعا منهمكون فى العمل ويقوم أنوبيس بإدخال الميت مرتديا ثوبا من الكتان فيحيى القاضى وكافة الآلهة الحاضرين، قائلا: تحية لك أيها المعبود الكبير، سيد الحقيقتين.

لقد أتيت إليك ماثلا أمامك. وعندما أحرضونى إليك رأيت كمالك، إنى أعرفك وأعرف إسمك وأعرف إسم الاثنين والأربعين معبودا الذين بجوارك فى هذه القاعة : قاعة الحقيقتين، إنهم أولئك الذين يعيشون حراسا يراقبون الأشرار ويرتوون من دمهم فى هذا اليوم الذى أعد لوزن الطباع والأخلاق أمام الكائن

الطيب، ثم يسرد تصريحا مطولا عن براءته فى عبارات سلبية: «لم أرتكب إثما ضد البشر لم أسء معاملة أحد من رجالى لم أكلفهم القيام بعمل ما فوق طاقتهم لم أفتر على الآلهة ولم أعذب الفقير، لم أجوع أحدا ولم أطفف فى الكيل، لم أقلل فى القياس بالقصبة، لم أغش فى مساحة الحقول ولم أقلل فى الوزن، لم أحذف شيئا من ثقل الميزان، لم أغش فى الوزن، لم أنزع اللبن من فم الأطفال الصغار لم أعوق سير المياه فى موسم الفيضان، لم أعطل سير الإله عند خروجه».

وبعد أن يكون قد دافع عن نفسه ستا وثلاثين مرة بأنه لم يقم بعمل ماهو مكروه فى نظر الأتقياء، ينتهى إلى القول بأنه كان طاهرا، لأنه كان أنف معبود النسمات، منبع حياة كل من عاش فى مصر. ثم يكرر ما قاله لإظهار براءته كأنه يخشى ألا يصدقوه، فيعيد إقراره الدال على براءته، متوجها نحو الاثنين وأربعين معبودا بالتوالى، والذين كان قد حياهم عند دخوله القاعة.

وهم يحملون ألقابا مفزعة مثل : واسع الخطوة، مبتلع الظلام، مهشم العظام، آكل الدم، الصائح، معلن القتال، وبعد أن يذكر كل إسم ينفى ذنبا من ذنوبه، ويستطرد قائلا إنه لم يكن يخشى أن يقع تحت طائلة سلاح القضاة لا لأنه لم يسب الإله ولم يهن الملك فحسب.

ولكن لأنه قام أيضا بعمل ما قاله الناس وما وافق عليهي الآله. فإنه قد أرضى الإله بعمل ما يحبه، أعطى الخبز للجائع والماء للعطشان، وكسى العارى وأعار معديته لمن أراد عبور النهر. وهو ممن يقابلون بالترحاب حين يراهم الناس فقد قام بعمل الكثير من أعمال البر والتقوى تلك الأعمال التى تستحق المديح.

ومن أمثلة ذلك أنه استمع إلى حوار القطة والحمار الذى تأسف جدا لعدم معرفتنا له. ولم يكن ليبقى إلا أن نستخلص النتيجة العملية من هذه التجربة أو هذا الاختبار، فعلى إحدى كفتى الميزان وضع قلب من نجرى محاسبته وعلى

الكفة الأخرى تمثال صغير للحقيقة، ولكن ماذا يحدث لو افترضنا أن القلب قد تكلم، فكذب صاحبه : لتلافى هذا الخطر صيغ الابتهال، موضوع الفصل الثلاثين من كتاب الموتى وهاك نصه:

يا قلبى ويا قلب أمى ويا مصدر تصرفاتى لا تشهد ضدى[1] ، لا تعترضنى أمام القضاة، لا تجعل وزنك يعلو فى غير مصلحتى أمام سيد الميزان فإنك الروح فى صدرى والخالق الذى يمنح السلامة لأعضاء جسمى، لا تسمح بأن تفوح من إسمى رائحة كريهة، لا تقل أكاذيب ضدى أمام الآلهة» ويعد أن يناشد القلب بهذا التوسل، يستمع صامتا إلى هذين الاعترافين.

وكانت النتيجة محققة النجاح، فإن أنوبيس يوقف ذبذبة الميزان ويعلن أن الكفتين متوازيتان ولم يبق على تحوت إلا أن يسجل نتيجة هذا الوزن مقررا أن الطالب قد انتصر وأنه ما ع خرو صادق القول.

وبهذا ينضم إلى مملكة أوزيريس أحد الرعايا الجدد. أما الغول الذى كان يأمل فى أن يلتهم هذا القادم الجديد فإنه يظل باقيا فى انتظاره.

هل كان المصريون يعتقدون حقيقة أنه يكفى أن ينكر الإنسان ذنوبه كتابة ليمحوها من ذاكرة الآلهة والناس. قد ورد فى بعض المؤلفات الحديثة عن العقيدة الدينية للمصريين القدماء أن الفصل الخامس والعشرين بعد المائة من كتاب الموتى هو نص سحرى، وكلمة سحر، تعنى أشياء كثيرة.

يجب على علماء الآثار المصرية ألا ينسوا أبدا أن الكتاب الذى يشمل البحث عن طريقة إعادة الرجل الطاعن فى السن إلى شاب يافع، قد وصف بأنه

---

(١) يبدو أن هذه العقيدة مأخوذة عن رسالة سماوية ولكنها حرفت ، يقول الله تعالى : «يوم تشهد عليهم أيديهم وأرجلهم بما كانوا يكسبون». وقال تعالى : «وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شئ» .

نص سحرى، وعندما تمت دراسة هذا المؤلف، تبين أنه عبارة عن وصفات للتخلص من مظهر الشيخوخة البغيضة مثل التجعدات والحبوب واحمرار الجلد.

ويبدو أن مصنف الوصايا لمرى كارع، عندما قرر أنه لا يمكن لإنسان أن يخدع القاضى الأعظم، فلم يكن إلا معبرا عن الرأى السائد فى هذا الصدد، ويمكن التأكيد أن المصرى عندما يكون قرر أنه طاهر، أو زعم فى إصرار بأنه لم يكن قد اقترف ذنبا، فربما يكون قد تخلص حقا، خلال حياته من ذنوبه وثقل خطاياه. هذا هو الاعتقاد الجازم الذى كان يحرره من الخوف من الآخرة.

وكان الهدف الجوهرى أن يعلن أنه أصبح ماع خرو أعنى الصادق القول، ولم يكن أحد يستحق هذا اللقب إلا إذا دافع شفويا عن نفسه أمام القضاة وليس من الممكن إحصاء عدد المصريين الذين دونت أسماؤهم على اللوحات التذكارية أو الجنائزية أو التوابيت أو جدران المقابر وقد وصفوا بأنهم ماع خرو.

وقد ظن البعض أن هذه العبارة هى مجرد أمنية دينية كان يستعملها الأحياء إما لأنفسهم أو لأقاربهم أو لأصدقائهم وأن هذه الأمنية لاتستجاب إلا فى الآخرة.

وكان هذا الاعتقاد سائدا إلى حدا أن أصبحت عبارة ماع خرو تعتبر عمليا كأنها مرادفة لكلمة المرحوم. وعلى كل ، فإننا نعلم أن أفراد من المصريين كانوا قد حملوا هذه العبارة أثناء حياتهم كان هذا هو حال خوفو الذى اتهمه الإغريق بعدم التقوى، فى حين أنه كان ماع خرو عندما كان يستمع لأولاده وهم يقصون عليه الواحد تلو الآخر قصص السحرة وكان هذا أيضا حال بارمسيس وقت أن كلفه حورمحب بإدارة أعمال معبد أوبت الكبرى قبل أن يصبح الملك رمسيس الأول كما كان حال كبير شعب باشيشنق ولم يكن قد ولى بعد، ملكا باسم شيشنق الأول .

ورباكن خونسو كبير كهنة آمون، كان ذا صوت عادل عندما تفضل عليه رمسيس الثانى وسمح له بأن يقيم تماثيله فى المعبد حيث اختلطت بجماعة المرضى عنهم وكان رعمر رمسيس الثانى حينذاك ٩١ سنة.

وقد عاش بعد ذلك بضع سنوات. وأحد خلفائه. رمسيس ناخت كان أيضا قد لقب بذى القول الصادق (ماع خرو) كما نرى ذلك فى نقوش وادى الحمامات التى تسرد موضوع الحملة الكبرى التى أرسلها رمسيس الرابع إلى جبل بخن فى السنة الثالثة من حكمه.

ولكنه كان حيا أيضا فى السنة الرابعة فى عهد ملك يرجح أنه لم يكن إلا رمسيس الرابع أو رمسيس الخامس.

هذه الأمثلة تكفى لإثبات أن المصريين كانوا يسبحون ماع خرو فى حياتهم وهم لايزالون يسيرون على أقدامهم.

ولكن كيف كان الحصول على هذا اللقب الجميل مستطاعا؟ وقد كان أوزيريس أول من حمل لقب ماع خرو. وعندما كانت زوجته الوفية قد ردت إليه الصحة الكاملة والحياة، كان هو قد رفع دعوى ضد قاتله ست أمام المحكمة المقدسة برياسة الإله رع وتمكن من استصدار حكم بادانته.

ولم ترض إيزيس أن تظل معاركها وعلامات تفانيها وإخلاصها لزوجها مغمورة فى عالم النسيان ولذلك قامت بوضع أسرار جد مقدسة يتخذها البشر مثالا ووسيلة للتسلية. وفى هذه الأسرار كانت تمثل الآلام التى تحملها أوزيريس وكانت لاتزال تمثل حتى عصر هيرودوت.

وفى الأزمان القديمة التى ترجع إلي عهود أقدم من ذلك بكثير بجانب تمثيل أيضا معركة أنصار أوزيريس لتخليص جسد سيدهم والعودة به منتصرا إلى معبد أبيدوس. كما مثلت أسرار المحاكمة.

وقد ورد فى الفصل الثامن عشر من كتاب الموتى بيان عن المدن المحظوظة التى جرى فيها تمثيل هذه الأسرار وهى : أون وديدو ورايميت وخم وبيه ودب ورختى ، فى الدلتا وروسيتاو وهو أحد أحياء مدينة منف ونارف فى مدخل الفيوم وأبيدوس فى مصر العليا .

ويدعى أن كل مصرى تقى كان يمكنه أن يضمن خلاصه فى الحياة الأخرى إذا هو اتبع ماقام به أوزيريس. فقد ورد فى نهاية الفصل الخامس والعشرين بعد المائة تحذيرا لايمكن توجيهه إلا إلى الأحياء : يتلى هذا الفصل حين يكون المرء نظيفا ونقيا، مرتديا ملابس الحفلات، ومنتعلا نعلا أبيض اللون مكحول العينين بالكحل الأسود، مدهون الجسم بالزيوت والبخور من أجود الأنواع.

وبعد تقديم لربان كامل من العجول والطيور والترينتين والخبز والبيرة والخضر، وقد أضاف أيضا النص المقدس ما يأتى : «ومن قام بعمل ماذكر لنفسه فإنه يصبح فتيا ويكون أولاده أشداء، وينال رضا الملك وكبار الدولة ولا ينقصه شىء إطلاقا، وينتهى أخيرا بأن يكون من حرس أوزيرس، ويمكن الآن أن نتصور سر هذه المحاكمة التى كان يمكن أن يتخلص فيها المصريون من ذنوبهم.

ومن كان منهم يعتبر أن أيامه معدودة وأنه على وشك الرحيل إلى الأبدية، إما لأنه أصبح شيخا أو لأنه مريض، وإما لأن إحدى التحذيرات السرية التى كان يبعث بها أوزريس فى بعض الأحيان إلى من سيلحقون به قريبا فى مملكته قد مسته. فإن هؤلاء جميعا كانوا يتجهون أفواجا إلى إحدى تلك المدن التى ذكرتها سابقا. وكانوا يتخذون لأنفسهم الاحتياطات المبينة فى الوصية التى سبق أن أشرت إليها : فكانوا يحرصون بنوع خاص بألا ينسوا أن ينفقوا مايلزم لتقديم القربان الكامل.

وتوحى تلاوة الفصل الخامس والعشرين بعد المائة بأن سر المحاكمة كان يشمل فصلين . فأوزيريس، هو الذى يقوم فى أول الأمر بإثبات براءته، فيخاطب المعبود رع ويثبت بست وثلاثين عبارة ، السالفة الذكر، بأنه لم يرتكب إثما فى أى لحظة من السنة. فيردد المؤمنون بدورهم صدى هذا الإقرار المعبر عن البراءة ويشعرون بارتياح وقوة للحكم الذى صدر ببراءة العابد.

ولم يكن هذا مع ذلك كافيا. فيترك أوزيريس أريكة المتظلمين (المتوسلين) ليجلس على مقعد القاضى، فيقوم المؤمنون بتلاوة الاعتراف الثانى السلبى ويتقدمون كل بدوره نحو الميزان، الواحد بعد الآخر وكل منهم يحمل شكل قلب من اللازورد نحت عليه إسمه.

ويوضع هذا القلب فى إحدى كفتى الميزان ويوضع في الكفة الأخرى تمثال يمثل الحقيقة، ويستطيع كل من الحاضرين أن يتحقق من أن الكفتين متعادلتان فيعلن رسميا بأن المدان «طار الصوت» ويسجل ذلك. وكان يمكنه أن يعود، بعد ذلك إلى مقره وهو متأكد من أن أبواب الآخرة لن تغلق فى وجهه.

٣- إعداد المقبرة :

الآن وقد أصبح كل مصرى مطمئن النفس فلم يعد له إلا أن يكرس كل جهوده لبيته الأبدى.

أما الملوك فكانوا يبادرون دائما إلى عمل ذلك قبل أوانه بزمن طويل، ذلك أن بناء هرم ولو كان متوسط الحجم لم يكن أمراً هينا فكانت توفد بعثات كبيرة حقيقية لنقل كتل الجرانيت والمرمر حتى هضبة الجزيرة أو سقارة.

ومنذ بداية عهد الامبراطورية الحديثة نقلت الجبانة الملكية إلى وادى الملوك غربى طيبة. وخلفاء رمسيس الأول، بالرغم من أنهم كانوا أصلا من الدلتا. فقد قلدوا هؤلاء الذين خلعوهم ليتولوا العرش مكانهم واستمروا فى الحفر فى جبال

طيبة لإنشاء هذه السراديب التى كان يبلغ طولها أحيانا نحو مئة متر، وكانت تزخرف جدرانها بزخارف عجيبة تملأ كل جوانبها وغرفها.

وتمثل هذه النقوش رحلة رع الليلية فى المناطق الاثنتى عشرة فى العالم السفلى، ومكافحته ضد أعداء النور، وليس شىء من كل هذا يذكر ما قام الملك بعمله خلال حياته. لم تكن هذه النقوش تتعلق بالزائرين إذ أن المقبرة الملكية لم تكن قد أعدت لاستقبال أى زائر، فإنها كانت مكانا مغلقا وكان ينبغى أن يظل مدخله سريا.

ولكن مقابر الأفراد كانت على عكس ذلك تماما، كانت المقبرة تحتوى عادة على جزئين مختلفين تماما، القبر ويحفر داخل بئر ويكون فى عمقه، وأعد لدفن الميت. وعندما يرقد المتوفى فى تابوته بعد إتمام المراسيم الأخيرة، بسد مدخل القبر بإقامة جدار عليه وتردم البئر وبعد ذلك كان يجب ألا يقلق أحد وحدته. وكان يقام فوق هذا القبر مبنى أعد لزيارة الأحياء. وواجهة هذا المبنى كانت تقام داخل فناء، حيث تعرض لوحات تذكارية وجنائزية تتناول كل ما كان للمتوفى من فضائل وكل ما قام به من خدمات، بقصد إثارة إعجاب الأجيال القادمة.

وفى داخل هذا الفناء، وبجوار حوض المياه قد تغرس أشجار النخيل والجميز وكان هذا الفناء يؤدى إلى قاعة عرضها عادة أكبر من طولها أما زخرفتها فكانت أخاذة حقا. إذ أن سقف القاعة نفسه قد زخرف بزينات نباتية ورسوم هندسية ذات ألوان زاهية. والنقوش التى تكسو الجدار أو الأعمدة كانت تمثل حياة المتوفى فى أعظم مراحلها الخاصة.

وبوصفه من كبار الملاك كان يراقب أعمال الحقل وقنص الغزلان فى الصحراء ويلقى عصا الرماية على الطيور المائية والحربة على فرس البر ويساهم

كذلك فى صيد السمك. وكرئيس لورش آمون كان يشرف على أعمال النقاشين والنحاتين والصياغ والنجارين الذين يعملون فى خشب الأبنوس.

ويوصفه أحد كبار الموظفين كان يجمع ايرادات المملكة. وكجندى ، كان يقوم بتدريب المجندين الجدد. وقد رسم وهو فى قاعة العرش، يقدم للملك أفواجا عديدة من المندوبين الأجانب الذى وفدوا من بلاد لا تعرف مصر. وظهورهم محدوبة تئن من ثقل الجزية التى يحملونها ملتمسين من الملك نسمة الحياة.

وبعد أن يقوم الزائر بتفقد هذه القاعة يجد نفسه فى ممر كبير، يرى على جدرانه المتوفى وهو فى سفينة متجهة نحو أبيدوس ونرى على الجانب الآخر من الممر مراحل الدفن وقد تمت طبقا للمراسيم المعروفة. ويؤدى هذا الممر إلى قاعة أخيرة لا تعبر النقوش التى على جدرانها إلا عن مدى تقوى المتوفى، فيرى وهو يعبد الآلهة وكان يصب المياه المقدسة تكريما لهم، ويقدم لهم موقدا تتأجج فيه النيران، ويتلو الأناشيد وفى مقابل ذلك، كان يكافأ بالتهام الأطعمة التى تتجدد دائما والتى كان يستحقها نظرا لتقواه وفطنته.

وبديهى أن التابوت كان أهم قطعة فى الأثاث الجنائزى. وكان نفر حتب فى حياته قد تفقد أكثر من مرة المصنع الذى كان يصنع فيه تابوته فشاهد بهذا مثواه الأخير، محمولا فوق مقعدين صغيرين والعمال حوله. بعضهم جالسون وبعضهم واقفون وكلهم عاكفون على تلميعه والحفر عليه وصلاته بالرسوم. كما شاهد أيضا الكاهن وهو يرش عليه المياه المقدسة.

ولم يكن الملك ولا الأغنياء يكتفون بتابوت واحد -فكانت مومياء بسوسنس بالرغم من أن القناع الذهبى يحميها، كانت موضوعة داخل تابوت فضي على شكل مومياء، وهو موضوع في تابوت آخر من الجرانيت الأسود يطابق التابوت السابق تماما فى شكله.

وكان تابوت الجرانيت موضوعا بدوره داخل صفحة مستطيلة الشكل متسعة نوعا ومزخرفة من الداخل ومن الخارج برسوم تمثل الآلهة المكلفة بحراسة المومياء. وقد رسم على طول الغطاء المقبب صورة المتوفى متسما بصفات أوزيريس.

بينما رسمت على غطاء التابوت من الداخل المعبودة نوت إلهة السماء تحوط بها القوارب ومجموعات. الكواكب وجسمها الدقيق الرشيق يمتد بضعة سنتمترات فوق تابوت الجرانيت الأسود. أما الملك فيتمتع بجمال المعبودة وهو محدق فيها دائما بعينيه المصنوعتين من الحجر، بينما تمنحه تلك المعبودة قبلة الأبدية..

وبهذا تتحقق أهم التمنيات التى كان يرجوها كل مصرى لحياته الأبدية ، وهى أن يصبح من سكان السماء سائحا بين النجوم التى تجهل الراحة والكواكب السيارة التى تجهل الهلاك.

وقد نقشت عيون على جانب التابوت، يستطيع أن يرى من خلالها إما رع أو أوزيريس وكذا الأبواب التى كان يعبرها كلما أراد الخروج من قصره أو العودة إليه. وبديهى أن الأثاث كان يختلف من ناحيتى النوع والفخامة طبقا لمقدرة المتوفى.

فكان أثاث توت عنخ آمون يفوق كل خيال أو تصور : أسرة للزينة وأسرة للراحة وأرائك وعربات ومراكب ودواليب وصناديق وخزائن. ومقاعد ذات مساند ومقاعد عادية ومقاعد صغيرة. وكافة أنواع الأسلحة وكافة أنواع العصى المعروفة فى عصره، وأدوات للزينة ولعب وأطباق وأدوات للمائدة وأشياء خاصة بالعقيدة الدينية.

وبوصفه عضوا فى مملكة أوزيريس، كان علي الملك أن يكرر فروض

التقوى التى كان قد قام بها فى حياته، وكرب أسرة ومليك كان عليه أن يواصل استقبال أطفاله وأقاربه وأصدقائه، ورعايا مملكته. وكان عليه أن يمدهم بالطعام، وليتمكن من تحقيق هذه الفكرة، كانت تعد له أطباق وأدوات بوفرة. وكانت توضع جانبا، قطع عديدة من أوانى المائدة الملكية، بقصد نقلها إلى المقبرة، كما كانت تطهى الطيور أيضا وقطع اللحوم والفاكهة والحبوب والمشروبات، وعلى الجملة كل مايؤكل ويشرب.

كان يستكمل التابوت بخزانة خشبية أو حجرية وبأربع أوان. تلك التى نسميها خطأ الأوانى الكانوبية. وكانت هذه الأوانى معدة لتوضع فيها أعضاء الجسم الداخلية التى تنزع منه أثناء عملية التحنيط، وكانت الأوانى توضع تحت رعاية الآلهة الأربع والآلهات الأربع، فأمست أحد هذه الآلهة كان له رأس آدمى، وحابى له رأس قرد يشبه الكلب.

وله رأس ابن آوى وقبح سنوف له رأس صقر. فغطاء الإناء الأول كان يمثل رأسا آدميا، بينما كانت الثلاثة الأخرى تمثل إما رأس قرد أو ابن آوى أو صقر. وكان بعض المرهفين يظنون أن هذا غير كاف ولذلك كانت تصنع لهم توابيت صغيرة من الذهب أو الفضة ذات أغطية وأوعية تشبه التوابيت الحقيقة. وكانت توضع فيها اللفائف الصغيرة المحنطة ثم توضع هذه التوابيت الأربعة الصغيرة فى أوان من المرمر.

إن حقول يالو التى كان أوزيريس مسيطرا عليها كانت بمثابة حديقة كانديد ، تعد أجمل بقعة فى العالم، ولكن كان يجب أن تمهد للزراعة كما تمهد أى أرض زراعية حقيقية، فيجرى حرثها وبذرها، واقتلاع حشائشها وحصدها. وصيانة قنوات الرى بها وإجراء أعمال أخرى لا ندرك بالضبط مدى فائدتها، إذ كان يجب مثلا نقل الرمل من شاطئ نهر إلى الشاطئ الآخر.

وهذه الأعمال التى يعتبرها مالك أرض أعمالا طبيعية وضرورية كانت بالعكس، لا تطلق بالنسبة لأولئك الذين قضوا حياتهم فى البطالة أو كانوا يمارسون مهنة أخرى غير مهنة الفلاحة.

لم يعتقد أى شعب بقدر ما اعتقد المصريون بأن التماثيل سواء التى تمثل أشياء أو أحياء كان لها إلى حد كبير قوة فعالة وخواص الشيء الذى تمثله، وبذلك يكون قد وجد الدواء تماما. كان يكفى أن تصنع تماثيل ليكون فى إمكانها أن تقوم بعمل المتوفى نفسه.

وكانت هذه التماثيل تصنع من الخزف المطلى، وبعض الأحيان من البرونز، وكانت على شكل مومياء. وفى بعض الأحيان كان الوجه يشبه وجه شخص بالذات. وإننا نعتقد بحق بأن المقصود فعلا كان تصوير شخص بالذات.

وإذا لم يقصد من التمثال الشبه التام فإن الغرض من صنعه قد يصل إليه الإنسان على أى الحالات بالكتابة المنقوشة عليه أو فوق قاعدته على الأقل، وذلك بذكر إسم ولقب الشخصية المقصودة والتى سيحل التمثال محلها، أوزيريس كبير كهنة آمون رع سونتير حورنحتى،

وكثيرا ما كان النص الذى ينقش على قاعدة التمثال يبين تماما الأعمال التى ينبغى للتمثال أن يؤديها.

فقد كتب على قاعدة تمثال أوزيريس «أيها التمثال إذا كان أوزيريس قد نودى عليه واستدعى وكلف بالقيام بكل الأعمال التى يجب أن تعمل هنا، فى الجبانة. كما يقوم الإنسان بعمل ما يخصه لاستغلال حقوله ورى أراضيه ونقل الرمل من الشرق إلى الغرب ومن الغرب إلى الشرق، واقتلاع الحشائش الضارة كما يعمل الإنسان تماما فى أموره الخاصة، فما عليك إلا أن تقول : هانذا أفعل».

وعندما اندفع المصريون نحو هذا الاتجاه، ضاعفوا من صناعة هذه التماثيل ليتلافوا إلى الأبد القيام بأعمال السخرة الثقيلة الوطأة. وكانوا يقومون بنقش الآلات والأجولة بين أيدى التماثيل أو على ظهورها ويضمون إلى العمال الكتبة والملاحظين إذ كان لا مفر من أن يوجد الموظف الذى تستدعى الضرورة وجوده بجوار كل فرقة من فرق العمال الزراعيين.

وأخيرا صاروا يصنعون بالجملة كل أنواع الآلات والأشياء فى صورة مصغرة ويضعونها تحت تصرف التماثيل الصغيرة. فكانوا يصنعون مثلا «النير» للسقائين وحامل الرمال وسلالا ومقاطف وفئوسا ومعارك إما من البرونز وإما من الخزف. وهذه الأدوات كان يكتب عليها إسم التماثيل التى كانت تخصها وذلك لتلافى سرقتها أو استخدامها فى أغراض غير التى قصدت منها أصلا.

وقد أوحت هذه الفكرة إلى صناعة تماثيل صغيرة، تصور نساء عاريات لوضعها فى خدمة المتوفى. فكان الملوك والأمراء محظيات فى حياتهم ولم يرغبوا فى فقد هذه العادة التى ألفوها فى العالم الآخر، فقد وجدنا من هذه التماثيل فى مخدع بسوسنس. كان البعض منها يحمل إسما ينتمى إلي أصل ملكى والبعض الآخر مجرد إسم امرأة. وإننا لنشفق على هذا الملك لو أنه كان يختار محظياته فى حياته كما لو كان يختار عرائس يلهو بها.

كانت المومياء مغرمة بالزينة وبالحلى تماما مثل الأحياء. وعلي كل حال فقد كانت المومياء تزين غالبا بالجواهر التى كان يستعملها المتوفى أثناء حياته، وفى أغلب الأحيان كانت تصنع جواهر وحلى جديدة لهذه المناسبة.

وهاك قائمة بما كان يلزم لمومياء ملك أو أحد كبار الشخصيات: القناع من ذهب إذا كان للملك أو للأمراء المقربين من أصل ملكى ومن الورق المقوى

أو من المصيص المطلى إذا كان للأفراد. الجيد ويتكون من لوحتين رقيقتين صلبتين من الذهب مغلفتين على شكل نسر مبسوط الجناحين.

قلادة واحدة أو أكثر من الذهب، ومن الأحجار ومن الخرز المصنوع من الخزف مكون من عدة صفوف من الخرز أو قطع صغيرة ولها قفل واحد أو قفلان، وتزود فى بعض الأحيان بدلاية من الذهب أو من الأحجار المتساوية الحجم من الخزف. وبحلية للصدر واحدة أو أكثر من حلية ذات سلاسل. والشكل الذى كان يستعمل عادة هى الجعارين المجنحة حاملة فى أجنحتها زيزيس ونفتيس.

وكان ينقش على ظهر الجعران دعاء القلب المشهور : «ياقلبى، وياقلب أمى ويا أيها القلب الذى لازمتنى فى جميع أطوار حياتى، لا تقف لتشهد ضدى أمام القضاة ولا تجعل كفة الميزان تثقل فى غير مصلحتى أمام حارس الميزان إذ أنك الروح (الكا) التى فى جسدى والإله خنوم الذى يحرص على أن تكون أعضاء جسمى سليمة، لا تجعل اسمى تفوح منه رائحة كريهة ولا تسىء إلى سمعتى ولا تفتر على الكذب أمام الإله.

جعارين أخرى بعضها ذات أجنحة والبعض الآخر ليس له أجنحة، تحمل نقوشا ولكنها دون إطار. وقلوب من أحجار اللازورد ذات سلاسل نقش عليها اسم المتوفى.

أساور بعضها لين وبعضها صلب، بعضها مفرغة، وبعضها صب للمعاصم وللأذرع وللأفخاذ ولقصبة الأرجل وحلية للأصابع - أصابع الأيدى وأصابع الأقدام. وخواتم لكل الأصابع.

ونعال : وتمائم وتماثيل صغيرة للآلهة تعلق في رقبة الميت أو تشبك على حلية الصدر:

ولكن أنوب ونحوت من الآلهة التى يناط بها بنوع خاص مهمة حماية المتوفى، وذلك للدور الذى يقومان به أثناء عملية وزن الأفعال وقد يختار غيرهما أحيانا. ولم يستخف بأمر الصقور أو النسور ذات الأجنحة المبسوطة ولا برؤوس الصلال، إذ أن الصل هو الحارس للمزلاج الذى يحكم غلق أبواب مختلف أقسام العالم الآخر. كما لم يستخف بتمائم أوزيريس وإيزيس ولا بالعين السليمة (ارجا).

وكان ينبغى أن يضاف أيضا إلى كل هذه الزينات نماذج التماثيل المصغرة من عدة أشياء مثل العصى، والصولجانات والأسلحة والشعارات الملكية أو الإلهية التى كان يحسن دائما أن تكون فى متناول الأيدى.

ولم يكن أمرا هينا أن يقوم الإنسان باختيار الأشياء وطلب صنع أشياء مختلفة ومعقدة إلى هذا الحد، فإن ذلك يتطلب إنفاق أموال كثيرة وملاحظة تنفيذ صنع هذه الأشياء ومراقبة العمال للتأكد من حسن صنعها. إذ أن مستقبل الميت كان يتعلق إلى حد كبير بمدى العناية التى يبذلها لإعداد بيته الأبدى وأثاثه وحليه مهما ظن فى هذا الصدد بعض المفكرين المكتئبين، إذ أن العالم الآخر ليس مكانا للراحة والهدوء فحسب بل انه ملئ بالمكائد التى لا يمكن التخلص منها إلا إذ اتخذت فى هذا الشأن الاحتياطات الكافية تماما.

٤- واجبات كاهن القرين :

كان المصرى الطاعن فى السن يعرف كيف يشيد بيت المستقبل، بيت الأبدية. وكان يقوم بزخرفته وفقا لذوقه وإمكانياته وعهد إلى النجارين وصانعى العربات بصنع مختلف أنواع الأثاث. ثم حصل من الصائغ على الحلى وعلى مجموعة وافرة من التعاويذ والتمائم. ويبدو أنه لم يعد ينقصه شىء من الضروريات التى يحتاج إليها فى العالم الآخر، ومع ذلك فلم يكن راضى النفس،

إذ كان يعتقد أنه لم ينل كل ما يصبو إليه، ويجب على ذريته أن يعنوا بأمره بأمانة وتقوى ولا يكفى أن يؤديا واجباتهم الأخيرة نحوه بنقله فى احتفال لائق إلى مقر إقامته الجديدة فحسب بل يجب عليهم أن يعنوا بروحه مستقبلا من جيل إلى جيل.

قال أحد نبلاء المصريين : «لقد عهدت بوظائفى لابنى خلال حياتى - حررت له وصية بالإضافة إلى الوصية التى حررها لى والدى. وأقيم بيتى فوق أساساته وحقلى ظل فى مكانه وبيتى ثابت الأركان وكل ما أمتلك باق فى مكانه فابنى هو الذى سيجعل قلبى يحيا على هذه اللوحة التذكارية. سيعمل من أجلى.. ويكون وريثا وابنا صالحا».

وكانت العقيدة السائدة أن الابن يحيى اسم الأب والأجداد، وكان ذلك يذكر دائما فى النصوص الجنائزية. فكان حابى جفاى حاكم أسيوط قد عين نجله كاهنا لروحه «ويوازى هذا التعبير، ما تعبر عنه بعبارة «منفذ الوصية».

فالأموال التى قد يتسلمها الابن بهذه الصفة هى أموال ممتازة يجب أن تقسم بين الأولاد الآخرين بل والابن نفسه لا ينبغى له أن يوزعها على أولاده، فعليه أن يسلمها كاملة لواحد من أولاده بعينه ليتولى الإشراف على مقبرة الجد وملاحظة المراسيم الدينية التى تؤدى لإحياء ذكراه كما يجب أن يشترك هو شخصيا فى أداء هذه المراسيم.

كانت الحفلات تقام بنوع خاص، بمناسبة عيد رأس السنة وعيد أواجا الذى كان يحتفى به ثمانية عشر يوما بعد عيد رأس السنة فى المقبرة وفى معبد أرب واوات سيد إقليم أسيوط وفى معبد أنوب سيد الجبانة أيضا وكان كهنة أوب وأوات يذهبون إلى معبد أنوب قبل رأس السنة بخمسة أيام، ويضع كل منهم رغيفا للتمثال الموجود بالمعبد- وفى اليوم السابق لعيد رأس السنة يعطى أحد موظفى معبد أوب وأوات إلى كاهن القرين شمعة سبق أن استعملت فى

المعبد ويقوم كبير كهنة معبد أنوب بعمل مماثل فيسلم شمعة سبق أن ساعدت فى إنارة معبد أنوب لشخص يسمى رئيس موظفى الجبانة الذى يذهب بها إلى المقبرة بمصاحبة حراس الجبل حيث يقابلون هناك كاهن القرين، ويعطونه هذه الشمعة.

وفى يوم رأس السنة يقدم كل من كهنة أوب واوات رغيفاً من الخبز لتمثال حابى جفاى عندما تنته إنارة المعبد. ثم يصطفون خلف كاهن القرين ويحتفلون بذكراه. ويقوم كذلك من جانبهم كل من رئيس الجبانة والحراس بإعطاء رغيف وبيرة وهم يحتفلون باحتفال مماثل.

وفى مساء يوم رأس السنة يقوم موظفو معبد أوب وارات الذين سبق أن أعطوا شمع عشية الأمس بتقديم شمعة ثانية. ويقوم كبير كهنة أنوب بدوره يمثل هذا العمل وتستخدم الشموع التى قد بوركت لأنها سبق أن استخدمت فى المعابد لانارة تماثيل المتوفى، كما كان الأمر فى الليلة السابقة.

وقد تتكرر إقامة هذه الحفلات باكملها تقريبا بمناسبة عيد أواجا وفى معبد أوب واوات يعطى كل الكهنة رغيفاً أبيض للتمثال. ثم يكونون موكبا خلف كاهن القرين لتمجيد حابى جفاى.

ثم تضاء شمعة ثالثة طول الليل أمام التمثال.. ثم يتجه موكب كهنة نحو أنوب الدرج التذكارى الضخم الذى يؤدى إلى مقبرته وهم يرتلون أناشيد لتمجيده. ويضع كل منهم رغيفاً أمام التمثال الموجود فى هذا المكان، وتضاء له الشموع مرة أخرى.

أما الكاهن الذى يؤدى مراسيم الخدمة الدينية، فعندما ينتهى منها يقدم خبزاً وجعة لنفس هذا التمثال. ويقوم شخص آخر وهو رئيس الجبل فيضع أرغفة وجرار الجعة بين أيدى كاهن القرين لتخصص للتمثال.

ويزعم حابى جفاى بأنه لم يترك فى عالم النسيان فى أعياد أوائل الفصول التى وإن كانت أقل روعة من عيد رأس السنة إلا أنها لها شأنها وأهميتها .. ففى هذه المناسبات كان رئيس الجبانة يجتمع بحراس الجبل بجوار حديقته الجنائزية ثم يأخذون التمثال الموجود بها ويذهبون به إلى معبد أنوب.

وإليك الآن قراره الأخير. فمنذ أن كان حابى جفاى رئيسا لكهنة أوب وارات كان يتسلم كل يوم من أيام الأعياد، ونعلم أنها كانت عديدة، كمية من اللحوم والجعة. فهو يأمر الآن بأن تجلب بعد وفاته هذه اللحوم والجعة إلى تمثاله، وذلك تحت إشراف كاهن القرين.

ولم تكن هذه الخدمات تؤدى بالمجان فكان حابى جفاى يؤدى أجر هذه الخدمات بأن يتنازل عن المزايا المالية التى كان يتمتع بها إما لأنه محافظ الأقاليم وأما بصفة رئيس كهنة أوب وارات.

كأنه قد شغل أذن فى أنانية شديدة مستقبل هذه الوظائف وقلل من دخله إذ يجب على وارثه أن يدفع سنويا قيمة إيراد سبعة وعشرين يوما من دخل المعبد. ودخل يوم فى المعبد يتمثل فى قيمة جزء من ٣٦٥ جزء من الإيراء السنوى للمعبد.

ومعبد أروب- واوات لم يكن، دون شك، الا محرابا إقليمياً، وعلى ذلك فقد كان إيراده كبيرا وكان على الورثة أن يتنازلوا لصالح خدم المعبد بما يوازى تقريبا قيمة ١٣/١ من إيرادات أوب واوات، وبذلك يضطرون إلى خفض ما ينفقون على أنفسهم وخاصة أن رأس المال ذاته يكون قد خفض بسبب هبة مساحة كبيرة من الأراضى.

وعلى هذا الأساس تكاد تكون تكاليف صيانة المقبرة نفسها أكثر من تكاليف تشييدها. وكانت مصر كلها تنوء تحت أثقال وضعتها هى نفسها فوق

أكتافها. وكان حابى جفاى ثابتا فى رأيه، لا يتزعزع، وقد أبدى ملاحظة تتضمن أن الاتفاقات التى أبرمت بين أمير مثله وبين الكهنة المعاصرين له ليس من حق الأفراد اللاحقين بأن يجروا فيها أى تعديل.

وفى الواقع كانت الأبنية الجنائزية مهما كانت قوية البنيان ومهما كانت حصانة المؤسسات يزول أثرها بعد جيل أو جيلين مهما أحاطها مؤسسوها من ضمانات. أو بعبارة أدق كانت ايرادات هذه المؤسسات تؤول لصالح الموتى الحديثين.

وقد رأينا ملوكا وبعض الخاصة يؤمنون أنهم يؤدون عملا صالحا عندما يقومون بترميم الأبنية الجنائزية ويزودون أطعمة موائد القرابين. ولكن الكثير من هذه المنشئات قد انهارت نهائيا خلال الحرب ضد الكفار. وقد أصبحت مصر فى أعقاب تلك الحرب وخلال الفوضى التى تبعتها فى حالة انهيار أو على الأقل فى حالة من الفقر فأصبحت عاجزة تماما عن الإهتمام بأمر الموتى القدماء.

٥- التحنيط :

لم يعد هناك شىء فى هذه الأرض يحبب المصرى البقاء، بعد أن أخطره أوزيريس – وقد كان لدى المصرى الوقت الكافى لإتمام بناء بيته الأبدى، واتخاذ الترتيبات التى أوحت بها إليه عقيدته الدينية واحترامه للتقاليد المتبعة.

وفى اليوم الذى يعبر فيه إلى الشاطئ الآخر وهو التعبير الذى كان يستعمله المصريون، لأنهم كانوا لا يحبون استعمال كلمة الموت.

كان أقاربه يظلون فى حالة حداد مدة لا تقل عن سبعين يوما. فكانوا يرفضون كل عمل يتطلب مجهودا، ويلزمون البيوت، ساكنين واجمين، وإذا اضطروا إلى أن يخرجوا فقد كانوا يلطخون وجوههم بالطمى كما فعل أنوبو عندما اعتبر أنه فقد أخاه الصغير.

وكانوا يلطمون باستمرار قمة رؤوسهم بأيديهم وإنما كانت ثمة مهمة أخرى عاجلة تتطلب إهتمامهم وهى تسليم الجثة إلى المحنطين واختيار طريقة التحنيط.

وكان التحنيط على ثلاثة أنواع كما ذكر هيرودوت وديودور. فالتحنيط من الدرجة الأولى كان يتطلب مزيدا من العناية ووقتا طويلا.. كان ينزع المخ من الجمجمة كما كانت تنزع كافة الأعضاء الداخلية عدا القلب.

وكانت تعالج على حدة بمواد خاصة وتوزع إلى أربع ربطات توضع كل منها فى أوانى كانوب الأربعة وكان يستعاض بكمية من مواد التحنيط عن هذه الأعضاء التى انتزعت من الجسم، بعد تنظيف الجسم مرتين. ثم يملح الجسم بالنطرون وهو إحدى المواد التى تتوافر بوادى النطرون والملاحات الموجودة فى غرب الفيوم.

كما كان يوجد فى منطقة الكاب نخب. وكان المصريون يستخدمونه فى مختلف الأعمال وخاصة فى تنظيف بيوتهم. وفى نهاية مدة السبعين يوما، كانت تغسل الجثة ثم تلف بأربطة مقصوصة من نسيج الكتان ومشبعة بالصمغ.

وكان هذا العمل يتطلب لإتمامه إلى مواد مختلفة لايقل عددها عن خمسة عشر مادة منها : شمع النحل لتغطية الأذان والعيون وفتحة الأنف والفم والقطع الذي أجراه الجراح لفتح البطن، وخيار شنبر والدراصينى وزيت خشب الأرز وهو فى الحقيقة الزيت الناتج عن شجرة العرعر، والصمغ والحنة وثمار العرعر والبصل ونبيذ النخيل (عرقى البلح). وعدة أنواع من المواد الراتنجية ونشارة الخشب والزفت والقطران.

وبديهى أن النطرون كان هو المادة الأساسية. وكانت تجلب بعض هذه المواد من الخارج وبصفة خاصة الزيت والقطران إذ كانا يستخرجان من شجر

الصنوبر في لبنان. لذلك عندما كانت تتعطل السياحة بحراً إلى جبيل، ينتاب المحنطين وعملاءهم الأثرياء الكآبة والحزن لاضطرارهم إلى اللجوء إلى مواد أخرى للاستعاضة بها عما ينقصهم.

وعندما ينتهي هذا العمل، يصبح الجسد هيكلا عظميا مكسوا بجلد أصفر اللون، ولكن الوجه يظل محتفظا بشكله الأصلي، ويمكن التعرف عليه بالرغم من الخدود الغائرة والشفاة الدقيقة فبعد مرور عدة قرون، يمكننا أن نتصور عندما نرى مومياء سيتي الأول كيف كانت ملامح هذا الملك العظيم وتعبير وجهه مما لا يتاح لكثير من الأجسام المحنطة.

ولقد حان الوقت لكساء المومياء وتزيينها بالحلي. وكانت تعلق العقود والقلائد والتمائم وتوضع الأساور والكفوف والخواتم والصنادل ومكان الجرح الذي قام به الجراح الذي استخرج منه الأعضاء الداخلية كانت توضع فوقه صفحة سميكة من الذهب على شكل ورقة قد نقشت عليها عين أوجا.

وأحيانا كانت تلك العين توضع فوق الصفحة الذهبية لأن خاصيتها شفاء الجروح، كما توضع أربعة آلهة لحراسة الأواني الكانوبية ثم توضع أيضا نسخة من كتاب الموتى بين ساقي الجسد، لأنه المرشد الذي لا غنى عنه في الآخرة.

وبعد ذلك يلف الجسد بأكمله والأعضاء بلفائف من الكتان. ثم يوضع القناع على الوجه وكان ذلك القناع مصنوعا من القماش ومن خليط المرمر المسحوق والجير لعامة الناس.

أما قناع الملوك وبعض الشخصيات الكبيرة فكان يصنع من الذهب وكان يربط بخيوط إلى ثياب من خرز.

ثم تلف الجثة أخيرا بأكملها بكفن يثبت بوساطة شرائط متوازية. وبدلا من هذا الكفن كانت مومياء شيشنق التي وجدت في تانيس في القاعة الداخلية

لمقبرة بسوسن ذات غطاء من الورق المقوى -رسمت عليه بطريقة ارتجالية استخدمت فيها وريقات ذهبية ولوحات دقيقة جدا من القيشانى الأزرق أشكال الزخارف المنقوشة أو التابوت الفضى. وكانت تمثلها إلى حد ما.

ولو أتيح خلال إجراء هذه الأعمال السالفة، للنجارين وصانعى العربات والسلاح وغيرهم من الصناع المتخصصين الذين اشتركوا فى إنجاز المهمة الخاصة بالأثاث الجنائزى بالفراغ من عملهم فى همة ونشاط كان من الممكن الشروع فى وضع الجثة فى التابوت وإجراء مراسيم الدفن بعد وفاة الميت بشهرين ونصف الشهر.

٦- الدفن وتكوين موكب الجنازة :

كانت طريقة الدفن لدى المصريين مثيرة ومفجعة فى آن واحد.

فكان أهل الميت لا يخشون أن يتظاهروا أمام الجميع بالبكاء والإفراط فى أداء الحركات التى تعبر عن حزنهم العميق طيلة سير الموكب. وقد كان أهل الميت يخشون ألا يعبروا عن حزنهم تعبيرا كافيا فكانوا يستأجرون الندابين والنائحات، الذين لا يكلون إطلاقا ولا يكفون عن الصراخ والعويل وكانت النساء تلطم رؤوسهن بأيديهن، بينما كانت وجوههن ملطخة بالطين وصدورهن عارية وثيابهن ممزقة.

أما الأفراد وأكثرهم رزانة أولئك الذين اشتركوا فى هذا الموكب فلا يؤدون حركات بمغالاة كهذه ولكنهم كانوا يذكرون أثناء سيرهم فضائل الميت. قائلين على سبيل المثال : «ما أجمل ما يأتيه».

لقد كان يملأ قلب خنسو إلى حد أنه تمكن من أن يصل إلى الغرب برفقة أجيال وأجيال من أتباعه وخدمه».

أما ما يلى هذا القطاع من الموكب فكان بمثابة موكب نقل أثاث تماما. فكانت فرقة أولى من الخدم تحمل الفطائر وباقات الزهور وجرارا من الفخار وأوان من الحجر وصناديق معلقة على حافتى نير.

وهى تحتوى على التماثيل الصغيرة «الشوابتى» وملحقاتها. وفرقة أخرى أكثر عددا من الأولى كانت تحمل الأثاث العادى وهو عبارة عن مقاعد وأسرة وخزائن وأصونة دون أن نهمل العربة.

أما الأمتعة الخاصة والصناديق التى تحوى الأوانى الكانوبية، والعصى، والصولجانات والتماثيل والشماسى، فكانت تكلف فرقة ثالثة بحملها.

وأما الجواهر والقلائد والقصور والنسور ذات الأجنحة المبسوطة والطيور ذات الرأس الآدمى وأشياء أخرى قيمة فقد كانت تعرض على صوان وتحمل جهارا. كما لو كانوا لا يخشورن بطش هؤلاء الدهماء العديدين الذين كانوا يشاهدون مرور الموكب.

وكان التابوت يوضع داخل نعش مزين تجره بقرتان وبعض الرجال ويتكون هذا النعش من ألواح من الخشب ذات إطارات غير مثبتة أو من هيكل خشبى تتدلى منه ستائر من قماش مطرز أو من الجلد، وكان يوضع فى قارب تحيط به تماثيل أيزيس ونفتيس أما القارب نفسه فكان يوضع بدوره فوق زحافة.

٧- عبور النيل :

كان الموكب يسير ببطء حتى يصل إلى شاطئ النيل. حيث كان فى انتظاره أسطول صغير من القوارب وأما القارب الرئيسى فكانت مقدمته ومؤخرته مقوستين فى رشاقة إلى الداخل، وتنتهيان فى شكل مجموعات من نبات البردى. وبه غرفة كبيرة مبطنة من الداخل بأقمشة مطرزة وسيور من الجلد.

وفى هذه الغرفة كان يوضع النعش، ومعه تماثيل أيزيس ونفتيس، ويقوم كاهن بحرق البخور وهو يغطى كتفيه بجلد فهد، بينما تواصل النائحات اللطم على رؤوسهن. ويقتصر عدد نوتية هذا القارب على بحار واحد، يتحسس عمق الماء بمدرى طويل، إذ أن القارب الذى يحمل التابوت كان يجره مركب أخرى ذات عدد كبير من النوتية بقيادة قبطان يقف فى مقدمة المركب يعاونه نوتى يتحكم فى الدفة فى مؤخرة المركب.

وهذه المركب القاطرة تحتوى على حجرة واسعة تجتمع النائحات فوق سطحها متجهات نحو النعش وقد كشفن عن صدورهن ويواصلن الصراخ ويأتين بحركات تنم عن الحزن الشديد.

وهاك بعض ما يقلنه فى ندبهن، لتذهب سريعا نحو الغرب.. إلى أرض الحقيقة. إن نساء القارب يبكين كثيرا وكثيرا جدا.. مع السلامة.. مع السلامة أيها الممدوح بأجمل الصفات. اذهب بالسلامة نحو الغرب. اذهب بالسلامة أيها الممدوح. وإذا شاء الإله فتراكم أنتم الذين تسيرون نحو هذه الأرض التى يتساوى فيها الناس.. متى حان الموعد الذى يحل فيه يوم الأبدية.

ولكن ما شأن أهل جبيل كينيت هنا وهى مركب معدة للسفر فى أعالى البحار، بينما المركب الخاصة بالنعش لم تصنع إلا لتعبر النيل فقط ؟ على أنه يوجد بينهما تشابه كبير- إذ عندما تمكنت أيزيس من أن تسترد الشجرة المقدسة التى كانت تحوى جسد زوجها أوزيريس حملتها فوق مركب كانت متأهبة للإقلاع متجهة نحو مصر وهناك احتضنتها وأخذت ترويها بدموعها وهكذا تفعل سيدات الأسر تعبيرا عن حزنهن فوق القارب أثناء عبور النيل.

وكانت تستعمل أربع سفن أخرى لنقل أولئك الذين كانوا يرغبون فى مصاحبة المتوفى حتى مثواه الأخير، وتوضع فيها أيضا كافة الأثاث الجنائزى.

أما من لم يكن يرغب فى الذهاب بعيدا فكانوا يبكون على الشاطئ ويوجهون إلى صديقهم، تمنياتهم الأخيرة : «لعلك تبلغ بسلام غرب طيبة، أو كانوا يقولون أحيانا : «إلى الغرب.. إلى الغرب، أرض الأبرار، إن المكان الذى كنت تحبه يتفجع أسى وحسرة عليك!».

وقد أتت اللحظة التى ترفع فيها المرأة الثكلى صوتها الناحب :

«يا أخى .. يازوجى .. ياحبيبى .. ابق .. استقر فى مكانك ولا تبتعد عن المكان الذى تسكنه. واحسرتاه إنك تذهب لتعبر النيل، أيها النوتية لا تتعجلوا.. اتركوه.. إنكم ستعودون إلى بيوتكم بينما هو ذاهب إلى أقطار الأبدية.

٨- الصعود إلى المقبرة :

إن الاستعدادات على الشاطئ الآخر كلها معدة لمقابلة الموكب فالناس قد تجمعوا وأقيمت حوانيت صغيرة تحوى مجموعة وافرة من الأدوات الخاصة بالمراسيم الجنائزية لأولئك الذين لم يكونوا قد أتوا معهم بما يكفى منها.

وقد أمسك أحد الرجال بمقدمة المركب الأولى وسرعان ما ينزلون الركاب والنعش والأثاث جميعه إلى الشاطئ، ولا يلبث أن ينتظم الموكب مرة أخرى بنفس الترتيب السابق تقريبا ولكن بعدد أقل من المعزين حين غادروا مسكن المتوفى.

فيجر زوج من البقر الزحافة التى تحمل مركبا من طراز عتيق، وأخذت كل من ايزيس ونفتيس مكانهما، وكان السائقون يحمل كل منهم سوطا، ويسير بجوارهم الرجل الذى يحمل لفافة البردى أما نساء الأسرة والأطفال والندابات فيسرن أينما وجدن مكانا فى الموكب. وأحيانا تحرك إحدى النساء الصاجات.

أما زملاء الفقيد فيسيرون فى تأثر عميق بانتظام ووقار شديد، والعصى فى أيديهم، يتبعهم الحمالون وهم يواصلون الحديث عن صديقهم الفقيد وميوله

ويستعيدون ذكرياتهم معه ويبدون ملاحظاتهم عن الآجال وضربات القدر وعن عدم الإطمئنان إلى دوام الحياة وقصر مدتها.

وعندما يمر الموكب أمام منازل بنيت بأعواد، ترى جماعة من الناس يقفون على مقربة منها وهم يلوحون بأيديهم بمراقد. مشتعلة وبعد أن يجتاز الموكب منطقة الأراضى الزراعية يسير قليلا حتى يصل إلى سفح الجبل الليبى.

إذ تبدأ الأرض ترتفع رويدا رويدا ويبدو الطريق شاقا وعرا فتحل البقرتان ويجر نفر من الرجال الزحافة وعليها النعش وعند الضرورة يرفعون النعش على أكتافهم، يتقدمهم الكاهن وهو لا يكف عن رش المياه المقدسة من أبريقه بينما يبقى ذراعه ممدواً ممسكا المبخرة المشتعلة الموجهة نحو النعش.

وفى هذه اللحظة فإن حاتحور تخرج من الجبل على هيئة بقرة مخترقة طريقها بين أجام أوراق البردى الذى نما بمعجزة فوق الصخور الجرداء لتستقبل القادمين الجدد.

٩- وداعا أيتها المومياء :

وفى مشقة كبيرة ، يصل الموكب إلى القبر وقد أقيمت هناك أيضا حوانيت صغيرة يعد فيها بعض الناس مواقد ذات مقابض ويملأون أزياراً كبيرة بالماء لتبريدها ومعبودة الغرب حاضرة بجوار اللوحة التذكارية، وهى وإن كانت مختفية عن الأنظار إلا أنها ترى على هيئة صقر يقف فوق مجثم ويرفع التابوت من النعش ثم يوضع ملاصقا للوحة التذكارية. وتجلس امرأة القرفصاء بجواره وهى تحتضنه بشدة.

ويضع أحد الرجال فوق رأس المومياء قمعا معطرا يشبه ذلك الذى كان يوضع فوق رؤوس المدعوين فى حفلات الاستقبال والناحبات والأطفال وأفراد الأسرة يلطمون رؤوسهم فى عنف شديد يفوق ما كانوا يفعلونه عند بدء تشييع

الجنازة. أما الكهنة فكان عليهم أن يؤدوا مهمة خطيرة كان من واجبهم أن يعدوا مائدة بما عليها من مواد غذائية من خبز وأباريق ملئت بالجعة.

وكان عليهم أيضا أن يضعوا أدوات غريبة مثل قادوم وسكين مقوس على هيئة ريشة نعام ونموذج لفخذ عجل ولوحة منتهية بطرفين مستديرين. وهذه الأدوات سوف يستخدمها الكاهن لإبطال مفعول التحنيط حتى يستطيع المتوفى أن يسترد استعمال أطرافه وجميع أعضائه : إنه سيبصر من جديد. وسيفتح فمه ليتكم ويأكل . وسوف يمكنه من تحريك ذراعيه وساقيه.

وقد حان وقت الفراق. وتتضاعف إمارات الحزن. فتقول الزوجة: «أنى زوجتك يامريت رع .. لا تتركنى أيها العظيم، هل فى نيتك أن أبتعد عنك ؟ إذا انصرفت عنك فستبقى وحيدا. هل سيرافقك أحد ويتبعك؟ لقد كنت تحب المزاح معى والآن أصبحت تسكت ولا تتكلم ؟ !» .

وعلى أثر هذا يأتى صدى أصوات النساء قائلات يا للخراب ... ويالداهية !... لا تكفوا ... لا تكفوا ... لا تكفو عن النواح. لقد رحل الراعى الطيب إلى الأبدية. وقد ابتعدت عنك حشود الناس فأنت الآن فى البلد الذى يحب العزلة. أنت الذى كنت تحب السير على قدميك تقيدك الآن اللفائف والأكفان. أنت الذى تمتلك أفضل وأثمن الثياب، أصبحت تنام الآن فى لفائف الأمس!».

ولا يبقى بعد ذلك إلا إنزال التابوت والأثاث الجنائزى كله وترتيبه داخل القبر. لقد أصبح النعش فارغا. فيأخذه الكهنة، الذين كانوا قد استأجروه ليشيعوا به هذه الجنازة، ويعودون به إلى المدينة حيث كان فى انتظاره عملاء آخرون.

يوضع التابوت المصنوع على هيئة مومياء فى تابوت آخر من الحجر على هيئة حوض مستطيل الشكل أعد من قبل ونحت ونقشت عليه النصوص ووضع

فى مكانه منذ مدة طويلة. ثم توضع حوله عدة أشياء مثل العصى والأسلحة والتمائم فى بعض الأحيان، ويغطى بعد ذلك بغطائه الحجرى الثقيل وتوضع الأوانى الكانوبية بجانب التابوت، داخل صندوق خاص وكذا الخزائن والصناديق وبقية الأثاث بأكمله.

وحذار أن ينسى ماسيكون من أهم الأشياء فائدة للمتوفى وهى المواد الغذائية والتى تعبر عنها بعبارة «الأوزيريات النابتة»، وهى عبارة عن إطارات من الخشب على شكل أوزيريس «محنطا» وبداخلها كيس من القماش الخشن. كان يملأ هذا الكيس بخليط من الشعير والرمل، يسقى بانتظام لمدة عدة أيام.

فكان ينبت الشعر وينمو كثيفا قويا وعندما يصل طوله حوالى اثنى عشر أو خمسة عشر سنتيمترا كان يجفف ثم تلف الأعواد بما فيها فى قطعة من القماش.

وكانوا يأملون بهذا العمل حث المتوفى على العودة إلى الحياة إذ أن أوزيريس قد قام بهذه الطريقة وقت بعثه من بين الأموات.

وفى العصور السابقة كانوا يحصلون على نفس هذه النتيجة بوضع جرار مكونة من قطعتين داخل المقبرة فالقطعة الأولى الداخلية تحتوى على كمية من الماء والقطعة الأخرى الخارجية كانت ذات ثقوب توضع بها بصلة من نبات اللوتس فتنبت الجذور من النبات وتتخلل الثقوب وتصل إلى الماء وتنبت منه سيقان من عنق الجرة الوحيد أو الثلاث فتحات ويزدهر، وكانت هذه العادة شائعة الانتشار فى عهد الدولة الوسطى، ولكنها تركت، منذ أن اتبعت طريقة «الأوزيريات الثابتة».

فاللوتس هو نبات رع وكان هذا انتصار جديد لعبادة أوزيريس على العبادة القديمة. وهى عبادة الشمس.

١٠- أوجه الجنائزية :

لقد تم إعداد القبر تماما ولم يبق على الكاهن وأعوانه إلا أن يرحلوا . وكان البناء يسد الباب بجدار، أما الأقارب والأصدقاء الذين رافقوا المتوفى حتى مقره الأبدى فإنهم لن يفترقوا ويعود كل منهم إلى منزله على الفور بل يبقوا، إذ أن الانفعالات الشديدة قد جعلتهم يشتهون الطعام .

فالحمالون الذين كلفوا بنقل أشياء عديدة لاستعمال المتوفى، كانوا قد حرصوا على أن يتزودوا ببعض المؤن للأحياء. وعلى ذلك كانوا يجتمعون إما داخل المقبرة أو فى الفناء الذى يؤدى إليها .

إما فى أحد الأكشاك المبنية بالأعواد على بعد قليل من المقبرة وكان لاعب القيثارة يدير وجهه نحو المكان الذى ترقد فيه المومياء ويبدأ بتواشيح يصحبها بأغان تذكر بأنه بفضل ما قاموا بعمله لأجل المتوفى فإنه لابدمن أن يكون فى حالة طيبة جدا :

«أنك تناشد رع، وخير هو الذى يسمع ، وتوم هو الذى يجيبك، وسيد الكون الأعلى يحقق ماتشتهيه- ورياح الغرب تهب مباشرة نحوك حتى تلمس أنفك، ورياح الجنوب تتحول من أجلك إلى رياح شمالية إنهم يوجهون فمك نحو ضرع البقرة حيسات .

ستصبح طاهرا لتشاهد الشمس. وتغتسل فى الحوض المقدس. وكل أعضائك فى حالة جيدة وتظهر براءتك أمام رع وتكون دائم الخلود أمام أوزيريس وتتسلم القرابين فى ظروف مواتية. وتأكل كما كنت تأكل على الأرض ويكون قلبك مطمئنا فى الجبانة.

وتصل إلى الأبدية فى سلام. ويقول لك آلهة دوات تعالى إلى روحك -كا- فى إطمئنان كبير» وكل البشر الموجودين فى العالم الآخر، فإنهم رهن تصرفك.

وأنت مدعو لتبليغ الشكاوى للكائن الأكبر. إنك تسن القانون يا أوزيريس جانفر المبرور.

وإكراما للأب المقدس نفر حتب يقوم عازف آخر فيعزف على القيثارة ألحانا أشد حزناً وحسرة «لن ينسى أن الميت مكانة ممتازة حقا. فكم من مقابر إنهارت واندثرت قرابينها، وتلوث خبزها بالتراب، ولكن «جدران مقبرتك أنت محكمة البنيان فقد غرست الأشجار حول مستنقعك. وروحك البا تبقى فى ظلها ترتوى من مياهها» وقد تراءى له أن الفرصة سانحة تماما ليتفلسف قليلا : «لقد تستسلم الأجساد وتذهب إليها منذ عهد الآلهة ويحل مكانها الجيل الجديد. وطالما أن رع يشرق كل صباح ويغرب توم فى الغرب، فإن الرجال يتكاثرون والنساء يلدن وكل الأنوف تستنشق الهواء ولكن كل من يولد يأوى يوما إلى مكانه».

ولذلك يجب التمتع بالحياة، ومن العجب أن العازف يوجه هذه النصيحة إلى من كان راقدا فى تابوته، بينما يتصور الحاضرون أنهم هم المقصودون بها وهم يلتهمون فى شهية الطعام والشراب ويعودون إلى مدينتهم وهم ينعمون بانتعاش كبير، بل يكونون أكثر انشراحا عما كانوا عليه قبل ذهابهم إلى المقبرة.

على هذا النحو كان يحتفل بتشييع جنازة مصرى ثرى، ولا داعى للقول بأنه لم يكن يعمل مثل هذا الاحتفال للطبقات الصغيرة. فالقائم بعملية التحنيط لم يكن يعبأ بفتح البطن واستخراج الأحشاء منه بل كان يكتفى بحقنه فى مؤخرته بسائل دهنى مستخرج من ثمرة العرعر، وإشباع الجسد بملح النطرون.

أما من كانوا أشد فقرا فكان يستعاض بزيت العرعر بمطهر آخر أرخص منه ثمنا. وبعد إعداد المومياء بمثل هذه الطريقة، كانت توضع فى تابوت وتحمل إلى مقبرة قديمة مهجورة، وأصبحت تستعمل حاليا كمقبرة عامة. وكانت ترص فيها التوابيت فوق بعضها إلى أن تصل إلى السقف.

وعلى أية حال فلم تكن المومياء تجرد تماما من كل ماهو لازم لها فى العالم الآخر، إذ كان يوضع داخل التابوت بعض أدوات وصنادل من البردى المجدول وخواتم من البرونز أو من الخزف وأساور وتمائم وجعارين وتميمة أوجا (تميمة العين السليمة) وتماثيل صغيرة للمعبودات من الخزف المطلى أيضاً.

وكان ثمة أناس أشد فقرا فلم يكن لهؤلاء إلا أن يوضعوا فى إحدى المقابر العامة وكان يوجد فى طيبة جبانة خاصة بالفقراء فى وسط جبانة الأثرياء فى العساسيف. ويلقى فيها بالموميات وهى ملفوفة فى قماش خشن من الكتان، ثم تغطى بقليل من الرمال، وسرعان ما تلقى فوقها مومياء أخرى.

وما أسعد من كان من بين هؤلاء الفقراء يذكر إسمه أو ينقش منظره فى مقربة وزير أو أحد أبناء حكام بلاد النوبة لأنه كان يواصل القيام بخدمة سيده فى العالم الآخر كما كان يفعل فى حياته فى الدنيا.

ولما كان كل عمل يستحق أجراً فسوف يعيش من ثمرة جهده وسوف ينتفع إلى حد ما من المزايا والخيرات التى وعد بها المحظوظون الأغنياء، لأنهم كانوا عادلين.

١ :- العلاقة بين الأحياء والأموات :

إن الذين يصفون الأمنتيت بأنه مكان للراحة والسلام فإنهم كانوا يكونون عنه فكرة ساذجة جدا وجميلة جدا. ولقد كان الميت كثير الشكوك والظنون عديم الثقة. ميالا إلى الانتقام كان يخشى اللصوص الذين يجذبهم الذهب والفضة المودعان فى القبر،

كما كان يخشى اعتداء المارين العديدين، بل كان يخشى أيضا عدم اكتراثهم به وهم الذين كانوا يغامرون بالانتقال بين أرجاء جبانة المدينة الواسعة فى الغرب، كما كان يرتاب فى الموظفين المنوط بهم صيانة الجبانة.

ولذلك فمن كان لا يقوم منهم بأداء واجبه في جد وإخلاص كان الميت يهددهم بأشد العقوبات : «سوف يسلمهم إلى نار الملك فى يوم غضبه.. وسوف يغرقون فى البحار التى ستبتلع أجسادهم. ولن ينالهم شرف التكريم الذى يمنح لأفاضل الناس. ولن يستطيعوا إزدراد القرابين المعدة للموتى. ولن يسكب أحد عليهم المياه المقدسة من النهر الممتلئ بالماء.

ولن يتقلد أولادهم وظائفهم. وتنتهك حرمات نسائهم على مرأى منهم ولن يسمعوا أقوال الملك فى يوم سعده، حيث يكون مبتهجا. أما إذا كانوا يحسنون القيام على المنشأة الجنائزية، فسيقدم لهم كل ماهو خير. وسيمن عليهم آمون رع سونتير بحياة طويلة مستقرة. وسوف يكافئكم الملك الذى يحكم فى عصركم على طريقته.

وسوف تمنحون وظائف عديدة فضلا عن وظائفكم وتتسلمونها من ولد إلى ولد ومن وارث إلى وارث، وسوف يدفنون فى الجبانة بعد أن تتجاوز أعمارهم مائة وعشر سنوات. وستضاعف لهم القرابين.

ومن جانب آخر فقد كان يوجد أيضا موتى أشرار، فبعضهم كان السبب فيه إلى حد كبير أبناءهم الذين أهملوا شأنهم ولكن الكثيرين منهم كانوا يميلون بطبعهم إلى عمل الشر دون أدنى سبب أو مبرر سوى أنهم كانوا يميلون إلى الشر.

وكان ينبغى للآلهة أن يمنعوهم عن الأذى ولكنهم كانوا يضللون المراقبة والحراسة عليهم وكانوا يتركون مقابرهم ويزعجون الأحياء وأغلب الأمراض التى كان يعانيها الأحياء كانت تعزى إلى حزن الأموات الأشرار ذكوراً أو إناثاً. وكانت الأم تخشى بأسهم على طفلها، وتقول : إذا كنت جئت لتهدئة هذا الطفل فإنى لا أسمح لك بأن تهدئه، وإذا كنت جئت لكى تمضى به فإنى لا أسمح لك بأن تأخذه منى.

وكان المصريون يترددون كثيرا على المساكن الأبدية وذلك إما بدافع الرهبة أو بدافع التقوى. فكان أهل الميت أبواه والأطفال والأرامل يصعدون إلى التل ويحضرون معهم بعض الأطعمة وقليلا من الماء ليضعوها فوق مائدة القرابين بجوار اللوحة التذكارية، أو بين شجر النخيل الذى يظلل فناء المدخل.

ثم يرتلون الصلوات تلبية لرغبة المتوفين فيقولون :«ألوف من أرغفة الخبز وجرار من الجعة وثيران وطيور وشحوم ودهون وبخور وأقمشة وحبال، وكل ما يجلبه النيل من خيرات وما تنتجه الأرض، وما يعيش منه الإله تقدمه لروح فلان .. المبرور المرحوم ..

وكان هم شديد، يعترى أحيانا من يبتهل على قبر شخص عزيز عليه، وقد سبق أن ذكرنا اعتراف الزوج الذى لا لوم عليه، والأرمل الوفى الأمين وإذا كنا نعرف فضائله ومزاياه العديدة فذلك لأن هذا المسكين قد أفزعته المحن العنيفة والتجارب.

فمنذ أن فقد زوجته لم يوفق فى أى عمل، فأقدم على تحرير رسالة طويلة لها، وقد وصلنا نصها، وبعد أن أوضح فيها كل ما كان قد فعله من عمل طيب خلال حياة الفقيدة وبعد وفاتها، وقد عبر عن آلامه من أن يعامل بمثل هذه القسوة. «أى شر فعلته حتى أصل إلى مثل هذه الحال التى أعانيها الآن ؟.

وماذا جنيت حتى ترفعى يدك على بيتها لم أتسبب لك فى أى ضرر ؟ إنى استشهد بآلهة الغرب بما ينطق به فى ويحكم بينك وبينى كتابى هذا .

وصاحب هذه الرسالة الذى عاش فى العصر الأول للرعامسة خضع لعادة قديمة مثبوتة لنا بصفة خاصة معروفة بأمثلة أقدم عهدا منها وكان هو الدليل أو البرهان على أن الناس كانوا يعتقدون دائما بفائدتها ونتائجها الناجعة. وفى عهد الدولة الوسطى كان الناس يؤثرون أن يكتبوا للميت على الأوانى التى كانت تحوى الطعام المعد له.

وذلك ليكونوا أكثر إطمئنانا إلى أن الرسالة سوف لا تمر دون أن يطلع عليها.

ومن أمثلة هذه الرسائل تبليغ أحد الأجداد بأن هناك مكيدة الغرض منها حرمان حفيده من حقه فى الميراث، ويهم الميت أن يعترض على هذه المكايد، وعليه إذن أن يستدعى أعضاء أسرته وأصدقاءه لمساندة من يراد بسلب حقه إذ أن الابن عندما يؤسس منزله، فإنه يؤسس بيت آبائه ويحيى إسمهم. فإذا فقد أمواله فإنه يجلب الشقاء والتعاسة لأسلافه كما يجلبها أيضا لذريته.

ومهما بلغت درجة تقوى المصريين نحو أمواتهم، فإنها لم تكن تكفى لإضاءة جحافل من كانوا يرقدون فى الجبانات وما كان يفعله إنسان لوالديه أو لجدوده لا يستلزم منه أن يؤديه لأسلافه، لأنه لا توجد تهديدات ولا لعنات يمكن أن تلزمه بذلك وقد أتى اليوم الذى تنبأ به عازف القيثار، وقد تنبأ به من قبل أحد حكماء العهد القديم حين تحدث قائلا: «إن أولئك الذين شيدوا هنا أبنية بحجر الجرانيت وأقاموا قاعة داخل الهرم.. تصبح موائد قرابينهم خالية من كل شىء، مثلها مثل موائد البائسين الذين يموتون على شاطئ النهر دون أن يتركوا ذرية.

وعلى ذلك تكاد أن تصبح الجبانة موضع تجمع الفضوليين الذين كانوا يمرون بالمقابر ويقرأون دون اكتراث، النقوش التى عليها. وقد شعر بعض هؤلاء بنفس الميل الذى يعترى السياح المعاصرين حين يتركون أثرا لمرورهم بالمكان ولكنهم كانوا يضيفون عبارات تبين حسن نياتهم وتقواهم فكثيرا ماكتب مثلا بأن الكاتب فلانا أو الكاتب فلانا قد حضر هنا لزيارة هذه المقبرة. مقبرة أنى فوكر وأنهم قد صلوا كثيرا وكثيرا جدا .

وقد كتب آخرون يقولون بأنه قد أسعدهم أن يتحققوا من أن هذه المقبرة فى حالة جيدة – قالوا: « لقد وجدوها مثل السماء من الداخل» وقد قال أحد

الذين يحملون إسم أمنمحات بغاية التواضع أن الكاتب ذا الأصابع الماهرة، الكاتب الذى لا مثيل له فى مدينة منف بأجمعها قد زار المبنى الجنائزى للملك العجوز زوسر وقد أدهشه بأن يرى عليها عبارات ركيكة مليئة بالأخطاء وأن كاتبها لابد أن تكون امرأة لا عقل لها وليس كاتبا قد ألهمه تحوت موهبة الكتابة.

ويجب علينا أن نبادر لنحدد فى دقة بأنه لم يفقد الكتابات الرائعة التى نقشت أصلا بمعرفة الفنيين الذين كانوا أيضا من العلماء، وإنما اعترض فقط على هذا الزائر الجاهل المتسرع الذى سجل بعض كتابات سخيفة بالقلم العادى فى زمنه دون أى فن.

وفى عهد رمسيس الثانى اعتزم كاتب الخزينة حاد ناخى بأن يقوم برحلة بقصد التسلية فى غرب منف بصحبة أخيه بانختى كاتب الوزير : يا آلهة غرب منف أجمعين ويا جميع الآلهة التى تحكم الأرض المقدسة ويا أوزيريس وأيزيس، ويا أيتها الأرواح العظيمة الموجودة فى غرب عنخ تاوى. أمنحونى وقتا طيبا طويلا أحياه لأخدم أرواحكم ليتنى أحصل على حدث عظيم تعقب شيخوخة طيبة حتى أستطيع أن أتمتع بمشاهدة غرب منف ككاتب مكرم جدا ومثلكم بالذات».

«إن بطل إحدى الروايات التى كتبت فى العصر المتأخر- ولكن المفروض أنه عاش فى عهد رمسيس وهو يدعى تنوفر كانتاح كان يبدو أنه لم يخلق على هذه الأرض إلا ليتجول ويتنزه فى جبانة منف، مرددا النصوص التى كتبت على مقابر الفراعنة وعلى اللوحات التذكارية لكتاب بيت الحياة وكذلك الكتابات الأخرى المسجلة فى المنطقة.

إذ كان يهتم بالكتابة اهتماما بالغا وكان لنتوفر كابتاح منافس كان عالما مثله ومهتما أيضا بالآثار اسمه ساتنا خامواس أوزير مارع (ابن رمسيس

الثانى) وكان قد اكتشف فى منف تحت رأس إحدى المومياءات تعويذة سحرية وهى المدونة على البردية رقم ٢٣٤٨ إحدى مقتنيات متحف اللوفر.

إلا أنه قد اكتشفت أخيرا نقوش على واجهة هرم أوناس الجنوبية فى سقارة تفيد أن رمسيس الثانى كان قد عهد إلي ولى عهده خاموسيت كبير كهنة أون أن يعنى باستعادة إسم أوناس ملك الجنوب والشمال الذى كان قد محى من على هرمه. وذلك لأن ولى عهده ، خامو اسيت كان ميالا جدا لترميم المبانى الأثرية لملوك الجنوب والشمال التى كانت صلابتها مهددة بالانهيار وهل كان قد خطر ببال هذا الحكيم الذى تقدم على ماربيت وعلى خبراء مصلحة الآثار المصرية أنه بعد قرون عديدة مرت فى النسيان سيقوم رواد من بين أبناء البرابرة (وهكذا كانوا يعبرون عمن كانوا لا يعرفون مصر)، بدورهم بالكشف عن الجبانات فى الجنوب وفى الشمال، وإنهم سيعيدون إلى الحياة أسماء أسلافه وأجداده ومعاصريه ويكتبون عنهم ما يمكن من مزيد التعرف عليهم.

ونأمل أن يكون أولئك الذين وهبوا من الجلد والصبر على قراءة كتابنا هذا حتى نهايته، قد كونوا فكرة صحيحة عن طريقة حياة هؤلاء القوم، وهى حياة دون شك تذكر كلها بكل فخر وإعجاب. ولم يكن الشعب المصرى كما كان يعتقد رينان قطيعا من العبيد يقوده فرعون مجردا من كل رحمة وعاطفة. ويتحكم فيه الكهنة النهمون المتعصبون، حقيقة أن عدد المحرومين كان دون شك فى عصر الرعامسة كبيرا جدا إذ كان يغالى فى استعمال العصى.

ولكن مع ذلك يظهر لنا أن فرعون وموظفيه كثيرا ماكانوا يشبهون الرؤساء الآدميين الذين تملأ الرحمة قلوبهم - وكان الدين هو الوازع على المواساة والسلوى.

على أنى أرى فى حياة هذا الشعب الصغير أن أوقات السعادة كانت تفوق كثيرا أوقات التعاسة.

سحر ملوك الفراعنة

تعرف إلى ملوكك القدماء :

إذا كان لحياة الفراعنة القدماء سحر خاص.. يإنه بالتأكيد لا يقارن بذلك الذى حظى به ملوكهم.الذين تمتعوا بالقداسة وكان لكل واحد منهم طابعه الخاص الذى ظهر فى فترة حكمه.

عالم آخر غامض ومثير جذب إليه العالم كله.. إنه عالم ملوك الفراعنة الذين نقدم لك الدليل المفصل لحياة كل واحد منهم ومكان دفنه وشكله كما أشارت إليه الصور الجدراية.

ملوك أهرام الجيزة

خوفو (حكم ٢٥٤٨ - ٢٥٦٦ ق.م) :

هو صاحب أكبر أهرام الجيزة والوحيدة الباقية من عجائب الدنيا السبع، لا يعرف الكثير عن حياة هذا الملك الذى ينتمى إلى الأسرة الرابعة سوى أنه حكم فى فترة رخاء وتمتع بالقوة ولم يوجد سوى تمثال واحد صغير يشير إلى شكل هذا الملك بجانب الهرم وجدت مراكب لنقل الملك إلى الحياة الأخرى وأهرام صغيرة للملكات.

خفرع (حكم ٢٥٥٨ - ٢٥٣٢ ق.م) :

هو ابن الملك خوفو وتوج بعد مماته شقيقه الأكبر الذى اختار ألا يكون هرمه فى الجيزة، هرم خفرع يقع على أرض عالية مما يعطى الانطباع بأنه أعلى من هرم خوفو. وجدت تماثيل كثيرة لخفرع تشير إلى كونه ملكا ذا بنية قوية وأمامه بنى تمثال أبو الهول الذي يعتقد أنه يحمل رأس خفرع.

منقرع (حكم ٢٥٣٢-٢٥٠٣ق.م):

هو صاحب الهرم الثالث ورغم أنه أصغر الأهرامات إلا أنه يحتوى على أفكار أكثر ابداعا من الهرمين الآخرين، ووجدت تماثيل له بجوار الملكة «نفرتيتى». مات منقرع واستكمل ابنه شيسكياف بناء الهرم.

ملوك وادى الملوك

تحتمس الأول (حكم ١٥٠٤ - ١٤٩٢ق.م):

اختلف حكم تحتمس الأول عن حكم ملوك الدولة القديمة والذين كانوا يتمتعون بسلطات أكثر قوة، وكان تحتمس الأول الملك الثالث فى الأسرة الـ ١٨ وهى الأسرة التى ضمت بعض أشهر الملوك فى تاريخ الفراعنة كان تحتمس الأول ملكا محاربا، وشارك فى بناء معبد الكرنك الشهير.

حتشبسوت (١٤٧٣-١٤٥٨ ق.م):

هى ابنة تحتمس الأول وحكمت مصر ٢٠ عاما، أرسلت بعثة إلي بلاد «بونت» وهى فى الأغلب الصومال الآن، وسجلت على الجدران ما تمت مشاهدته هناك من نباتات وأماكن وحيوانات ، ومن هناك أتوا بالذهب وجلود الحيوانات وبعض الأخشاب يتميز معبدها بطرازه الفريد. تم تصويرها فى كثير من الأحيان على جدران المعابد فى هيئة رجل وبعد موتها حكم تحتمس الثالث.

تحتمس الثالث (حكم ١٤٧٩-١٤٥٣ق.م):

حكم عندما كان طفلا رغم أن السطوة الحقيقية كانت فى يد والدته حتشبسوت. بعد وفاتها نظم حملات عسكرية إلى النوبة وغرب آسيا وخاض معارض كثيرة لعل أهمها معركة مجدو فى السنة الـ ٣٢ لحكمه وسجلت

انتصارات على جدران الكرنك وأمر أن يزال ذكر حتشبسوت والدته ويستبدل بإسمه على الخراطيش الملكية.

امنحوتب الثالث (حكم ١٣٩٠ - ١٣٥٢ق.م):

شهدت فترة حكمه الطويلة قمة الإزدهار على أرض مصر، ولم يتبع نفس النهج العسكرى لأسلافه، بل تزوج من عدة أميرات من البلدان المجاورة لتحسين العلاقات ، وإن كانت الملكة الأم هى «تى» التى أنجبت له امنحوتب الرابع الذى أسمى نفسه فيما بعد باخناتون.

توت عنخ أمون (حكم ١٣٣٦ - ١٣٢٧ ق.م):

لعله أشهر الملوك فى ذاكرة العالم لما وجد فى مقبرته من كنوز عظيمة وما صعب اكتشافها من أقاويل حول وجود لعنة الفراعنة، أرجع الملك توت السلطة للكهنة والآلهة وأضاف إلى بناء الكرنك يعتقد أن مقبرته لم تكن مبنية على الأساس من أجله وحجمها الصغير لا يتناسب مع ملكه.

سيتى الأول (حكم ١٢٩٤ - ١٢٧٩ق.م):

عرف بالنصوص التى نسبت إليه وحملاته ومومياؤه التى ظلت فى حالة ممتازة وتعتبر دليلا على مهارة المصرى القديم فى التحنيط كان طويلا ووسيما، استطاع أن يستعيد قوة الإمبراطورية المصرية بعد أن كادت تندثر بعد إخناتون، واستكشف مناجم الذهب فى الصحراء الشرقية، وله إسهامات كبيرة فى معبد الكرنك وبنى معبدا هاما فى ابيدوس وتعتبر مقبرته واحدة من أجمل على الإطلاق فى وادى الملوك.

رمسيس الثانى (حكم ١٢٧٩- ١٢١٣ق.م) :

سجلت جدران المعابد الحملات العسكرية لهذا الملك الذى اتسم بالقوة والسطوة ، كانت زوجته الأساسية هى الملكة نفرتارى ولكنه تزوج غيرها كثيرات وكان أكثر من ١٠٠ من الأبناء، ويعتبر معبد أبو سمبل من أهم معابده، ومومياؤه تقع فى متحف الآثار بالقاهرة.

رمسيس الثالث (حكم ١١٨٤- ١١٥٣ق.م) :

يعتبر آخر ملوك الفراعنة العظماء، كان محاربا وانتصر على مجموعات من الناس قدمت عبر البحر لاستيطان البلاد، وشهدت فترة حكمه مؤامرات وخلافات بين العمال وبين نسائه وانتصر على كل أعدائه قبره من القبور الجميلة والمميزة فى وادى الملوك.

رمسيس الحادى عشر (حكم ١٠٩٩- ١٠٦٩ق.م) :

ليس مؤكدا إذا كان هذا الملك قد دفن فى وادى الملوك أم لا، فى فترة حكمه استطاع البعض السيطرة على عدة أماكن فى مصر لذا سجله التاريخ على أنه ملك ضعيف أمضى آخر سنوات حكمه فى شمال مصر.

أهم الاكتشافات

حول مصر الفرعونية

حجر رشيد :

تم اكتشافه عام ١٧٩٩ على يد شامبيليون أثناء الحملة الفرنية على مصر وساهم فى فك رموز اللغة الهيروغليفية.

مخبأ المومياوات الملكية :

تم اكتشافه عام ١٨٨١ عندما اعترف أحد سارقى الآثار بمكانه، وهو مخبأ تم العثور فيه على عدة مومياوات لملوك فراعنة منهم سيتى الأول ورمسيس الثانى.

مقبرة الملكة نفرتارى :

عثر عالم الآثار أرنستو شيابريللى على هذه المقبرة عام ١٩٠٤ فى وادى الملكات. ونفرتارى هى زوجة رمسيس الثانى والمقبرة بعد ترميمها الآن مفتوحة للسياح.

مقبرة يويا وثويا :

تم العثور على هذه المقبرة فى ٦ فبراير ١٩٠٥ وهى لوادى زوجة امنحوتب الثالث واحتوت المقبرة على كنوز عظيمة لم يستطع اللصوص الوصول إليها ونهبها من قبل وتعتبر المومياوات من الأحسن حالا من حيث جودة التحنيط.

مقبرة توت عنخ أمون :

اكتشفها هوارد كارتر ولورد كارنارفون فى الرابع من نوفمبر عام ١٩٢٢. وهى من المقابر التى كانت تحتوى على كنوز ثمينة لم يتوصل إليها اللصوص.

أثاث الملكة والدة خوفو :

اكتشفتها بعثة أمريكية عام ١٩٢٥ فى هوة تحت الأرض بـ ٢٠مترا قرب الهرم الأكبر واحتوت على أثاث ذهبى محفوظ الآن فى المتحف المصرى.

مقبرة أبناء رمسيس الثانى :

هى أكبر مقبرة فرعونية وهى معروفة فترة طويلة وكانت مخصصة لأبناء رمسيس الثانى الذين فاق عددهم المائة.

مدافن ملوك تانيس :

اكتشفها العالم الفرنسى بيير مونتييه فى ٢٧ فبراير ١٩٣٩ وتانيس كانت عاصمة الدلتا واحتوت الاكتشافات على أكفان مغلقة فضية بديعة.

عائلة العمارنة الملكية :

بنى امنحوتب الرابع الذى أصبح فيما بعد إخناتون مدينة إخناتون حيث عبد هو وزوجته نفرتيتى الإله اتون كانت أول حملة استكشافية للمنطقة على يد البريطانى بيترى فى القرن التاسع عشر.

الفلك ودراسة أحوال السماء

فى مصر القديمة

جميع البشر الذين يعيشون فى العصر الحديث يعرفون أن الزمن مقسم إلى سنوات، والسنة مقسمة إلى شهور، والشهر مقسم إلى أيام .. الخ، وجميع هذه التقسيمات تعتبر من المعارف المبدئية السائدة بين البشر فى جميع أنحاء العالم.. ولا شك فى أن هذه التقسيمات التى عرفها الإنسان منذ آلاف السنين، وستظل معروفة ومطبقة إلى الأبد، كانت نتيجة لمحاولة الإنسان تقسيم الزمن النسبى الخاص بكوكب الأرض.

وهناك العديد من الأدلة والشواهد التاريخية والأثرية تدل بصفة قاطعة، على أن المصريين القدماء هم أول شعب من شعوب العالم قام بتقسيم الزمن

إلى سنوات تتكون كل سنة من ٣٦٥يوما ، ومقسمة إلى ١٢شهرا يتألف كل شهر منها من ٣٠ يوما، ويتكون كل يوم من ٢٤ساعة مقسمة إلى ليل يتكون من ١٢ساعة تبدأ من منتصف الليل حتى منتصف النهار، ومن نهار يتكون أيضا من ١٢ساعة تبدأ من منتصف النهار حتى منتصف الليل.. وهكذا.

وطبقا لهذه التقسيمات التى ابتدعها قدماء المصريين، نلاحظ أن عدد أيام السنة إذا حسبت على أساس ١٢شهرا ×٣٠ يوما سيكون الناتج ٣٦٠يوما.. ولذلك فقد كانوا يضيفون خمسة أيام فى نهاية آخر يوم فى آخر شهر من شهور السنة. وجعلوا هذه الأيام الخمسة أعيادا شعبية يحتفلون بها قبل بداية كل عام جديد.

ومع ذلك فقد لاحظوا حدوث اختلاف فى تحديد بدايات السنين فى حالة حساب أيام السنة على أساس ٣٦٥ يوما، وذلك بسبب أن السنة تتكون فى حقيقة الأمر من ٣٦٥ وست ساعات .. ولذلك فقد تبنوا فكرة «السنة الكبيسة» التى تتكون من ٣٦٦ يوما والتى تحدث فى السنة الرابعة من كل أربع سنوات.

ونلاحظ أيضا فى هذه التقسيمات التى ابتدعها قدماء المصريين أنهم جعلوا عدد أيام كل شهر ٣٠ يوما لا تزيد ولا تنقص، وقسموا كل شهر إلى ثلاثة أقسام يتكون كل قسم منها من ١٠ أيام ، وهو تقسيم أفضل من تقسيم الشهر إلى أسابيع حسب التقويم السائد حاليا فى العصر الحديث، حيث لا يتكون كل شهر من عدد محدد من الأسابيع ، بل يحدث غالبا تداخل الأسبوع الأخير من كل شهر فى الشهر التالى.

وبالرغم من أنهم حددوا عدد ساعات كل يوم بأربع وعشرين ساعة، ١٢ ساعة ليلا و١٢ساعة نهارا، فإنهم عرفوا أيضا اختلاف هذا التحديد فى مدى ساعات الليل والنهار خلال فصول السنة .. وقد تم العثور على مدونات أثرية

تحتوى على جداول لتحديد مدة فترة الليل وفترة النهار خلال فصلى الصيف والشتاء.

ولا شك إطلاقا فى أن توصل قدماء المصريين إلى معرفة كل هذه التقسيمات الدقيقة للزمن، كان نتيجة مباشرة لمعرفتهم بعلوم الفلك ودراساتهم لأحوال السماء ومدى تأثيرها على كوكب الأرض.

وقد تم العثور على عدد كبير من المدونات الأثرية التى تعتبر من الوثائق التاريخية فى علم الفلك، ويؤكد ذلك أن بعض كبار الكهنة فى بعض المعابد كان يطلق عليهم لقب «الناظر إلى السماء» وهو لقب يدل على تخصص حامله فى علم الفلك ودراسة أحوال السماء من أبراج ونجوم وكواكب.

وقد توصل هؤلاء الكهنة الفلكيون إلى تحديد مواقع خمسة من الكواكب السيارة التى تدور حول نجم الشمس، وهى على وجه التحديد كواكب عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل، وأطلقوا على كل كوكب منا إسما مصريا يختلف طبعا عن أسمائها المعروفة فى اللغة العربية واللغات الأجنبية الأخرى، وعرفوا أيضا أن القمر يستمد نوره من انعكاس ضوء الشمس على سطحه .. كما عرفوا ظاهرتى الكسوف والخسوف وعلاقتهما بمواقع الشمس والقمر.

ويقول بعض علماء المصريات أن المصريين القدماء ربطوا بين فيضان النيل وعلم الفلك، حيث حددوا حدوث بدء موسم الفيضان السنوى لنهر النيل عند ظاهرة اقتران شروق الشمس بظهور نجم «الشعرى اليمانية» على الأفق، وهى ظاهرة كانت تتكرر فى وقت محدد فى كل عام.

كذلك فقد ربطوا بين بناء الأهرام وعلم الفلك.. فقد تبين بالدراسة أن الأهرام الكبرى قد شيدت على خط عرض ٣٠ شمالا، وأن أضلاع قواعد كل هرم تنطبق على الجهات الأصلية الأربع ، الشرق والغرب والجنوب والشمال.

التاريخ المصرى القديم[1]

لم تجر العادة بين الباحثين فى التاريخ المصرى القديم على التوغل فى القدم، بل يبدأ بحثهم ببداية عصر الأسرات. أى الوقت الذى أتم فيه الملك مينا توحيد القطرين، الشمالى والجنوبى، أو الوجهين البحرى والقبلى، من مصر، ليشكل بذلك دولة واحدة قوية متحدة ومستمرة منذ ذلك العهد، أى من حوالى سنة ٣٢٠٠ ق.م. وهى الدولة المصرية. والتى قامت من هذا التاريخ السحيق على تلك البقعة المعروفة إلى وقتنا هذا تحت إسم «مصر»، ولهذا فإن العلماء كادوا أن يجزموا بأن مصر هى أقدم دولة كائنة فى العالم، والدولة هنا هى الدولة بمفهومها القانونى، وعناصرها الثلاث وهى الأرض والشعب والحكومة.

قد تكون هناك حضارات أخرى أقدم من الحضارة المصرية القديمة، ولكنها لم تصل إلى مستوى الدولة. وقد تكون هناك تجمعات حضارية أو مدنية مساوية أو أقدم من مصر، ولكنها لم ترق إلى شكل الدولة بالمفهوم القانونى لها. بل قد تكون هناك دول وجدت فى أماكن أخرى من العالم، ولكنها زالت، أو تغير شكلها، ضيقاً أو اتساعاً، وهو بالقطع ليس حالة الدولة المصرية التى وجدت منذ «مينا» إلى يومنا هذا، فى شكل حكومة متصلة الحلقات، قد تختلف نظم الحكم فيها أو جنسيات الحاكم، ولكنها بالقطع تشكل سلسلة محكمة لم تنقطع على مدى هذه القرون الخمسين.

حضارات سبقت عصر الأسرات وهى : العصر الحجرى القديم الأعلى، ثم العصر الحجرى القديم الأوسط، ثم العصر الحجرى القديم الأسفل، ثم العصر الحجرى المتوسط، وأخيرا العصر الحجرى الحديث، ثم عصور ما قبل الأسرات.

---

(١) المجمل فى تاريخ القانون المصرى د/ ناصر الأنصارى، م. الأسرة. بتصرف يسير.

فقد بدأ الاستقرار، وتم ابتكار الزراعة واستئناس الحيوان وتشييد المسكن الأول، وبناء أول قرية، واستخدام النحاس، والكتابة، وظهور الوحدات الإقليمية المحلية، واختفاء نظام العشائر. وظهرت الحاجة إلى التعاون وتبادل المنفعة المشتركة فى القرية ثم المدينة، ثم انضم عدد من القرى بعضها إلى بعض فظهرت المقاطعات فى الدلتا والصعيد.

ثم قامت حركة اتحاد فى الوجه البحرى، وتجمعت المقاطعات فى دولتين إحداهما فى الغرب وكانت عاصمتها «بحدت» بالقرب من دمنهور الحالية، والأخرى فى الشرق عاصمتها «بوصير» قرب سمنود، ثم انضمت فى مملكة واحدة، هى مملكة مصر السفلى، أو الوجه البحرى، وعاصمتها «بحدت». كما قامت مملكة فى الوجه القبلى عاصمتها «نقادة» قرب الأقصر الحالية.

ثم قامت أول وحدة شملت مصر كلها حوالي عام ٣٢٤٢ ق.م. واتخذت من «أون» أو هليوبوليس القديمة - مكان عين شمس الحالية - عاصمة دينية وربما سياسية أيضا. ولكن هذا الاتحاد لم يدم طويلا فما لبثت البلاد أن انقسمت إلى دولتين مرة أخرى، الأولى تقع فى الوجه القبلى عاصمتها السياسية «نخب» وعاصمتها الدينية «نخن» - بالقرب من إسنا الحالية .

وكانت لهذه المملكة معبودة صورت فى هيئة «أنثى النسر» واتخذت شعارا يتمثل فى زهرة اللوتس، ويضع ملكها على رأسه تاجا أبيض اللون، أما فى الوجه البحرى فقد قامت مملكة أخرى لها عاصمتان هما «دب» و«بى»، وهى التى سماها الإغريق «بوتو» وكانت تقع بجانب مدينة دسوق الحالية، وكانت معبودتها تصور فى هيئة «أفعى» أما شعارها فهو زهرة البردى، ويضع ملكها تاجا أحمر اللون.

ومرت البلاد فى عهد هاتين المملكتين بسلسلة من المنازعات والحروب. رفع فيها ملوك الوجه القبلى راية الجهاد، من أجل توحيد البلاد، إلى أن تمكن

من ذلك الملك «نرمر»، الذى يعتقد جمهور المؤرخين أنه هو الملك «مينا» مؤسس الأسرة الأولى فى تاريخ مصر حوالى عام ٣٢٠٠ ق.م. ومن وقتها اتحد الشعب المصرى فى ظل حكومة مركزية قوية وثابتة.

وأصبح الملك مينا هو أول حاكم يحمل لقب ملك الوجهين البحرى والقبلى، ويعتمر بالتاج المزدوج الأحمر والأبيض واتخذ عاصمة متوسطة فى مدينة عرفت باسم «من نفر»، وحرفها العرب إلى «منف» وهى التى أطلق عليها الإغريق اسم «ممفيس» وهى مكان ميت رهينة الحالية فى الجيزة.

تقسيم التاريخ الفرعونى :

وقد قسم المؤرخ المصرى القديم مانيتون التاريخ المصرى القديم إلى ثلاثين أسرة مالكة مصرية واقتفى المؤرخون أثره بعد ذلك فى تبنى هذا التقسيم، ثم إتجه المؤرخون المحدثون إلى التمييز بين ثلاثة عصور مختلفة فى التاريخ المصرى القديم هى : عصر الدولة القديمة، وعصر الدولة الوسطى، وعصر الدولة الحديثة. وتضم كل دولة عددا من الأسرات التى ذكرها مانيتون.

ويلاحظ أن أسماء الأسرات تنسب إلى المدينة التى أتى منها الملك مؤسس الأسرة، أو إلى العاصمة، فيقال «ثينى» أو طينى، نسبة إلى مدينة «ثينى» أو طينة التى جاء منها الملك «مينا» ، أو يقال طيبية نسبة إلى «طيبة» أو يقال «منفية» نسبة إلى العاصمة الأولى «منف» . بينما الأسرة التى كانت يأتى حاكمها من خارج البلاد فتنسب إلى جنسية الحاكم. فيقال ليبية أو أثيوبية أوفارسية.

العهد القديم

العصر الثينى أو الطينى

ثينى أو طينى نسبة إلى مدينة طينة بالقرب من جرجا بسوهاج الحالية ..

ولا شك أن أهم ملوك هذا العهد هو مينا موحد القطرين، وبه بدأ عصر التأسيس والبناء للدولة الموحدة، والذى اشتهر بأنه أصدر القوانين، وشيد المعابد، وأرسل البعثات العسكرية لمقاومة القبائل الرحل من الصحراء الليبية المناوئة التى كانت تحاول الاستقرار على وادى النيل.

وانتهى حكم مينا بعد حوالى ستين عاما، وخلفه عدد من الملوك أتموا أعماله دون أن يكون لأحدهم بصمة خاصة، وقد اهتموا عموما بالتشريع، والإدارة، وتنظيم العبادة، والشعائر الدينية، وشيدوا المعابد وبنوا القصور، وساروا على نهج مينا، فى مقاومة القبائل الليبية المناوئة. وفى هذا العهد خرجت أولى بعثات التنقيب عن المعادن فى سيناء، وفى هذا العهد أيضا ألفت أول الكتب عن الطب والتشريح.

ولم تسلم البلاد من بعض الفتن السياسية، وبخاصة فى عهد الأسرة الثانية، مما اضطر بعض ملوك تلك الأسرة إلى استخدام القوة للقضاء عليها. وكان الملك «خع سخموى» - آخر ملوك تلك الأسرة - هو الذى نجح فى إطفاء نار الحرب بين الشمال والجنوب وإعادة الوحدة للبلاد.

وتعتبر حضارة الأسرتين الأولى والثانية امتدادا للحضارة التى كانت سائدة فى عصر ماقبل الأسرات، وهى أيضا تعد بمثابة حجر الأساس لحضارة مصر فيما بعد. ودراسة النظم القانونية للبلاد خلال مدة حكم الأسرة الأولى والأسرة الثانية تكتنفها بعض الصعوبات نظرا لندرة المصادر الموجودة

حتى الآن ومن أهم هذه المصادر مجموعة من الأختام التى عثر عليها الأثريون وتبين أنها تخص مجموعة من رؤساء الإدارات التنفيذية الهامة فى تلك الفترة ومن هنا سوف تقتصر دراستنا لهذه الحقبة على بعض نظم القانون العام التى أتاحتها المصادر.

الفرعون وبلاطه

تعد هذه الفترة من التاريخ المصرى ذات أهمية خاصة حيث أنها تمثل تأسيس الوحدة بين الشمال والجنوب والتى سبق أن قامت ولكن ما لبثت أن انفصلت فى عصور سابقة. فكان لابد للفرعون موحد القطرين أن يؤسس دولته الجديدة على نظام قانونى جديد يسمح باستمرار الدولة الوليدة دون انفصال ، ولا شك أن ملك مثل مينا حكم مدة تقرب من ستين عاما علاوة على قوته وحكمته قد حاز من العوامل التى سهلت له الطريق لاستمرار الوحدة، وكان من أهم ما اتخذه من قرارات عملية : مركزية الدولة والقضاء على نفوذ طبقة كبار الاقطاعيين خاصة فى مصر العليا.

ولذلك فإن أهم مؤسسات الدولة الناشئة هو القصر الملكى بما جمعه من اختصاصات للسيطرة على أمور الدولة وتسييرها وبما حواه من عدد كبير من العاملين فى مختلف المجالات فالبلاط الفرعونى هو بمثابة الحكومة بجميع عناصرها وإن كانت هذه العناصر لم تكن قد اتضحت معالمها بعد.

ففى داخل هذا البلاط ومن أجل ساكنه، اخترعت الكتابة لتسجيل أعماله وانتصاراته وثرواته وحكوماته وحكمه وأحكامه.

فالفرعون على رأس الجهاز التنفيذى باعتباره رب الوحدة وراعيها وحاكم القطرين وصاحب التاجين الذى يدير الأمور من قصره الكبير بما فيه خير الجميع وبما يحقق الصالح العام.

ومن الملاحظ من ألقاب الملك ضرورة ذكر كل قطر فيقال ملك القطرين مصر العليا ومصر السفلى ويقال التاجين حيث تم دمج تاج الجنوب بلونه مع تاج الشمال فى شكل واحد ولكن ظل إسمه التاجين كذلك استخدم الرمزين المميزين للقطرين وهكذا وكان هذا التأكيد ضروريا فى أول سنين الوحدة.

ويتميز هذا العهد بخطوات واسعة خطتها مصر فى سبيل تقدم البشرية، خاصة حين ابتدع المصريون الكتابة المصرية القديمة التى أسماها الإغريق فيما بعد «الهيروغليفية» أى النقوش المقدسة، والتى تدل على مدى التقدم العقلى والرقى الفنى المصرى القديم.

الديـانـة :

أما عن المعتقدات الدينية فى ذلك العصر فأهمها أن الملك يحمل لقب «حورس» فهو ليس فقط شخصية مقدسة أو ممثل الآله على الأرض بل هو ملك إله له سلطات دينية ودنيوية وهو مطاع من الجميع، لأنه يقع فى مرتبة أعلى من الجميع.

وهو المسئول عن تنظيم عبادة الآلهة لأنهم أبائه واخوته، وهو الذى يشيد لهم المعابد الكبيرة العظيمة بدلا من المعابد الخشبية الصغيرة، أما هو فيسكن القصر الذى ينقش عليه اسمه داخل إطار مميز (الخرطوش).

الحكومـة :

كان قيام الوحدة بين الشمال والجنوب عسيرا ولكن الحفاظ على هذه الوحدة كان أصعب فالظروف المختلفة بين الشمال والجنوب كان يمكن أن تؤدى إلى آثار سلبية فمصر العليا أو الجنوب تقوم أساسا على الزراعة وكانت خارجة لتوها من عصر اقطاعى حيث بدأ بها عملية تفتيت للإقطاع فى عهد سابق بعض الشىء على الأسرة الأولى وكان أمراء المقاطعات، كما تبينهم النقوش،

يظهرون محيطين بالملك، وكل منهم على رأس جيش من مقاطعته وهؤلاء كانوا يمثلون العائلات الكبيرة ذات النفوذ.

أما مصر السفلى أو الشمال فكان اقتصادها زراعى وتجارى وكانت تتميز بأنها تضم الريف إلى جانب الحضر وكانت المدن الكبيرة فى الشمال بمثابة مراكز حضارية متطورة.

وبدأ الفرعون بالتركيز على أن يجمع حوله فى العاصمة الأجهزة الكبرى وحكومة تضم أجهزة الشمال وأجزهزة الجنوب كما أنه احتفظ بالعشرة الكبار من الجنوب ويبدو أنهم كانوا من كبار الاقطاعيين ومن العائلات ذات النفوذ احتفظ بهم كمستشارين له.

ومن الأسرة الأولى وصلت لنا أختام لأهم الموظفين فى البلاط الفرعونى ومنهم رئيس الإدارة ويبدو أنه فى مقام الوزير الأول لأن خاتمه منقوش عليه المسئول عن كل شيء.

ومن الوظائف الهامة أيضا فى الأسرة الأولى كبير مهندسى الفرعون وهو المسئول عن الأشغال العامة والبناء كما وجد رئيس البيت الأبيض وهو المسئول عن الإدارة المالية. ومن كبار العاملين فى هذه الأسرة أيضا المسئول عن الضرائب.

النظام الضريبى :

أما فى الأسرة الثانية فقد وصلت أجهزة الحكم والإدارة إلى درجة عالية من الرقى والتقدم والنمو ومن أهم النظم التى بدأت تنتظم كل سنتين عملية الجرد العام أو الحصر الكامل لكل ثروات البلاد وكان يطلق عليه : تعداد الذهب والحقول والذى كان يفيد كقاعدة أو أساس لفرض الضرائب التى أصبحت ضرائب مباشرة على الدخل من ذلك الوقت.

والأموال المحصورة فى هذا التعداد هى الأموال بنوعيها العقارية والمنقولة وبالقطع كان وجود مثل هذا الحصر كل عامين يتطلب إدارة متطورة ودقيقة. كما أن فرض ضريبة علي الدخل هو من أصعب أنواع الضرائب وهو يتطلب كفاءة عالية فى الإدارة المالية وتنظيم كبير لمالية البلاد.

وهذه العمليات الكبيرة للإحصاء العام التى اعتمد عليها النظام الضريبى ساهمت فى أمور أخرى هامة للغاية منها ضبط الأحداث الزمنية وبالتالى ضبط مواعيد الاحتفالات الكبرى واحتفالات «حورس».

كما أن وجود هذا النظام الضريبى الدقيق يعنى أن الدولة كانت تقوم بدورها فى مواجهة ضرورات الحياة الاجتماعية للمواطنين.

ومن خاتم لرئيس القوافل التجارية يمكن أن نستنتج أن الحركة التجارية كانت تحت رقابة الدولة وبالتالى كانت الحياة الاقتصادية للبلاد منظمة.

ولما كان النظام الضريبى يقوم معظمه على الدخل من الأراضى الزراعية فكان لابد من وجود إدارة خاصة بالمياه أو الرى فالنيل هو شريان الحياة الرئيسى وهو الذى تعتمد عليه ثروة البلاد وكان من مهام هذه الإدارة القياس الدقيق والتسجيل السنوى لفيضان النيل وبناء على هذا التسجيل تحدد الضرائب وكانت الضرائب ترتفع أو تنخفض سنويا حسب الفيضان ومن احساس العدالة لدى الفرعون أنه كان أحيانا يلغى الضرائب على دخل الأراضى الزراعية عندما يحدث انخفاض شديد فى الفيضان مما يعوق عملية الزراعة.

أى أن هذه الإدارات الملكية كانت مسئولة عن الأشغال العامة وعن النظام المالى والنظام الضريبى وخزينة الفرعون والمخازن العامة للغلال وعن الضرائب وعن الأملاك العامة وعن المياه.

نائب الملك وحكام المقاطعات :

احتفظت عاصمة مصر العليا «نخن» بأهميتها كعاصمة جنوبية للبلاد وكان على رأسها موظف ملكى كبير يحمل لقب أمير من بين ألقابه وكان يعد بمثابة نائب الملك ويمارس سلطاته باسم الفرعون على جميع المقاطعات البعيدة. وهو الوحيد الذى يحمل تكريما خاصا من بين كل موظفى الدولة. يليه موظف ملكى آخر قد يكون على نفس مستواه أو أقل قليلا هو حاكم بوزيريس فى مصر السفلى بالدلتا. كما تدل الأختام على وجود حكام لمدن الدلتا يعينهم الفرعون ولهم سلطات إدارية على مدنهم.

تنظيم الدفاع عن البلاد :

إلى جانب الإدارة الداخلية المثالية التى أوجدها الفرعون فقد اهتم أيضا بتنظيم الدفاع عن البلاد ضد الجيران الأعداء سواء من شعوب النوبة أو الشعوب الأسيوية أو القبائل الليبية على الحدود الغربية.

وقد شيد الفراعنة فى هاتين الأسرتين القلاع والحصون على الحدود وأوجدوا إدارة دقيقة لتموين تلك الحصون وتأكيد وصول المؤن إليها. بل كان الجيش الملكى يرسل بعثات عسكرية إلى بلاد النوبة وبلاد آسيا المتاخمة لاسباغ حمايته عليها مع الحفاظ عليها وعلى احترام أهلها.

الطبقـــات :

حتى قبل قيام الأسرة الأولى كانت طبقة النبلاء الإقطاعيين فى مصر العليا ذات نفوذ قوى ولكن يبدو من الوثائق النادرة لهذه الحقبة أن هذا النفوذ توارى أمام نفوذ الدولة الموحدة.

وقد لجأ الفرعون إلى فرض طبقة جديدة من النبلاء للقضاء على طبقة

النبلاء القدامى الإقطاعين وهؤلاء النبلاء الجدد هم كبار الموظفين الملكين وقد قلدهم الفرعون ألقابا شرفية مثل : الأول بعد الملك والأمير وغيرها وهى ألقاب سوف تظل قائمة طوال الدولة القديمة.

إلا أن هذه الألقاب لم تكن وراثية كألقاب الاقطاع القديم فهذه الطبقة الجديدة من النبلاء تعد نبالة ملكية وإدارية وغير وراثية بعكس الطبقة القديمة التى كانت اقطاعية وقبلية وأسرية ووراثية.

نظام الملكية :

تدل الحركة الكبيرة للإحصاء العام إن الملكية كانت متحركة وليست ثابتة بل إن انتقال الملكية كان يتم بتكرار عالى . فالملكية تنتقل حسب الوثائق وحسب التعداد من يد إلى يد بينما الأرض والأموال العقارية كانت كلها واقعة تحت الحصر كذلك كانت المنقولات الثمينة.

عصر الدولة القديمة

(من حوالى ٢٦٩٠ ق.م إلى ٢١٨٠ ق.م)

بعد الأسرتين الأولى والثانية -مينا وخلفاؤه- تمكن أهل العاصمة «منف» من الحكم، وانتقل عرش البلاد من أسرة «ثينية» إلى أسرة من زصل «منفى». وهى الأسرة الثالثة، وكان ذلك عل يد مؤسسها الفرعون «زوسر» صاحب أول بناء حجرى فى التاريخ ، وهو هرمه المدرج فى سقارة.

وتبدأ هذه الدولة بالأسرة الثالثة، وتنتهى بنهاية الأسرة السادسة، وهو عصر بناة الأهرام. وقد جرى العرف فى هذا العصر أن يبنى الملوك الفراعنة قبورهم على شكل أهرامات، لذلك نجد فى المنطقة المحيطة بعاصمة البلاد فى ذلك الوقت أكثر من تسعين هرما، فى ميدوم ودهشور وسقارة وأبو رواش.

وامتازت الدولة القديمة بأن وحدة البلاد بلغت تمامها فيها، ولم يعد هناك أثر للنزاع القائم بين الشمال والجنوب، فساد عهد سلام وتقدم ونمو تدريجى فى كافة المجالات، مما أسفر عن رخاء وقوة، منبعها جهود داخلية أثمرت عن نشاط عم بالخير والإزدهار مختلف نواحى الحياة المصرية، فكانت الحضارة ذات طابع مصرى صميم، قائم على الشعب المصرى وحده، وليس ناشئا عن كثرة غنائم وأسلاب جلبتها حروب خارجية، وهو مالم ينظر إليه ملوك هذه الدولة الذين كانوا يتمتعون بالحكمة والقوة والمتعة، ولم يكن فى سياستهم النظر نحو الفتوحات خارج حدود البلاد بقدر ما كانت تهتم بالبحث عن زيادة ثراء البلاد، وتنمية مواردها الطبيعية والبشرية والمادية. ومنذ بداية الأسرة الخامسة بدأوا يتطلعون إلى خارج الحدود فى بعثات تجارية بحرية إلى فينيقيا عن طريق البحر المتوسط، وإلى بلاد بونت عن طريق البحر الأحمر.

الأسرة الثالثة :

كان الانتقال من الأسرة الثانية إلى الأسرة الثالثة فى الدولة القديمة قد تم بطريقة هادئة ودون تغيرات فجائية أو ثورات دموية. وأصبح ملوك منف هم الورثة الشرعيون لملوك العهد الشينى، وحملوا لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى أو ملك الوجهين القبلى والبحرى. بل وأصبح كل منهم أيضا «حورس».

وطبقا للمؤرخ مانيتون فقد حكم خلال هذه الأسرة الثالثة تسعة ملوك لمدة ٢١٤ سنة بينما تقدم بردية تورين خمسين سنة فقط كمدة حكم لهذه الأسرة.

وكان أهم ملوك هذه الأسرة الملك «زوسر» فقد كانت له مؤلفات علمية كما أنه وجه إهتمامه نحو تطوير الكتابة وفن العمارة وكان يعاونه وزيره العبقرى الطبيب «ايمحتب» والذى يرجع إليه الفضل فى الآثار القائمة حول هرم سقارة المدرج.

الأسرة الرابعة :

هى أسرة بناة الأهرام وهى تغطى طبقا لمانيتون ٢٨٤ سنة وتتضمن ثمانية ملوك وقد ترك لنا ملوك هذه الأسرة كدليل على قدراتهم، الأهرام ذلك الصرح المعمارى غير المسبوق وغير الملحوق ذو السر الكبير. وأول ملوك هذه الأسرة هو «سنفرو» وبه يبدأ عصر رخاء وثراء لمصر، نتيجة لإدارته الحكيمة، وقد خلفه خوفو الذى كان أكثر منه قوة وتأثيرا وهو يعتبر أحد أعظم ملوك مصر، وأصبح إسمه أسطورة بفضل الهرم الأكبر الذى شيده فى الجيزة، ليكون مقبرة له . كما أنه بنى المعابد وشجع علي استكمال الأعمال التعدينية فى سيناء، والتى كان قد بدأها سلفه «سنفرو».

عقب موت «خوفو» حدثت داخل أسرته بعض الصراعات على الخلافة، نتج عنها أن خلفه «ددف رع» ولم يبق فى الحكم إلا مدة بسيطة وهُدم هرمه فى محاولة لمحو كل أثر له.

وتولى بعده أخاه «خفرع» الذى استمر فى الحكم مدة طويلة وإن لم نكن نعرف عنه الكثير فى مدة حكمه هذه إلا أنه يكفيه الآثار التى تركها لنا، مثل الهرم الأوسط وتمثال أبى الهول، والتماثيل الأخرى الجميلة الكثيرة. وخلف خفرع : «منكاورع» الذى اشتهر بالعدالة والتقوى، ومن آثاره الهرم الثالث فى الجيزة، والتماثيل الجميلة، وإتمام أعمال التعدين فى سيناء وهو آخر الملوك العظام فى أسرته. فمعلوماتنا عن خلفائه ضئيلة.

وتنتهى الأسرة الرابعة بطريقة غامضة، ويبدو أن أزمة دينية تسببت فى نهايتها نتيجة لزيادة قوة التأثير الدينى فى عين شمس، ومحاولات السطو على السلطة الملكية، ومحاولات للردع من آخر ملوك هذه الأسرة، وهو «شب سس كاف» ، ثم كان النصر النهائى من نصيب كهنة آله الشمس.

الأسرة الخامسة :

حكمت هذه الأسرة طبقا لمانيتون ٢١٨سنة. وأول ملوكها هو «أوسر كاف»، ويرى البعض أن أصول هذه الأسرة ترجع إلى جزيرة الفنتاين قرب أسوان، بينما يرى آخرون أنها ترجع إلى عين شمس.

وجميع ملوك هذه الأسرة أقوياء، وقد امتدت أعمالهم إلى كافة أنحاء البلاد، وأحيانا تعدت أعمالهم حدود البلاد، وقد قضوا على محاولات القبائل النوبية والليبية لدخول البلاد .كما أرسلوا البعثات إلى جنوب فلسطين لإخضاعها.

وأقاموا لمصر أسطولا قويا فرض على جميع الجيران احترام فراعنة مصر، كما استغل فى القيام بخدمات تجارية. وقد ساد السلام، وعم الرخاء، واستقرت النظم فى وادى النيل فى عهد هذه الأسرة.

وكان آخر ملوك هذه الأسرة هو «أوناسش صاحب الهرم المعروف باسمه، وكان آخر سلسلة من الملوك ذوى الاحترام ولأنه لم يعقب فقد انتقل الحكم سلمياً إلى أسرة جديدة.

الأسرة السادسة :

ملوك هذه الأسرة على أغلب الأقوال من «منف» وقد أتموا أعمال الأسرة الخامسة ولكنهم كانوا أقل منهم شهرة وبريقاً، ونكاد نجهل أعمال أول ملكين من هذه الأسرة، وهما «تيتى» و«أوسركارع»، وقد أعقبهم فى هذه الأسرة أربعة ملوك آخرين وحكموا جميعا ٢٠٣ سنوات على قول مانيتون.

وقد ترك لنا أحد ملوك هذه الأسرة وهو «بيبى الأول» الكثير من الآثار، وتعد فترة حكمه من أشهر فترات التاريخ المصرى القديم، وقد قام بأعمال التشييد والبناء، كما جد فى مختلف المجالات الأخرى حتى أننا نجد اسمه فى

كل مكان : فى «تانيس» فى أقصى شمال الدلتا، وفى الجنوب عند الشلال الأول، وفى مناجم سيناء. وقد وجه إهتمامه الشخصى إلى تحسين النظم الإدارية، ونشر العدالة، وإرسال البعثات، وبناء جيش قوى، وأسطول عظيم للقضاء على الغزوات الآسيوية، التى تهدد البلاد، كما أرسل البعثات إلى النوبة لتأكيد سيطرة مصر على أعمال النيل.

إلا أن خلفاءه لم يرتفعوا إلى مستواه فابنه الأكبر «مرن رع» مات شاباً، وابنه الآخر «ببيى الثانى» الذي تولى السلطة لمدة ٩٥ سنة لم يكن على مستوى الأحداث، مما أدى إلى انهيار السلطة المركزية.

وتنتهى هذه الأسرة التى حققت الكثير للحضارة المصرية بعدد من الملوك الذين اختفوا دون أمجاد تُذكر، وكل ما يمكن أن ينسب إليهم هو حفاظهم على العرش والبلاد موحدة.

انهيار الدولة القديمة :

بانتهاء الأسرة السادسة تبدأ مرحلة مظلمة فى تاريخ البلاد تتميز بتضاؤل السلطة الملكية بل وانهيارها، ولا يمكن تعليل هذا الانهيار بثورة أو انقلاب أو غزو خارجى وإنما كان السبب الرئيسى هو اهمال القدرة العسكرية للبلاد، وإتجاه الملوك إلى تبنى سياسة مسالمة للغاية.

وهناك أسباب أخرى منها : إزدياد شوكة حُكام الأقاليم وبخاصة فى النصف الأخير من عهد الأسرة السادسة، وسعيهم إلى الانفصال عن نفوذ الفرعون، والإقلال من الصلات التى تربطهم به، والاستقلال بحكم أقاليمهم. وكانت النتيجة الحتمية هى انهيار السلطة المركزية، وانقسام البلاد إلى أقاليم منفصلة ومستقلة تماما عن سلطة ونفوذ حكومة «منف» وانتشار الفوضى والتفكك والإنحلال.

مظاهر النهضة في الدولة القديمة :

كانت لمصر فى معظم أيام الدولة القديمة حكومة منظمة قادرة على تسيير الأمور، فازدهرت الحضارة، والدليل على ذلك ما خلفه لنا هذا العصر من آثار العمارة الكثيرة، وروائع الفن والمصنوعات. وأقوى دليل على ما كان يسود البلاد من حُسن تنظيم وثراء ما تركه لنا ملوك هذه الدولة من أهرام، مثل هرم زوسر المدرج فى سقارة، وأهرام الجيزة الثلاثة لخوفو وخفرع ومنكاورع، وهرم أوناس.

كما تتجلى عظمة العمارة أيام هذه الدولة فى المعابد والقبور والمصاطب التى خلفتها لنا بجوار الأهرامات، وبلغت القدرة والمهارة الفنية حدها من الكمال فى هذا العصر، كما يتمثل ذلك فى تماثيلها : مثل تمثال الملك خفرع، وتمثال الكاتب المصرى، وتمثال شيخ البلد، وكذلك النقوش والصور التى تحلى جدران القبور فى جبانات الد ولة القديمة.

أما النهضة فى مجال العلوم الرياضية والفلك والطب وألوان المعارف الأخرى فهى نهضة كبيرة، كما بلغت آداب المصريين الاجتماعية ومثلهم الروحية وتعاليمهم التربوية والخلقية درجة كبيرة من الرفعة والسمو.

والصورة التاريخية السريعة لملامح عصر الدولة القديمة (من حوالى ٢٦٩٠ ق.م. إلى حوالى ٢١٨٠ ق.م) التى عرضناها فى بداية هذا الفصل لها أهمية عند تعرضنا للنظم القانونية التى سادت هذه الفترة. ولابد من الإشارة إلى أن الظروف الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية لها انعكاساتها وتأثيراتها الهامة على هذه النظم.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن هذه الدولة سوف تنهار تماما مع نهاية الأسرة السادسة ويبدأ عصر جديد من الاضمحلال مع بداية الأسرة السابعة ..

وسوف نلاحظ أن النظم القانونية فى الأسرتين الثالثة والرابعة وبداية الأسرة الخامسة قد تأثرت بالقوة السياسية الناتجة عن الاصرار على الوحدة ومحاولة رعايتها، ولكن مع بداية الضعف الذى أدى فى النهاية إلى النهيار تبدلت النظم القانونية بعض الشىء مسايرة الأوضاع والظروف الأخرى السائدة.

نظم القانون العام

فى عهد الدولة القديمة

قد يكون هناك اتفاق بين الملك الفرعونى والملوك فى الممالك الشرقية الأخرى المعاصرة له من حيث إنه ابن الإله، بل وأحيانا أحد الآلهة، رلا أن الاختلاف الجوهرى يكمن في أن الملوك الآخرين كانوا فى أغلبهم كسالى متعجرفين منزوين فى قصورهم، لا يهتمون بالأعمال الكبيرة ولا بالأبنية الضخمة والتشييد عموما،

أما الفرعون فيوجه إهتمامه إلى تنظيم البلاد وإلى نمو شعبه وإلى نشر العدالة والسلام ويتولى بنفسه الإدارة واختيار كبار الموظفين الأكفاء لإدارة شئون الحكومة والجهاز الإدارى للدولة ويكافىء المجدين منهم، وفوق ذلك يجد الفرعون وقتا لديه للإهمام بالعلوم وتأليف الكتب.

كما نلاحظ أن الأمراء أولاد الملوك كانوا يتمرسون على الأعمال منذ صغرهم وكانوا يبدأون السلم الدارى من أوله وينتقلون فى مختلف الوظائف إلى أن يصلوا إلى الوظائف الإدارية الهامة مما يجعلهم أكثر إدراكا لحال البلاد ومشاكلها وبالتالى يصبحون مؤهلين للحكم أو للمعاونة فيه.

وفى الدولة القديمة أصبحت مؤسسات الدولة واضحة المعالم، محددة المهام سواء فى البلاط أو فى الحكومة أو فى الجهاز الدارى أو المجالس الاستشارية ووجد منصب الوزارة فى وقت لاحق من هذه الدولة.

البـــلاط :

مع قيام الوحدة بين الشمال والجنوب وجد نظام المركزية السياسية والإدارية كما ظهر فى الأسرتين الأولى والثانية ومع ترسخ الوحدة فى الدولة القديمة زادت سلطات الملك وبالتالى زادت أهمية البلاط والعاملين فيه واختصاصاتهم وكانت أملاك البلاط الملكى واسعة وزاد اتساعها مع ضم أملاك ملك الشمال أو مصر السفلى إلى أملاك ملك الجنوب أو مصر العليا، مما أدى إلى زيادة العاملين فيه وهؤلاء تختلف أعمالهم من دينية إلى مدنية إلى قضائية إلى عسكرية.

فإدارة العبادة الملكية من الإدارات الهامة في البلاط وهى المكلفة بكل ما يخص العبادة الملكية وإدارة أموالها فى أنحاء البلاد ويطلق عليها «البيت الأحمر» تمييزا لها عن «البيت الأبيض» وهو مقر إقامة الفرعون. والبيت الأحمر مسئول عن مزارع الكروم المملوكة له ولها رئيس لمزارع الكروم فى الإدارة المركزية ويعاونه مسئول عن مزارع الكروم في مصر العليا وآخر فى مصر السفلى ولكل منهما معاونين فى كل المدن والقرى.

وإدارة القرابين الملكية ترأسها احدى الشخصيات الكبيرة فى البلاط ذات تقدير وألقاب شرفية وله مجموعة من المساعدين عملهم الأساسى تأمين القرابين المستخدمة فى دور العبادة الملكية وتتبع الإدارة ورش صغيرة لإعداد القرابين من خبز وكعك وحلوى.

ومن المعاونين الشخصيين للملك أمناء الأسرار الملكية وقد بدأت هذه الوظيفة بشخص واحد فى الأسرة الثالثة ولكنها أصبحت فى الأسرة الرابعة أوسع نطاقا ويبدو أن الملك أوجد حوله ما يمكن أن نطلق عليه المجلس الخاص يأخذ الملك رأيهم عند إعداد السياسة الملكية العامة. وأصبح أمناء الأسرار

الملكية يختارون من بين كبار الموظفين الإداريين والعسكريين والقضائيين إلا أن النصوص لم تبين لنا كيفية أخذ رأى هؤلاء النصحاء هل من خلال مجلس أم على شكل فردى. وفى الأسرة السادسة أصبح الوزير يضم إلى مهامه الأخرى وظيفة كبير أمناء الأسرار الملكية.

إدارة بيت الملك وهى المسئولة عن مجموعة الخدمات الإدارية الخاصة بالحياة اليومية، دخل مقر إقامة الملك.

وإدارات أخرى منها إدارة الأموال الخاصة للملك وإدارة المراسم الملكية وهى موجودة من الأسرة الثالثة ولكن دورها يزداد وينمو مع الأسرة الخامسة.

ومع تطور الأمور زادت الإدارات فى البلاط الملكى كما زاد عدد العاملين فيها حتى أصبحوا يشكلون شبه حكومة أخرى ومع الأسرة الخامسة وجدت وظيفة رئيس أعمال البلاط، إلا أنه مع بداية الأسرة السادسة، التى بدأت فيها مظاهر بداية انهيار الدولة القديمة وتقلص سلطات الفرعون، بدأت تقل أهمية هذه الوظيفة. ومن العلاقات المميزة لنهاية الأسرة السادسة هو تراجع جهاز البلاط الملكى حتى أصبح القصر لا يحوز من سلطاته السابقة الا سلطة محدودة فى البيت الخاص للملك كما تضاءل دخل البلاط الملكى وأملاكه.

الحكومة المركزية :

بما أن الملك يرأس الدولة فله وحده السلطتين التنفيذية والقضائية. وهو يمارس سلطته التنفيذية بمعاونة كثير من الموظفين ولكن الملاحظ أن سلطته فى اختيار هؤلاء المعاونين ليست مطلقة بل إنه مضطر إلى الالتزام بالنظام القانونى الذى يتمثل فى الاختيار للوظائف الكبرى طبقا لقاعدة الأقدمية أو الأسبقية.

ومن مصادر التاريخ الهامة السيرة الذاتية التى كتبها ثلاثة من كبار الموظفين فى تلك الدولة يمكن الخروج بالكثير من الاستنتاجات وأهمها أن

الاختيار للوظائف العامة لم يكن وراثيا وأنه لم يكن محصوراً فى طبقة معينة بل إنه كان مفتوحا لجميع المصريين ماداموا يلمون بالقراءة والكتابة وأن هناك سلم دارى كامل ومتدرج يبدأ من وظيفة كاتب وهو يعين بقرار ملكى وكل ترقية تمنح له أو كل وظيفة ينتقل إليها تكون بقرار ملكى إلا إذا كانت وظيفة من نفس درجته، وهو يبدأ كاتباً فى إحدى الإدارات الملكية فى أحد الأقاليم ثم يستمر فى الخدمات الإدارية فى ذات الإقليم ثم ينتقل إلى الإدارة المركزية للإقليم حيث يتبعه الإدارات الأصغر فى هذا الإقليم وبعد أن يمر على الإدارات المختلفة ويرتقى فى السلم الإدارى يمنح رتبة شرفية هى : الحق فى حمل العصا.

وهى رتبة تمنح للموظفين الملكيين المتوسطين، وأخيرا قد يتوج عمل هؤلاء بالانتقال إلى الحكومة المركزية فى العاصمة كرئيس لإحدى الإدارات الهامة كالأشغال العامة أو الإدارة المالية أو إدارة القرابين الملكية وقد يمنح العضوية فى مجلس الحكومة العالى.

ومن الملاحظات القيمة على هذا النظام القانونى للإدارة المركزية أنه نظام يكاد يكون مفروض على الملك أن يتبعه فهو مقيد فى الاختيار ومقيد فى الترقية. وكان الملوك فى بداية الدولة القديمة يجعلون الأبناء الملكيين يسلكون هذا النظام من أول السلم الإدارى فيبدأ كاتباً ثم كاتباً ملكياً حتى يمكن منحه أى وظيفة عليا فى الإدارة المركزية.

المستشار :

أعلى موظف فى الدولة هو المستشار ونظرا للنظام المركزى فقد بلغت سلطاته البلاد كلها منذ الأسرة الثالثة، ومن أبرز أمثلة هذه الوظيفة الجليلة هو إيمحتب مستشار الملك زوسر صاحب الهرم المدرج فى سقارة.

والمستشار هو رئيس المجلس الأعلى للحكومة أو مجلس العشرة الكبار دون أن يكون عضو فيه. وهو يحمل تفويضا من الملك لممارسة السلطة التنفيذية ويظهر ذلك من خاتمه الملكى.

وحتى نهاية الأسرة الخامسة لم يكن للمستشار الحق فى قيادة الجيش بل كان هناك مبدأ أساسى للتنظيم الإدارى منذ بداية الأسرة الثالثة يتضمن الفصل الكامل بين السلطة المدنية وقيادة الجيش.

مجلس العشرة الكبار من الجنوب :

وهو المجلس الأعلى للحكومة وقد احتفظ بتسميته من قبل وحدة الشمال والجنوب وأن اختلف تشكيله واختلفت مهامه فقد كان هذا المجلس قبل وحدة الشمال والجنوب يتشكل من كبار الاقطاعيين وأعضاء الأسر الثرية فى مملكة الجنوب كما كانت العضوية فيه وراثية.

ولكنه منذ الأسرة الثالثة أصبح يضم كبار الموظفين فى الدولة مثل كبير المهندسين الملكيين ورئيس الأشغال العامة ورئيس البوليس وحاكم المقاطعة الحدودية الغربية ورئيس إدارة الضرائب وبعض قادة الجيش وبعض الكتاب الملكيين. وأحيانا أحد الأبناء الملكيين شريطة أن يكون دخوله طبقاً للنظايم القانونى أى مروراً بالوظائف الأدنى.

ومهمة هذا المجلس هو رئاسة الجهاز الإدارى للدولة وتأكيد تنفيذ القرارات والأوامر الملكية. وليس لهذا المجلس اختصاص تشريعى حيث أن هذا الاختصاص من حق الملك ولكن على المستشار ومجلس العشرة الكبار من الجنوب أن يتأكدوا من تنفيذ التشريعات الصادرة من الملك.

ومع الأسرة الرابعة تأكد نفوذ هذا المجلس ودوره كمجلس أعلى للحكومة وأصبحت لأعضائه مراكز سامية حتى أن بعض الفقهاء يرى أن أعضاء هذا

المجلس أصبحوا يكونون طبقة جديدة من النبلاء الإريين حلت محل طبقة النبلاء الاقطاعيين السابقة على الوحدة. ومنذ الأسرة الخامسة أضيفت إلى مهام هذا المجلس بعض الاختصاصات القضائية.

ولكن مع بداية الأسرة السادسة بدأت تتضاءل مسئوليات هذا المجلس ومهامه لصالح منصب الوزير الذى انتقلت إله الكثير من سلطات مجلس العشرة الكبار. وتراجع دور هذا المجلس إلى مرتبة ثانية. ومع نهاية الأسرة السادسة كاد أن يصبح لا عمل له.

الوزيـــر :

مع بداية الأسرة الرابعة أدخلت بعض الإصلاحات على الحكومة والجهاز الإدارى للدولة حتى تواكب التطور السياسى للدولة.

وكان من بين هذه الإصلاحات إنشاء وظيفة جديدة إسمها : «قاضى الباب الملكى» إلا أن جمهور فقهاء تاريخ النظم القانونية المصرية اتفقوا على أن مهام هذه الوظيفة الجديدة هى نفسها وظيفة الوزير فى العصور الأخرى وأصبح لقب الوزير يميز هذه الوظيفة.

ومنذ الأسرة الرابعة أصبح الوزير هو أكبر موظف رسمى فى الدولة وله سلطات واسعة وله رئاسة الجهاز الإدارى للدولة كما أنه يقلد أعلى لقب شرفى فى البلاد.

وغالبا ما كان شاغل منصب الوزير هو أحد الأبناء الملكيين بالإضافة إلى كونه كبير كهنة توت إله القانون وكبير كهنة ماعت إلهه العدالة وكبير كهنة سشات إلهه الإدارة.

أما فى الأسرة الخامسة فلم يعد يشغل المنصب أحد الأبناد الملكيين بل يسمح لأى مصرى من كبار الموظفين والشخصيات الهامة أن يكون وزيراً.

والوزير موظف مدنى ولم يحدث أن وجد وزير من قادة الجيش ولكنه وإن كانت الإدارة العسكرية من مهامه إلا أنه لم يمارس قيادة أى قوات عسكرية.

لاحظنا فى الأسرة الثالثة أن المستشار كان هو الرئيس الأعلى للجهاز الإدارى ولكن مع بداية الأسرة الرابعة والإصلاحات الإدارية التى تضمنت إنشاء وظيفة الوزير انتقلت إليه هذه الصلاحيات ولم توضح المصادر التاريخية العلاقة بين الوزير والمستشار ويبدو أن هذا المنصب الأخير توارى مع الوقت حتى اختفى حيث إن الوزير ضم لقب المستشار إلى ألقابه الأخرى الكثيرة كما أن المصادر تذكر أن الوزير أصبح هو أقدم أهل مصر.

ومن خلال دراسة الألقاب المراسمية التى يحملها الوزير يمكن أن نحدد اختصاصاته الهامة والواسعة بعيدا عن الألقاب الدينية.

فالوزير مفوض من الملك فى اختصاصاته التنفيذية وبالتالى له الحق فى استخدام الخاتم الملكى.

وكان الوزير على رأس الإدارة المركزية ويشرف على المحفوظات الملكية حيث تحفظ المراسيم الملكية والعقود والوصايا والمستندات الهامة.

ويشرف على إدارة الرسائل الملكية ورئيس جميع الأعمال الملكية ويشرف على الخزينة العامة وعلى الضرائب وعلى أعمال الزراعة وعلى بعثات التعدين واستثمار المناجم والبعثات الخارجية وإدارة الجيش والأسطول.

وخلال الأسرة الخامسة أيضا أضيف للوزير اختصاص قضائى حيث أصبح القاضى الأعلى ورئيس المحكمة العليا أو محكمة القضاة الست.

ومع الأسرة السادسة زادت مسئوليات الوزير واختصاصاته حيث انتقلت إليه سلطات مجلس العشرة الكبار من الجنوب كما سبق أن ذكرنا وزادت مسئولياته القضائية فقد أصبح له أن يكون قاضيا وحيداً فى بعض حالات

الاستئناف. وكان هذا التوسع فى الاختصاصات كمحاولة من الملك لانقاذ وحدة السلطة أمام حكام المقاطعات الذين أكسبوا أنفسهم سلطات الملك فى مقاطعاتهم ولم يعد أمام الملك إلا التسليم للوزير بسلطات واسعة.

نائب الملك لمصر العليا :

من المناصب الهامة فى الدولة القديمة منصب نائب الملك لمصر العليا فى «نخن» العاصمة القديمة للجنوب وكان له مركز متميز ويحمل لقب أميرى. وظل هذا المنصب موجودا طوال حكم الأسرتين الثالثة والرابعة ولكن مع نهاية الأسرة الخامسة تم ضم هذا المنصب أيضا إلى الوزير وأصبح حاكم مصر العليا أحد كبار الموظفين ولكنه ليس نائبا للملك.

وكان نائب الملك للجنوب فى «نخن» يحمل التفويض الملكى وبالتالى له الحق فى استخدام الخاتم الملكى. ولكنه لم يكن عضوا فى مجلس العشرة الكبار.

الجهاز الإدارى المركزى للدولة :

يضم الجهاز الإدارى المركزى للدولة مجموعة من الإدارات الكبيرة التى يوكل إليها جميع المهام الإدارية فى الدولة نذكر منها :

أ- بيت الملك :

تتخذ الإدارة الإدارة المركزية للبلاد مقراً لها بجانب مقر الملك لهذا تسمى بيت الملك وكان لها فروع إقليمية فى كل مقاطعة وهى من الإدارات الرئيسية التى كانت تتبع المستشار فى الأسرة الثالثة وتتبع الوزير منذ الأسرة الرابعة وهى مسئولة عن الخدمات الإدارية للدولة وتضم ادارات ذات أهمية خاصة منها الرسائل الملكية وهى المسئولة عن بريد الملك كما أنها همزة الوصل بين

الإدارات وتؤكد نقل الأوامر الملكية وهناك إدارة السجلات الخاصة بالحفظ أو الأرشيف وإدارة خاصة بالأختام الملكية.

ب- الإدارة المالية :

وهى المختصة بالإشراف على البيت الأبيض أو الخزانة العامة للدولة وخزائن الغلال والمخازن العمومية والتموين.

جـ- إدارة العبادة الملكية :

وهذه الإدارة تسمى البيت الأحمر وهى مسئولة عن العبادة الملكية ومواردها ومصاريفها بالإضافة إلى اختصاصها من النواحى الخاصة بالمراسم الجنائزية الملكية.

د- إدارة الأشغال العامة :

مهمتها الأساسية هى البناء والتشييد لكل ما يتعلق بذلك من تنظيم الأيدى العاملة والتزويد بالأدوات الأساسية ومن أكبر موظفيها مهندسى الملك ومدير الإنشاءات البحرية ومدير الترسانة البحرية.

هـ- إدارة الضرائب :

وهذه الإدارة إزدادت أهميتها من الأسرة السادسة حيث أصبحت الضرائب تقدر علي الدخل وتخضع لها الأموال العقارية والأموال المنقولة حسب الإحصاء العام للثروة الذى يعد كل سنتين مع التعداد العام للشعب.

و- إدارة المياه :

وكانت تختص بمياه النيل والترع والبحيرات وكان عليها متابعة الفيضان

وحسابه بكل دقة وتسجيله فى كل عام على الحجر المعروف باسم حجر باليرمو من سنة إلى سنة.

ز- الجيش :

تطور الجيش الوطنى خاصة خلال الأسرة الثالثة وأصبح هناك جيش برى وأسطول بالإضافة إلى بعض قوات عسكرية من المرتزقة وكانت قيادة الجيش البرى والأسطول قيادة موحدة ولم تكن وراثية إلا أنه مع الأسرة السادسة بدأ الملوك يجعلون القيادة داخل الأسرة الملكية من أجل الرقابة المباشرة على الجيش.

ومع نهاية الأسرة السادسة بدأ الجيش الملكى الوطنى يتناقص فى عدده وعدته وزاد الاعتماد على المرتزقة الذين تزايد أيضاً نفوذهم.

كما تزايدت جيوش أمراء الاقطاع.

نظم القانون الخاص

فى الدولة القديمة

فى هذه المرحلة من تاريخ القانون المصرى القديم كانت النزعة الفردية فيه ظاهرة فقد كان الأشخاص جميعهم متساوون فى الحقوق فلكل فرد الحق فى أن يتملك ما يشاء من العقارات والمنقولات كما أن حق التصرف فى الأموال بأى صورة كان مكفولا للمالك.

ومصادرنا فى هذه الفترة عقود البيع المعثور عليها، أحدها يرجع إلى الأسرة الرابعة فى عهد الملك خوفو، كذلك سجلات تحديد الضرائب وسجلات التعداد العام ونقوش المعابد التى تبين استيفاء العمال لأجورهم. ومن هذه الآثار يمكن دراسة بعض نظم القانون الخاص فى تلك الحقبة.

نظام الأســرة :

ذكرنا أن القانون الذى يحكم هذه الحقبة، ذو نزعة فردية ويبدو ذلك واضحا فى نظام الأسرة فهى تتكون من الأب والأم والأولاد فقط.

وكان لكل مصرى أن يتزوج من امرأة واحدة فقط وتدل النقوش والتماثيل على المساواة بين الرجل والمرأة فى الحقوق حيث تظهر المرأة فى نفس حجم الرجل وتقف بمحاذاته.

والمرأة المتزوجة لها الحق فى التعاقد وتملك العقارات دون أن يتوقف ذلك على إذن من زوجها فلها أهلية أداء ولها ذمة مالية منفصلة، فقد ذكرت إحدى السير المنقوشة أن امرأة توفيت وتركت لابنها خمسين أروراً من الأرض الزراعية فكان من حق المرأة أن تتملك العقارات ملكية خالصة لها. كما أن الذمة المالية للأولاد كانت منفصلة ولهم حق التملك وحدهم بعيداً عن ملكية الأسرة المشتركة ولم يكن للأب سلطان على ما يملكه أفراد الأسرة.

نظام المواريث :

كانت ثروة الأب تنتقل عند وفاته إلى أولاده وأولاد الأولاد، ووفاة الابن لا تمنع من توريث ابن الابن. ويكون توزيع التركة بأنصبة متساوية بين الأول دون تمييز للابن الأكبر أو للذكور على الإناث. وعند انعدام الأولاد فإن التركة تؤول إلى الأخوة والأخوات.

الو صايـا :

حرية الإيصاء كانت مطلقة دون التزام من الموصي بنصاب لمراعاة حق الورثة كما أن الوصية جائزة للوارث، ولغير الوارث. والمصدر الرئيسى لهذا الموضوع هو وصية الوزير نيكاورع من الأسرة الرابعة والتى يوصى فيها

بأمواله لأفراد أسرته. فقد أوصى نيكاورع إلى زوجته بنصيب أكبر من نصيب ابنه في الميراث . ولتأكيد خلو تصرف الموصى من عيوب الرضا فإن الوصية كانت تدون كتابة ويشترط فيها صحة العقل والبدن : « .... نيكاورع ... وكان لا يزال حيا علي قدميه وغير مريض...»

نظام الـرق :

يظهر من المصادر أن القانون المصرى لم يأخذ بنظام الرق فى تلك الحقبة والدليل على ذلك عدم ذكر الرقيق في التعداد العام للثروة الذى كان يحصى العقارات والمنقولات، ولا يذكر الرقيق ، كما وجدت بعض عقود البيع التى يشهد عليها بعض العمال وهذا يعنى أنه حر وليس رقيق.

ويرى بعض الفقهاء أن تلك الفترة وجد بها نوع من الرقيق العام وهم أسرى الحرب من الأجانب الذين كانوا يعملون فى المزارع المملوكة للدولة بلا أجر.

حق الملكيـة :

فى بداية الدولة القديمة كان حق الملكية حقا مطلقا بما يحويه من عناصره الثلاث الاستعمال والاستغلال والتصرف . فالأراضى العقارية كانت مملوكة للأفراد بعكس الحال فى أماكن أخرى حيث تكون جميع الأراضى مملوكة للدولة ويكون للأفراد عليها حق الانتفاع فقط، بل إن الدولة تبيع أحيانا للأفراد بعض ممتلكاتها وفى السيرة الذاتية لـ متن، التى سبقت الإشارة إليها، تنص على أنه اشترى من الدولة مائتى أرور من الأراضى الزراعية.

ونظام الملكية بهذا الشكل يعد نظاماً متطوراً فالمالك له الحق المطلق فى الاستعمال أو البيع أو الهبة أو الوصية أو الإيجار.

والعقود الناقلة للملكية كانت تخضع لإجراءات التوثيق والشهر فى مكاتب التوثيق التى كانت تتأكد من الأطراف والشهود وتقوم بختم العقد ليصبح رسميا.

وإلى جوار حق الملكية وجدت حقوق أخرى كحق الانتفاع الذى كانت الدولة تمنحه لكبار موظفيها على بعض أملاكها فتحتفظ بملكية الرقبة وتتنازل لأفراد عن حق الانتفاع وكان هذا الحق فى كثير من الأحيان وراثياً كحق الملكية. كما وجدت أنواع من حقوق الارتفاق كحق المسيل وحق المجرى فى مجال الرى والتى تقوم بين ملاك الأراضى المتجاورة.

وحيث إن حق الملكية مكفول بجميع عناصره فقد وجدت عقود البيع التى تثبت التزامات البائع والتزامات المشترى كما وجدت عقود الإيجار المختلفة كإجارة الأشياء وإجارة العمل.

فترة الاضمحلال الأولى

أو العصر الوسيط الأول

من حوالى ٢١٨٠ ق.م إلى ٢٠٦٠ ق.م

بانتهاء الأسرة السادسة تبدأ مرحلة اضمحلال للدولة المصرية بعد الإزدهار الذى نعمت به فى عصر الدولة القديمة، فقد انفلت زمام الحكم من الفرعون، وساد الإنحلال السياسى، والتفكك الاجتماعى، ورجعت البلاد إلى ما كانت عليه قبل عهد الوحدة من انقسام وتفرق، وقامت المعارك التى تشبه الحرب الأهلية، أو محاولات الاستقلال، وهى فترة أزمات مختلفة عموماً، منها الانقلابات ومنها محاولات الاغتيال والتسميم.

وقد صارع ملوك هذه الأسرات الموت بشراسة، كما يظهر من أماكن

الجروح على مومياواتهم والمعلومات المتوفرة عن هذا العصر المضطرب قليلة ومحدودة. وتغطى هذه الفترة الأسر من السابعة إلى العاشرة.

الأسرتان : السابعة والثامنة :

وتنسب الأسرتان السابعة والثامنة إلى «منف» ومعلوماتنا عن الأسرة السابعة ضئيلة، بل تكاد تكون منعدمة، حتي إن «مانيتون» يذكر بها سبعين ملكا حكموا سبعين يومـا، وفسرها آخرون بأنهم حكموا سبعين عاما، ولا تعرف أسماؤهم أو أعمالهم. كذلك فإن الأسرة الثامنة تتضارب حولها الآرء بان رأى مانيتون وبردية تورين وقائمتى سقارة وأبيدوس، خاصة من حيث ملوكها ومدة حكمهم.

وقد ساد خلال عهد هاتين الأسرتين الفقر والبؤس والقحط، وتتابعت الفتن، وانتشرت الفوضى واختل الأمن، وتلاشت السلطة المركزية، واختفى سلطان العرش، ونُهبت القبور وحُطمت الآثار. كما أغار بدو الصحراء على الدلتا وعاثوا فيها فساداً.

الأسرتان التاسعة والعاشرة :

أدت هذه الأحوال بالبلاد إلى الفوضى والتفكك، وفى خلال تلك الفوضى ظهرت فى مدينة إهناسيا (بالقرب من بنى سويف الآن) أسرة قوية، بزعامة أمير يدعى «خيتى» أغتصب العرش من الأسرة الثامنة المنفية الضعيفة. وظل ملوك الأسرتين التاسعة والعاشرة الإهناسيتين طوال مدة حكمهم يعتبرون أنفسهم خلفاء مباشرين لملوك منف، وبالتالى فهم الملوك الشرعيون وحاولوا نشر سلطانهم على أقاليم الوادى كله من «إهناسيا» ، التى ظلت مقراً لعرشهم طوال حكم الأسرتين .

وأقاموا علاقات سلمية مع أمراء أسيوط وأمراء طيبة، وحاولوا التحالف معهم ولكن سرعان ما تحول الأمر عندما تقوى أمراء طيبة، ونشبت الحرب بين أمراء إهناسيا من جهة وأمراء طيبة من جهة أخرى.

وكان النصر من نصيب أمراء طيبة، حين تمكن «منتوحتب الثانى» أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة الطيبية من إسقاط عرش «إهناسيا» ، وجلس على عرش مصر المتحدة مع بداية زوال الفوضى، ودخول البلاد فى دور إزدهار وعظمة.

ويمثل عهد الأسرتين التاسعة والعاشرة دور انتقال بين حكم الدولة القديمة المنفية وحكم الدولة الوسطى الطيبية، وتميز ذلك العهد من الناحية السياسية بالفوضي والتفكك وروح التشاحن بين الملوك والأمراء، أما من الناحية الفكرية فقد إزدهر الأدب خاصة الأدب الواقعى الخالى من عناصر الافتعال والاصطناع، والذى يترجم مشاعر الناس وإحساساتهم ترجمة صادقة، كما يبشر بالمساواة الاجتماعية والعدالة الإنسانية ويبدو أن الأدب كان يقدم إرهاصات أو تباشير بعهد مزدهر جديد من التاريخ المصرى القديم، هو عهد الدولة الوسطى.

والنظام القانونى الذى ساد هذه الحقبة ما هو إلا انعكاس لأحوال البلاد السياسية والاقتصادية فقد انتش الاقطاع وتأثر النظام القانونى المصرى بذلك وظهر ذلك واضحا فى أنظمة القانون الخاص.

نظم القانون الخاص

فى العصر الوسيط الأول

فى الحقبة السابقة سادت النزعة الفردية فى النظام القانونى أما فى هذه الحقبة فقد أثر نظام الاقطاع السائد على النظم القانونية فوجدت طبقات مختلفة بعد أن كان المصريون متساوون أمام القانون واختلف شكل الأسرة أو حجمها وصار للابن الأكبر حقوقا أكثر من حقوق باقى الأبناء، وأصبحت الملكية المشتركة للأسرة من النظم الشائعة بدلا من الملكية الفردية وجميع هذه التغييرات الجوهرية فى النظام القانونى تساير تماما النظام الاقطاعى الذى ساد هذه الحقبة.

نظام الطبقات :

نتج عن انتشار الاقطاع فى مصر فى تلك الحقبة ظهور مجموعة من أمراء الاقطاع كانوا نواة لطبقة الأشراف وكانت تشمل إلى جانب هؤلاء كبار الموظفين وكبار الملاك وكذلك الكهنة.

وكانت هذه الطبقة تتمتع بامتيازات مثل تولى الوظائف المدنية أو العسكرية. وكانت الإدارة الملكية هى الفيصل فى منح الأفراد حق الإنضمام إلى هذه الطبقة بما يقطعه عليه الملك من أراض أو بما يمنحه من امتيازات أخرى. وفى المقابل كان أفراد هذه الطبقة يتعهدون نحو الملك ببعض الالتزامات مثل السهر على خدمة الملك وتقديم القرابين فى مقبرته بعد موته.

والانتماء إلى هذه الطبقة وراثى فأولاد الشريف من حقهم أن يرثوا عنه هذه الصفة وهذا الانتماء وفى أغلب الأحوال كان الملك يمنح للورثة الألقاب التى كانت لمورثهم. ومن حق الأشراف أن يمنحوا المنح الأصغر بدورهم إلى بعض

أتباعهم فيصبح هؤلاء خاضعين لهم خضوعا مباشرا ويخضعون للملك بطريق غير مباشر.

وقد تكاثر هذه الطبقة واتسعت أملاكها نظرا لانتشار نظام إقطاع الأراضى الزراعية لكبار الموظفين والكهنة. وترتب على ذلك ضعف الملوك لصالح هذه الطبقة صاحبة الامتيازات المتزايدة، وكمثال على تضخم الامتيازات لهذه الطبقة أن أحد هذه الامتيازات وهو الإعفاء من الضرائب الملكية تحول مع الوقت فأصبح لهم الحق فى جباية الضرائب ممن يقيمون داخل حدود اقطاعهم. وانتهى الأمر بهذه الطبقة أن أصبحوا حكاماً فى أملاكهم يتولون فيها بعض السلطات العامة كالحق فى التجنيد.

يلى طبقة الأشراف توجد طبقة انصاف الأحرار، وهى تضم من أهل الريف الفلاحين والكتبة والصناع ومن أهل المدن تضم العمال.

وبين هاتين الطبقتين توجد طبقة وسطى فى المدن فقط تضم صغار المستخدمين وأصحاب المهن وهذه الطبقة لا تخضع لسيادة ما.

نظام الأسرة :

كذلك أثر انتشار الاقطاع على نظام الأسرة فقد اتسعت لتشمل عدداً أكبر فبعد أن كانت مقصورة على الرجل وزوجته وأولاده أصبحت تضم الأعمام والأخوال واولادهم وجميعهم يخضعون للأب الذى يعد رب الأسرة.

ومنذ نهاية الدولة القديمة وفى الأسرة السادسة أصبح تعدد الزوجات صباحا فللرجل أن يتخذ لنفسه أكثر من زوجة واحدة.

ويدل على ذلك أحد النقوش التى تظهر الأمير محاط بست زوجات، إحداهن فى نفس حجم زوجها والخمس الأخريات فى حجم أصغر يقدمن له

ولها مظاهر الاحترام وتدل النقوش على أن الزوجات الأخريات شرعيات وأولادهن أولاد شرعيين.

إلا أن اباحة تعدد الزوجات انعكس سلبيا علي حقوق المرأة ومركزها فى الأسرة فأصبحت فى مركز أدنى من رب الأسرة، زوجها، بل وأحياناً فى مركز أدنى من الابن البكر الذى سوف يرث مركز أبيه. بل إن هذه الزوجة كانت تخضع لوصى الزوج بعد وفاة الزوج مما يعنى أنه أصبح عليها أن تستأذن عند التصرف فى أموالها سواء زوجها فى حياته أو الابن البكر أو الوصى بعد وفاته مما يعنى أنها أصبحت ناقصة الأهلية. ولكنها رغم ذلك لم تفقد حق التملك.

ومسايرة لنظام الاقطاع ونتائجه أصبح للزوج ولاية على مال زوجته وولاية على أموال أولاده فيباشر جميع الحقوق وينوب عن هؤلاء فى جميع المعاملات، ولا يخفى أن الغرض من ذلك هو الحفاظ على الأموال المشتركة للأسرة دون تفتيت حتى تظل الملكيات الكبيرة الاقطاعية وبالتالى تظل الامتيازات.

وبعد أن كان جميع الأولاد متساوين دون تفرقة بين ذكور واناث أصبح ، فى هذه الحقبة، للابن الأكبر مركزا مميزاً فى الأسرة كما أن بعض الامتيازات آلت الى الأولاد الذكور دون الإناث.

نظام الميراث :

على نفس المنوال سار نظام الميراث فحدث فيه اختلاف كبير للمحافظة على الامتيازات الاقطاعية والحيلولة دون زوال الملكيات الكبيرة فتزول معها امتيازاتها . ودخل فى الميراث الأخوة والأخوات مع الزوجة والأولاد الشرعيين أما الأولاد غير الشرعيين فمحرومين من الإرث رغم انتشار نظام التسرى.

والابن الأكبر يتميز بنصيب أكبر وبمركز قانونى يسمح له بإدارة أموال التركة كلها حتى ولو كانت مملوكة لباقى الورثة. ويبدو أن أموال التركة كانت

تؤول بعد وفاة الابن الأكبر إلى من يليه فى السن من اخوته الذى يحوز مركزه القانونى.

ومن الملاحظات الهامة فى نظام الميراث والتى تساير فكر الاقطاع السائد أن الأنثى لا ترث فى الأموال التى آلت إلى مورثها (الأب) من إرث سابق من أسرته، بل ينحصر حقها فى الإرث فى الأموال التى اكتسبها هو حياته، لأن هذه الأموال إذا انتقلت إليها سوف تدخل حتما فى المستقبل تحت ولاية زوجها الذى يعد أجنبيا عن الأسرة.

نظام الملكية :

التطور الذى طرأ على النظام القانونى للملكية مرتبط بالاقطاع حيث إن الملك عندما يقطع الأراضى كان فى أحيان كثيرة يحتفظ بالملكية فتحول النظام من حق مطلق للملكية إلى مجرد حق انتفاع وبذلك تم توزيع عناصر الحق بين الملك والأفراد. يحتفظ الملك بملكية الرقبة ويتنازل عن الانتفاع وهذا نوع من اقطاع الاستغلال. وعلى مستوى الأسرة تحدد أيضا الحق حيث أصبح المال مملوك للأسرة كلها ملكية مشتركة لا ملكية فردية، وينفرد الابن الأكبر بمركز قانونى متميز على هذه الملكية.

أما الأموال المنقولة فملكيتها كاملة وحق استعمالها واستغلالها والتصرف فيها مكفول للمالك. وتكتسب الملكية بكافة الطرق القانونية من البيع والهبة والشراء أو المنح الملكية أو الوصية.

ونتج عن هذا النظام أن ظهرت تقسيمات كثيرة للأموال فهناك أملاك الدولة وأملاك الملك وهناك أملاك الأسرة وأملاك الفرد وهناك أموال خارجة عن دائرة التعامل كأموال الأسرة أو الاقطاعات أو أملاك المعابد وأموال أخرى غير خارجة عن دائرة التعامل.

حق الانتفاع :

ذكرنا أن الملك يحتفظ لنفسه أو للدولة بحق الرقبة ويمنح الاقطاعات لاستغلالها وهذا الحق ينتقل بالإرث. فللوارث الحق فى صفة المورث وامتيازاته وألقابه.

وعادة إذا منح الملك أو الاقطاعى الكبير إلى أحد أتباعه حق الانتفاع فإنه لا يستطيع أن يرجع فى هذه المنحة مالم يخل التابع ببعض التزاماته تجاه الملك أو الاقطاعى فيمكن أن ينفسخ عقد الهبة وتعود المنفعة إلى مالك الرقبة.

ومعلوم أن صاحب حق الانتفاع لا يحق له التصرف فى العين محل الانتفاع لأنه لا يملكها، وحقه مقصور على مجرد الاستغلال، فهو يستطيع أن يستغلها بنفسه أو أن يؤجرها للغير. والواقع أن حق الانتفاع بهذا الشكل الذى ينتقل بالإرث ولا يرجع الواهب فيه، أصبح حقاً دائماً وشبه مؤبد ويقترب من الملكية الكاملة.

عهد الدولتين الوسطى والحديثة

من حوالى ٢٠٦٠ ق.م إلى ١٠٨٥ ق.م

تغطى هذه الحقبة حوالى ألف سنة حكمت خلالها عشر أسرات من الحادية عشرة إلى الأسرة العشرين. ويقسمها فقهاء التاريخ العام إلى ثلاث دول الدولة الوسطى من حوالى ٢٠٦٠ إلى ١٧٨٥ ق.م وتضم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة ثم عصر الانتقال الثانى من حوالى ١٧٨٥ إلى ١٥٨٠ ق.م ويضم الأسرات من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة وأخيرا عصر الدولة الحديثة أو عهد الامبراطورية من حوالى ١٥٨٠ إلى ١٠٨٥ ق.م. ويضم الأسرات الثلاثة من الثامنة عشرة إلى الأسرة العشرين.

وقد مرت بمصر خلال هذه الدول أحداث سياسية وتغيرات اجتماعية كبيرة منها ثورة اجتماعية على الأحوال المترتبة على عصر الاقطاع المنقضى ومنها محاولة غزو الهكسوس لمصر ومنها التوسعات الكبيرة فى حدود الدولة المصرية التى أدت إلى تكوين الامبراطورية المصرية القديمة.

وقد أثرت هذه الأحداث الكبيرة بالطبع على النظم القانونية السائدة وقد درج فقهاء تاريخ القانون على دراسة النظام القانونى المصرى لهذه الدول معاً.

وحتي نتمكن من دراسة النظم القانونية المصرية فى هذه الحقبة فلابد من الاطلاع على أحداث التاريخ .

لمحة من تاريخ

الدولتين الوسطى والحديثة

إنهارت دولة الاقطاع وانتهت فترة الإضمحلال الأولى أو العصر الوسيط الأول من تاريخ مصر وبد أ عهد جديد من القوة والمتعة تبعه عهد آخر من الكفاح ضد الغزو الأجنبى ثم تلاه عصر استقرار وتوسع ونعرض لهذه التطورات فى الآتى :

عهد الدولة الوسطى

من حوالى ٢٠٦٠ إلى ١٧٨٥ ق.م

فى أعقاب وحدة الشمال والجنوب رأينا كيف أدت السلطة المركزية في الحكم والإدارة إلى استقرار الأمور وعندما اضمحلت السلطة المركزية بدأ استبداد حكام المقاطعات وانتشار الاقطاع وأخيرا سادت الفوضى البلاد وقامت ثورة شعبية بهدف التخلص مما كان يفرضه حكام المقاطعات على أفراد

الشعب. ويبدو أن هذه الثورة قد غيرت كثيراً من الأوضاع الاجتماعية كما أنها أثرت بالسلب على النظم القانونية التى كانت سائدة وأودت بها.

وأخيرا قامت على أنقاض هذه الاضطرابات دولة جديدة مزدهرة هى الدولة الوسطى تضم الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة.

الأسرة الحادية عشرة :

ملوك الأسرة الحادية عشرة من طيبة وكان هدف ملوك هذه الأسرة الطيبية إعادة توحيد البلاد، وقد بدأوا على أنهم ملوك لمصر العليا فقط، ثم مالبثوا أن سيطروا على مصر الوسطى أيضا، ثم وادى النيل بأكمله، واستحقوا اللقب المراسمى والشرعى لملوك البلاد. وهو ملك مصر العليا والسفلى.

ويرجع إلى ملوك هذه الأسرة الفضل فى توحيد البلاد، والقضاء على الحروب الأهلية وأبرز ملوك هذه الأسرة هو منتوحتب الثانى، الذى تمكن من لم شمل البلاد، وإعادة وحدتها فى ظل حكومة قوية.

وطبقا لمانيتون فإن عدد ملوك هذه الأسرة ١٦ ملكاً حكموا ٤٣ سنة بينما تعدد بردية «تورين» لهذه الأسرة ستة ملوك على مدى ١٦٠ سنة.

الأسرة الثانية عشرة :

لم توضح المصادر التاريخة بجلاء الطريقة التى انتهى بها حكم آخر ملوك الأسرة الحادثة عشرة (منتوحتب الخامس) (سنخ كا رع) ليبدأ أول ملوك الأسرة الثانية عشرة (أمنمحات الأول) حوالى سنة ٢٠٠٠ ق.م. الذي كان كبير الوزراء فى فترة سابقة، ولا شك أنه كان يمت بصلة قرابة إلى الأسرة الحاكمة السابقة. وكان أمنمحات الأول إداريا من الطراز الأول، يتمتع بعقلية رجال الأعمال، وكان أول ما واجهه عدد كبير من الأعداء تمكن من القضاء عليهم،

كما قضى تماما على سيطرة الأمراء المحليين واستقلالهم بأقاليمهم، وقد استخدم فى سبيل ذلك العنف تارة والحيلة تارة، حتى أخضع أمراء الأقاليم لسلطانه.

كما أنه طهر أطراف البلاد من البدو والقبائل الليبية، وأدب العصاة النوبيين، وساد فى عهده الأمن والنظام وبفضل فترحاته العسكرية تمكن من توسيع الحدود المصرية.

وقد أسس هذا الملك أسرة قوية حكمت مايزيد عن القرنين، وتعتبر مدة حكمها من ألمع فترات العرش المصرى.

ومن الملوك البارزين أيضا فى هذه الأسرة، سنوسرت الأول وسنوسرت الثالث، اللذان استكملا أعمال أمنمحات الأول في بسط السيطرة المصرية على النوبة حتى الشلال الثانى، وزصبحت هذه المنطقة مقاطعة مصرية يديرها موظفون مختصون مع بعض الفرق العسكرية الصغيرة لحماية الحدود الجيدة.

كما أكد فراعنة هذه الأسرة سيطرتهم الكاملة على الواحات وسيناء والمناطق الصحراوية، واهتموا بالعمل فى المناجم، ومن الأعمال العظيمة لهذه الأسرة أيضا قيام سنوسرت الثالث بحفر قناة فى شرق الدلتا لتصل ما بين نهر النيل وخليج السويس لخدمة التجارة. أما أمنمحات الثالث فقد ارتبط إسمه بإنشاء خزان كبير لمياه النيل بالقرب من الفيوم وهو «بحيرة موريس» لتخزين مياه الفيضان بها.

وكان آخر ملكين لهذه الأسرة قد حكما لمدة قصيرة ولم يرد لهما ذكر كبير فى التاريخ وهما «أمنمحات الرابع» و«سبك نفرو» وفى عهدهما تلاشى نفوذ الفرعون تماما، فكان ذلك نذيراً بانتهاء الأسرة الثانية عشرة، وسقوط الدولة الوسطى، ودخول مصر فى عصر فوضى وظلام مرة ثانية.

عصر الإضمحلال الثانى

أو العصر الوسيط الثانى

من حوالى ١٧٨٥ ق.م. إلى ١٥٨٠ ق.م

بانتهاء عصر الدولة الوسطى حوالى عام ١٧٨٥ ق.م. دخلت مصر فى عصر من عصور الضعف والفوضى والذل، وأشد أيام ذلك العصر اضطرابا هى الأيام التى تلت سقوط الأسرة الثانية عشرة، فقد كثر تطلع كبار الموظفين، وقواد الجيش، وكل ذى سطوة إلى عرش البلاد، أيا كان الطريق إليه بالقتل أو بالخلع أو بالمؤامرات والدسائس، مما أدى إلى اندلاع الثورات، وتتابع الحروب الأهلية.

فاضطرب الأمن، واختل النظام، وساد الفساد ونتج عن ذلك بالطبع زيادة أطماع أعداء البلاد من الخارج فوقعت فريسة فى يد الهكسوس إلى أن تمكن ملوك الأسرة السابعة عشرة من طردهم. وأسس ملوك الأسرة الثامنة عشرة أزهى العصور المصرية القديمة، هو عصر الامبراطورية.

الأسرتان الثالثة عشرة والرابعة عشرة:

بعد الوحدة التى تمتعت بها مصر خلال حكم الدولة الوسطى عادت البلاد مرة أخرى إلى الانقسام والتفكك نتيجة لتنافس أسرتين على الحكم، إحداهما تحكم من طيبة فى الجنوب وهى الأسرة الثالثة عشرة، وعدد ملوكها حسب مانيتون ستين ملكا.

وأسرة أخرى هى الأسرة الرابعة عشرة وتحكم فى نفس الوقت تقريبا من مدينة «سخا» فى الدلتا، وعدد ملوكها ستة وسبعون ويبدو أن الشرعية كانت للأسرة الرابعة عشرة، بينما القوة والمنعة كانت للأسرة الثالثة عشر. وقد تداخل

ملوك هاتين الأسرتين حتى إنه يصعب أحيانا التمييز بينهما. ولا نعرف الكثير عن الأحداث السياسية والنظم القانونية لذلك العصر، لندرة ماعثر عليه من آثار.

غزو الهكسوس (١٧٢٥ ق.م):

ونتج عن اضطراب الأحوال والتفكك والضعف وانفصال صلات الاتحاد بين الشمال والجنوب، أن تجرأت قبائل السلب والنهب الآسيوية على غزو البلاد، رغم سبق وقفهم وردهم عنها عدة مرات فى حكم أسرات سابقة.

وقد أطلق مانيتون على هذه القبائل الآسيوية، التى غزت البلاد حوالى ١٧٢٥ق.م. اسم الهكسوس وهم رؤساء قبائل سامية من أصول سورية أو فلسطينية، وقد دخلوا إلى وادى النيل من الحدود الشمالية الشرقية للبلاد، قريبا من السويس، وأقاموا فى الدلتا، وانتشروا منها فى كل البلاد، وأسسوا سلطة شبه مستمرة ومستقرة، واتخذوا لأنفسهم اللقب الرسمى لملوك مصر، واتخذوا لأنفسهم من «أواريس» فى شرق الدلتا عاصمة لهم، كما توغلوا بعض الشىء فى مصر الوسطى، وبقوا فى مصر خلال حكم الأسرات الخامسة عشرة والسادسة عشرة وبداية السابعة عشرة، وهى أسرات ضعيفة حكمت مصر العليا ورضخت لتواجد الغزاة فى الشمال.

واستمرت سيطرة الهكسوس على البلاد، وحاولوا التقرب إلى المصريين يتبنى عاداتهم التى كانت ولاشك أكثر تحضرا من عاداتهم فى بلادهم، كما حاولوا الحكم مثل الملوك المصريين القدامى، بل إنهم اتبعوا التقاليد والديانة واللغة المصرية، وحاولوا استمرار الفن القومى والبناء والتشييد، ولكنهم رغم ذلك لم يتركوا أية آثار ذات قيمة تل على حكمهم، اللهم إلا القلعة التى بنوها لتكون عاصمة لهم فى أواريس (صان الحجر). وقد ظل المصريون ينظرون إلى الهكسوس نظرة الكراهية والاحتقار، ولم يطمئنوا لهم أو يتعاونوا معهم، ولم

يستطع الهكسوس القضاء على الروح الوطنية فى البلاد بل كانت تلك الروح تقوى مع الأيام.

الأسرة السابعة عشرة:

وكان الفراعنة قد انسحبوا إلى طيبة لتجنب صاع غير متكافئ، إلي أن ظهرت فئة جديدة من أمراء طيبة، أخذوا على عاتقهم تحرير البلاد من السيطرة والاحتلال الأجنبى، فتسلحوا بالشجاعة والمهارات العسكرية، واستمدوا من الحركة التى كانت تموج بها الجماهير كلها وقوداً للثورة ضد المستعمر الأجنبى.

وكان اجتماع هذه العوامل هو الأثر الفعال فى انهيار مملكة الهكسوس، وأغلب ملوك الأسرة السابعة عشرة قضوا نحبهم فى ميادين المعارك، لذلك يستحق أمراء هذه الأسرة مركزا شرفيا، ويمكن أن نطلق عليهم بحق أسرة الانتقام أو أسرة الاستقلال. لأن تاريخها هو تاريخ الكفاح ضد غزاة البلاد. والملوك الرئيسيين لهذه الأسرة هم : سقنن رع ثم ابنيه «كاموس وأحمس». وقد حكم الأول منهما مدة قصيرة على عكس أحمس الذي حكم مدة أطول حتى أحرز النصر النهائى، فطرد الهكسوس وطاردهم حتى سوريا سنة ١٥٨٠ق.م.

ويعتبر مانتون أن أحمس هو مؤسس الأسرة الثامنة عشرة التى هى بداية عصر الدولة الحديثة، أو عصر الامبرطورية.

عهد الدولة الحديثة

أو عصر الامبراطورية

من حوالى ١٥٨٠ ق.م إلى ١٠٨٥ ق.م

تمثل الدولة الحديثة أوج الارتفاع، وقمة المجد للفراعنة، وتبدأ هذه الفترة بتمام طرد الهكسوس من أرض مصر، وهى تمتد خلال الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، ثم تبدأ مرحلة انتقال ثالث فى الأسرة العشرين.

ويمكن أن نقول إن الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة قد أعادتا إلى مصر المجد الذى شهدته فى الأسرة الثانية عشرة من عهد الدولة الوسطى، ولكن الرخاء الداخلى كان أقل بسبب الحروب الكثيرة والصعبة التى خاضها ملوك هاتين الأسرتين. وفى خلال حكم هؤلاء الأمراء سيطرة مصر على شعوب كانت تفصلها عنها مسافات شاسعة، كما كانت بينها وبينهم اختلافات فى الأعراق وفى العادات وفى الطبائع. ولم تتمكن مصر من فرض الطاعة على هذه الشعوب لمدد طويلة، فانتهزوا فترات ضعف تالية للرد بغزوات فارسية أو آشورية كما سنرى.

الأسرة الثامنة عشرة:

تضم هذه الأسرة عند مانيتون خمسة عشر ملكاً، حكموا حوالى ٢٣٠ سنة. من ١٥٨٠ ق.م إلى ١٣٥٠ ق.م. تبدأ بأحمس الأول الذى طرد الهكسوس، وأعاد مصر كلها للمصريين، ثم بدأ فى تأمين حدود البلاد، فاحتل النوبة عند الحدود الجنوبية، وأخضع بلاد الشام وفلسطين شرقا، وفرض عليهم الجزية.

ولما عاد أحمس إلى مصر كانت تنتظره مهمة إعادة تنظيم البلاد داخليا، بعد أن كانت جهوده كلها موجهة للكفاح الحربى لمدة طويلة، وكانت هذه هى

المهمة التى أخذها على عاتقه إبن أحمس : «امنحتب الأول» وخلفاؤه تحتمس الأول وتحتمس الثانى.

وكنتيجة لطول الكفاح العسكرى أصبح لمصر جيش قوى ومنظم ومدرب، وممارس لفنون الحرب لمدة طويلة، وفوق كل ذلك هو جيش منتصر. وبهذا الجيش فتحت مصر عهداً جديدا، هو عهد الفتوحات الخارجية العظمى، فوصل به تحتمس الثانى حتى سوريا ونهر الفرات، ووضع علامات حدوده هناك، ثم توغل بجيشه جنوبا إلى ما بين النهرين، كما أنه وخلفاءه قد وجهوا حملات متتالية نحو الحبشة إلى أن تمكنوا منها.

وحكمت الملكة حتشبسوت أرملة تحتمس الثانى مصر كوصية علي العرش لابن الملك، وهو تحتمس الثالث، لمدة تبلغ سبعة عشرة عاما، وقد اتسمت فترة حكمها بالصرامة وقد ركزت أعمالها علي مصر ذاتها، ولم يكن لها من أعمال خارج مصر إلا البعثة التى أرسلتها إلى بلاد «بونت»، (الصومال الآن) في جنوب البحر الأحمر.

وهذه البعثة لم يكن لها أية أهداف عسكرية ، بل كانت تجارية وسياسية بحتة. وقد أدارت حتشبسوت البلاد بحكمة، ومن آثارها الباقية مسلة الكرنك، ومعبد الدير البحرى.

وتمكن تحتمس الثالث من الحكم منفردا لمدة ٤٨ سنة، على رأى البعض، وكانت فترة من أمجد الفترات فى تاريخ مصر، وقد تمكن بحملاته العسكرية المتعددة من الاستيلاء على فلسطين وسوريا حتى الفرات وما بين النهرين وكردستان وأرمينيا فى آسيا الوسطى، وظلت هذه الأقطار تحت حكمه لمدة طويلة، وبحالة مستقرة وثابتة، أما جنوبا فقد توغل حتى وصل إلى الحبشة ماراً بالسودان الحالى والنوبة وأخضعها جميعاً، وفى البحر المتوسط أخضع قبرص وبعض الجزر اليونانية.

وقد خلف تحتمس الثالث ابنه امنحوتب الثانى، ثم حفيده تحتمس الرابع، ومدة حكميهما لا تترك الكثير ليذكره التاريخ لهما.

أما امنحوتب الثالث، وهو ابن تحتمس الرابع، فقد حكم مدة ٣٧ سنة، وكان دبلوماسيا بارعا، وسياسيا قديرا، وإدارياً بارزاً، وجندياً شجاعاً، وهو وإن لم يوسع فتوحات أسلافه (الواسعة فعلا) إلا أنه على الأقل حافظ عليها بكل اقتدار، دون أية محاولة لثورات أو حركات ضده، وأعماله فى البناء والتشييد تشهد لعصره.

وخلفه ابنه أمنحوتب الرابع تلك الشخصية المصرية العظيمة، فقد تبنى فى فترة حكمه ما اقتنع به من إصلاحات دينية، تتمثل في القضاء على النفوذ المطلق والمتزايد لكهنة آمون، إله طيبة، والتى كانت توازى أحيانا نفوذ الملك. فاتخذ فى سبيل ذلك إجراءات حاسمة بحذف اسم إله آبائه وأجداده.

وهدم مابنوه له من معابد، بل وحبس وطرد الكهنة، وطمس إسم آمون من جميع النقوش، ثم هجر طيبة كلها ومعه جميع أعضاء البلاط، وإتجه شمالاً حيث أسس فى مصر الوسطى مدينة جديدة هى «تل العمارنة» بالقرب من ملوى بالمنيا الحالية، شيد فيها قصره، واتخذها حاضرة له تحت رعاية الإله الجديد الذى اتخذه وجعله يحل محل جميع الآلهة الأخرى وهو «اتون» الذى يتمثل فى قرص الشمس، أو الإله القوى وراد الشمس.

وهذا التوحيد للآلهة فى إله واحد كامن وراء الشمس، يُعد هو الأول من نوعه فى حضارات الشرق القديم ثم اتخذ الملك امنحوتب الرابع لنفسه إسماً جيداً منسوباً إلى الإله الجديد وهو إسم «اخناتون» بمعنى رونق الشمس، ثم اتخذ عاصمة جديدة هى : خوت آتون أى أفق قرص الشمس .

وبنى اخناتون القصور الجميلة، ومعابد الإله آتون، ومنازل ذات طابع

خاص، وقد تميز الفن فى عصره بطابع خاص يتسم بالواقعية متحديا العادات والروتين، وهى نفس سياسته التى اتبعها فى توطيد دعائم ديانته الجديدة.

إلا أن ملكاً بهذه العقلية والتطور لم يكن ليدوم مُلكه طويلاً، فقد مات بطريقة غامضة. ومدة حكمه غير معلومة على وجه اليقين. وقد خلفه صهراه (زوجا ابنتيه) اللذان حاولا السير على منهجه إلا أن الثانى منهما، وهو توت عنخ آتون، قد أعاد فتح معابد طيبة وأعاد عبادة الإله أمون وغير إسمه إلى توت غنخ آمون.

وتنتهى الأسرة الثامنة عشرة بأحد الوجوه النبيلة هو «حور محب» الذى أعاد تنظيم البلاد بعد تلك التقلبات الدينية التى كان لها عميق الأثر فى كل النظم. فأعاد النظم القديمة، وأرسل البعثات إلى النوبة، وشيد الأبنية فى أجزاء مختلفة من البلاد، وأصدر مجموعة من القوانين تهدف إلى القضاء على العنف وحماية الضعفاء.

الأسرة التاسعة عشرة:

خلف «حور محب» آخر ملوك الأسرة السابقة أحد قدامى الوزراء وهو «رمسيس الأول» ملكاً على البلاد، ولما كان لا يمت بصلة قرابة للأسرة الثامنة عشرة، فقد اعتبره مانيتون مؤسسا لأسرة جديدة من ثمانية ملوك، حكموا حوالى ١٤٥ سنة من ١٣٥٠ ق.م إلى ١٢٠٥ق.م .

ولم تكن فترة حكم رمسيس الأول ذات تميز، نظرا لقصر مدتها، أما ابنه «سيتى الأول» فهو أحد عظام الفراعنة، إن لم يكن أعظمهم، وقد أمضى الجزء الأول من حكمه فى استعادة المستعمرات المصرية فى آسيا، فاتجه نحو سوريا ووصل إلى بلاد الحيثيين فى آسيا الصغرى،

ثم مملكتى بابل وآشور على الفرات الأعلى، ثم استدار نحو ليبيا بهدف

القضاء على نفوذ بعض القبائل هناك، كما أحكم السيطرة على بلاد النوبة والجنوب عموماً، ثم التفت ستى الأول لإجراء بعض الأعمال الداخلية فى هدوء، وقد ترك لنا من الآثار الهامة ما يدل على إهتمامه بإقرار الأمن والسلام والرخاء، فقد حفر قناة من النيل إلى البحر الأحمر، وفتح طريقا جديداً للقوافل إلى مناجم الذهب، وأقام المسلات العظيمة وبنى الكثير من المعابد منها معبد «أبيدوس» وبهو الأعمدة في معبد الكرنك، ومقبرته التى نحت عليها جميع أعماله وفتوحاته.

تولى الملك بعد سيتى الأول ابنه «رمسيس الثانى»، وكان قد شارك أباه في السنوات العشرة الأخيرة من حكمه الطويل، ثم انفرد بالحكم بعد موته، وكان عمره حوالى ثلاثين عاما.

ومن أهم أعماله العسكرية هى الحرب السورية عندما انتهزت الأمم الآسيوية الواقعة تحت السيطرة المصرية فرصة انشغال رمسيس الثانى فى القضاء على بعض الاضطرابات فى النوبة، لمحاولة الإفلات من السيطرة المصرية، وعلى الأخص الحيثيين، الذين كانوا يتحينون الوقت لاستعادة استقلالهم.

وتزعموا كذلك محاولات استقلال كل من سوريا وبين النهرين وأرمينيا وآشور.

وبعد عشرين عاما من الصراع تمكن رمسيس الثانى فى «قادش» من اقتراح معاهدة للسلام، تم بموجبها رفعهم من كل رمز من رموز الخضوع ليصبحوا حلفاء للمصريين، وتم الاعتراف بهم على أجزاء من سوريا الشمالية، بينما احتفظت مصر بسيطرتها على بلاد الكنعانيين وفنيقيا وفلسطين وبين النهرين.

أما على المستوى الداخلى فقد أضاف رمسيس الثانى خلال مدة حكمه الطويلة، التى بلغت حوالى ٦٧ سنة أمجاداً أخرى بما سنه من شرائع وقوانين، وبما قام به من أعمال البناء والتشييد، حتى وصل الأمر بطيبة فى عصره أن أصبحت متحفا للمعمار، ومن أهم أعماله الباقية إلى الآن، معبده فى «أبى سمبل». ويذكر البعض عن رمسيس الثانى، نظرا لولعه الشديد بالبناء والتشييد، أن وصل به الأمر فى بعض الأحيان إلى إزالة إسم من سبقه من ملوك من آثرهم ليضع إسمه هو ، للإيحاء بأنها من أعماله هو، وهذا لا يقلل من عظمته هو الآخر.

كان «مرن بتاح» هو الذى خلف «رمسيس الثانى»، وهو ابنه الثلاثين، الذى حاول الحفاظ على الانتصارات التى حققها أبيه دون اللجوء إلى القوة العسكرية، فوقع فى خطأ عدم تدريب قادة للجيوش، وعندما اتحد الليبيون واليونانيون وبعض شعوب البحر المتوسط، وهاجموا بسفنهم الحربية الثغور المصرية دفعة واحدة، كادوا يستولون على الدلتا، ويصلون إلى «منف» لولا أن استعان «مرن بتاح» بالقادة الذين كانوا فى جيوش «رمسيس الثانى» ، فتمكن الجيش من رد هذا الغزو بعد معارك دامية، مما ضمن لمصر الأمان من هذه القوات المغيرة لمدة طويلة بعد ذلك.

وظلت مصر حتى ذلك الوقت محافظة على فتوحاتها فى آسيا وأفريقيا، ولكنها لم تحاول الاستيلاء عليها أو ضمها.

أما الملوك الذين تولوا بعد « مرن بتاح» فقد كانوا ملوكا ضعافاً، منهم «سيتى الثانى» و«أمون مسس» و«رمسيس سبتاح»، وهم لم يقدموا الكثير للبلاد، بل سادت الفوضى فى حكمهم، مما شجع المستعمرات الآسيوية على التخلص من النفوذ المصرى عليها.

الأسرة العشرون:

رمسيس الثالث هو أول ملوك هذه الأسرة، وهو يعتبر آخر ملوك طيبة العظام، فقد أعاد النظام للبلاد، وصد هجمات تكتل الأعداء تحت قيادة الحيثيين، وتمكن من الانتصار عليهم براً وبحراً. كما انتصر على غزوة ليبية نصراً مؤزراً. فساد البلاد جو من الأمن والسلام والأمان. وقد شيد رمسيس الثالث الكثير من المبانى العظيمة التى تشهد على عظمته، مثل تلك الموجودة فى مدينة «هابو» كما أنه عمل على حماية التجارة والصناعة المصرية.

ثلاثون عاما حكم خلالها رمسيس الثالث البلاد، ثم تتابع على الحكم بعده تسعة ملوك، يحملون إسم رمسيس، ولكنهم لا يشبهون رمسيس الثانى والثالث إلا فى الاسم فقط دون العمل، فقد كانوا ألعوبة فى أيدى رجال البلاط، وكهنة آمون. ومع حكم رمسيس الثانى عشر آخر فراعنة الأسرة كان الانهيار الداخلى قد استشرى من جميع الوجوه. وحتى من الناحية الخارجية فقد شعرت الدول الخاضعة بحالة البلاد المتردية مما أدي بها إلى محاولات الاستقلال. بل والتفكير أحيانا فى غزو مصر كما سنرى.

نظم القانون العام

فى الدولتين الوسطى والحديثة

لم تكن مصر فى عهد الدولة الوسطى تختلف كثيرا عنها فى الدولة القديمة من أغلب النواحى، وإن وجد اختلاف بالطبع يتصل بالنظم الاجتماعية والإدارية واللغة والدين والفن. وسوف نتناول فيما يلى بعض النظم القانونية التى حدث فيها تطور واضح عما كان سائداً فى الدولة القديمة.

الملك :

كان الملك يباشر سلطانه إلى أبعد الحدود، ووجد فيه الناس رجلاً يخدم مصالح البلاد. واستطاع ملوك الأسرة الثانية عشرة أن يضعوا حدودا للفوضى السابقة، مما قضى على المنازعات الداخلية، وزاد إحساس الشعب بالأمن، ومن الأسباب التى أدت إلى تدعيم نفوذ البيت المالك فى ذلك العصر الأخذ بمبدأ تركيز الإدارة فى يد الملك، فقد أدرك الملوك أن القضاء على نفوذ حكام الأقاليم هو أضمن السبل لضمان ثبات العرش.

وقد استن ملوك هذه الدولة سنة جديدة، هى الاشتراك فى الحكم، فكان ولى العهد يشارك فى الملك، للتدريب عليه، مما ساعد الملوك على الاحتفاظ بعرروشهم الموروثة دون مشاكل وبكفاءة عالية.

كما عنى الملوك بإعادة تنظيم البلاد فى هذه الفترة على أساس قوى، وكان من أثر ذلك أن أخذت البلاد المجاورة تحسب حساباً لمصر وتقدر قوة شخصية ملوكها. وأهم ما يميز ملوك هذه الدولة هو إصلاح البلاد، وتنظيم وسائل الرى والزراعة، واستثمار المحاجر، وتقوية الصلات التجارية بين مصر وجيرانها.

كما اهتم ملوك الدولة الوسطى باثراء العدالة وكان من حق كل مصرى غنياً كان أو فقيراً أن يخاطب الملك فى شكوى مكتوبة ضد أى استغلال للسلطة وقد وجدت شكاوى من عهد الأسرتين الثانية عشرة والثالثة عشرة. بل وصل الأمر بالملوك فى الدولة الحديثة أن يرسلوا الرسل لجميع أنحاء البلاد لجمع هذه الشكاوى والتحقيق فيها وإبلاغه بالنتيجة.

ومع الدولة الحديثة استقر الأمر لصالح الفرعون بعد القضاء على الاقطاع وتنظيم البلاد من الداخل، وعادت للفرعون صلاحياته الواسعة ولكن فى ظل نظام إدارى رفيع ودقيق تحت الرئاسة المباشرة للوزير.

الوزيــر :

مع الدولة الوسطى وعلى الأخص منذ أواخر عهد الأسرة الثانية عشرة عمل الملوك على الحد من سلطة حكام الولايات وكبار أمراء الاقطاع، وكانت وسيلتهم فى ذلك أن يرفعوا من شأن وظيفة الوزير وتخويله سلطات واسعة علي الجهاز الدارى للدولة.

أما فى الدولة الحديثة ومع بداية الأسرة الثامنة عشرة فقد تعقدت وتشعبت مهام الوزير، وبلغ منصب الوزارة ذروته فالملوك لم يحتفظوا ببقائهم إلا بفضل وزراء أقوياء يسيطرون بكل قوة على النظام البيروقراطى من أجل تحقيق المصلحة العامة وإقرار العدالة.

ويظهر ذلك من نقش فى مقبرة الوزير رخميرع حوالى ١٤٥٠ق.م. حيث يشرح فى سيرته الذاتية الكثير من اختصاصاته ومهامه كوزير للفرعون تحتمس الثالث، ونقرأ من هذه النقوش :

«مراسم الاحتفال بالوزير رخمرع تبدأ بالسماح لرجال البلاط بدخول بلاط الفرعون - فليعيش فى صحة وسعادة» .... ويستمر الوصف لهذا اللقاء

الذى تم فيه تكليفه بالوزارة ، ثم من كلمة الفرعون المنقوشة يمكن أن نستنتج مدى إهتمام الدولة بهذا المنصب :

«... بعد ذلك تحدث جلالته إليه قائلاً، ادرس واجبات الوظيفة وتفهم كل مافيها. الوزارة هى ركيزة الدولة. الوزارة ليست حلوة المذاق إنما هى مرة كالعلقم..».

ومن أهمية هذه الوظيفة أن الفرعون كان يستقبل الوزير كل صباح ليتلقى منه تقريراً شاملاً عن أحوال الدولة. ولعل هذه النقطة أيضاً تبين مدى إهتمام الفراعنة المصرية بمعرفة كل ما كان يجرى فى البلاد وكل ما يتخذ من إجراءات ويهتم بمعرفة سير العدالة. فهم إذاً ملوك يملكون ويحكمون.

وكان يعاون الوزير فى أعماله عدد كبير من المعاونين، هم الكتبة أى الموظفين الإداريين المدنيين، الذين يقومون علي أعمال الشئون القانونية كإجراءات التقاضى وكذا تقدير الضرائب وجبايتها وتحرير التقارير الإدارية عن كل الأنشطة المتعلقة بالخدمات العامة للمواطنين.

وكان الوزير يعقد الكثير من الاجتماعات والمقابلات مع مرءوسيه ويتلقى تقارير تفصيلية منهم عن أعمالهم ويقوم هو بدوره برفعها للفرعون.

وكان للوزير فى هذه الحقبة اختصاص قضائى حيث أنه كان يرأس المحكمة العليا التى كانت أحكامها نهائية.

وقد وجد فى بعض الأحيان وزيرين أحدهما لمصر السفلى يرتكز فى ممفيس والآخر لمصر العليا ويرتكز فى طيبة مع وجود نائب عن الملك فى النوبة.

الجيش :

اهتم الملوك بتكوين جيش ثابت ليكون سنداص ودعماً لسلطانهم وكان لابد من الاعتماد على القوة الحربية لإقالة البلاد من عشرتها، ولإقرار السلطة

الملكية، وحماية الحدود. وقد أصبح للبلاد فى عهد الدولة الوسطى جيش قائم دائم، هو مظهر قوتها، ورمز اتحادها. ويرجع إلى ذلك الجيش الفضل فى ضم بلاد النوبة نهائياً إلى مصر فى عهد «سنوسرت الثالث» بعد أن كانت منطقة دائمة الاضطراب، ولم يكن الجيش فى الدولة القديمة ثابتاً، بل كان يجمع من أمراء المقاطعات عند الحاجة إلى الحرب. أما فى الدولة الحديثة ومع تكوين الامبراطورية والفتوحات فقد زاد الجيش وأصبح تنظيما ثابتاً وقائماً بذاته ويتبع الدولة وتم القضاء على جيوش أمراء الاقطاع.

الأقاليم الإدارية :

كانت أقسام مصر الإدارية ثلاثة : هى مصر العليا، ومصر الوسطى، ومصر السفلى، وكان تحت كل قسم منها عدد كبير من المقاطعات، يتولى إدارتها حكام أو أمراء القبائل. ولكن منذ حكم «سنوسرت الثالث» أصبح يتولاها موظفون من قبل الحكومة المركزية، لسهولة السيطرة عليها، وتاكيد الولاء للفرعون.

الإدارات المركزية :

أصبح من أهم إدارات الحكومة المركزية : الإدارة المالية، وإدارة الأشغال العامة. وكان يشرف عليها رئيس بيتى المال. وكان منصب كل منهما يلي مباشرة منصب الوزارة.

وكانت للإدارة المالية اختصاصات أهمها :

إقامة المبانى -تشييد الجبانة الملكية والمعابد المختلفة فى أنحاء البلاد، وإقامة الحصون وحفر الترع، وما يترتب على ذلك كله من عمل فى المحاجر الواقعة قرب النيل أو فى الصحارى، مما كان يستدعى نقل الأحجار على الأرض والماء، وما يستلزمه العمل من حجارين ونحاتين وملاحظين وكتاب.

كما كان من المناصب الجليلة والهامة فى الإدارة المركزية منصب مير أختام الملك وكان بمثابة وزير المالية ومدير المخازن الملكية، فيراقب توريد المواد الخام وتصنيعها ويراقب الصرف ويراجع الحسابات الخاصة بالبلاط وبالصيانة وبالطعام فى جميع القصور الملكية. وكان يتلقى التقارير من المقاطعات ويرفع بدوره تقريراً يومياً للوزير.

بعض الملاحظات الختامية عن عهد الدولة الحديثة أو عصر الامبراطورية:

تميز عهد الدولة الحديثة بالثراء والرخاء، وبلغت حضارة البلاد مستوى لم تبلغه من قبل، ويظهر ذلك في معابد ذلك العصر الكثيرة، والتى تتميز بالضخامة والفخامة، وتشير إلى جمال الصناعة، ودقة الفن. ومن أهم تلك المعابد:

الأقصر والكرنك والدير البحرى والرمسيوم ومدينة هابو وأبيدوس والنوبة وأبو سمبل. كما يتميز عهد هذه الدولة باتصال المصريين بالخارج، واندماجهم فى علاقات وثيقة مع الشعوب المجاورة، واشتراكهم في الحياة الدولية عن طريق الغزو والفتح، وأيضا الصلات الدبلوماسية، وتزاوج الفراعنة من أميرات الدول الأخرى. كما كان للعلاقات التجارية أيضا دور كبير، فقد اتسعت التجارة فشملت فينيقيا وسوريا وبونت والسودان.

ومما يمز الدولة الحديثة أيضا تقدم العلوم، وإزدهار الأدب، ورقى الحياة الاجتماعية، وشيوع الترف فى شتى مرافق الحياة، من مسكن ومأكل وملبس وأدوات الزينة ووسائل اللهو والمتعة.

والسمة العامة لفراعنة ذلك العصر هى أنهم اختطوا لأنفسهم سياسة تتسم بالحكمة، وهى عدم فرض ملكيتهم، أى عدم ضم البلاد المفتوحة إلى مصر، بل كانوا يعاملون ملوك هذه البلاد بالإحترام الواجب، ثم كانوا يشيدون

القلاع ليتكوا فيها حامية مصرية، ولم يكونوا يتدخلون فى السياسة الداخلية لهذه البلاد.

حتى أننا نجد بلاداً مثل «فينيقيا» تتفادي الاحتلال المصرى لأراضيها بالاعتراف بالسيادة الطبيعية الفرعونية سواء على أرضها أو على جزر البحر المتوسط التابعة لها. وقد يكون لمساعدة الفينيقيين دخل فى بناء فراعنة الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة الأساطيل التجارية، التى جابت البحار، واضعة مصر فى مركز علاقات مستقرة مع موانى الصومال والشام.

نظم القانون الخاص

أدت الثورة على نظام الاقطاع إلى تحلله وإنهياره، وإن ظلت آثاره باقية حتى بداية الأسرة الثامنة عشرة، إلا أن انعكاس هذه الثورة على نظم القانون الخاص كان كبيرا فقد انهارت طبقة الأشاف القديمة رحلت محلها طبقة جديدة، كما تبدلت أحوال الأفراد والنظم القانونية التى تحكم حياتهم وانقلبت أوضاعهم الاجتماعية رأسا على عقب. ومن الآثار التى خلفتها تلك الثورة بعض النصوص الأدبية التى تصفها والتى تبين ما ذكرناه :

قول أحد الحكماء : غلت مراجل الثورة فى كل البلاد بحيث سطا اللصوص على الأغنياء وسلبوهم أموالهم ... وهامت النساء فى الطرقات وترك القوم الزراعة رغم فيضان النيل لفقدان الأمن والطمأنينة... وسفك الأخ دم أخيه وقطعت الطرق وأخذ اللصوص يترصدون للزراع...

وقول حكيم آخر عن هذه الفترة :

«الذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا فى خرق باليه..» كناية عن تحول حالهم من الثراء إلى الفقر، وفى إشارة إلى ضعف السلطة يقول : «كل إنسان يأخذ ما يريده»...

ولكن مالبث أن عادت الأمور إلى الاستقار وبدأت ملامح النظام القانونى تتطور نحو النظام الفردى التى ساد في الدولتين الوسطى والحديثة ولكنه يختلف عن النظام الذى ساد فى مصر فى الدولة القديمة قبل أن يبدله الاقطاع إلى نظام يفقد فيه الفرد حريته كما رأينا.

ولكن الملاحظ أن النظام الفردى الذى عاد إلى الظهور مع الدولة الوسطى هو نظام فردى تشوبه نزعة اقطاعية. وكذلك فإن الاقطاع نفسه عندما عاد إلى الظهور فإنه لم يكن بمثل شراسة الاقطاع الأول فقد تنبه الشعب إلى حقوقه ولم يتمكن الأمراء من الاستبداد بالأمر كما فعلوا من قبل.

وتتميز هذه الحقبة بأن القانون قد أصبحت كلمته هى العليا وأصبح الالتزام به واجباً، حتى نجد أحد الملوك الأسرة الثانية عشرة يخاطب وزيره قائلا: ... «إذا جاءك الخصوم فاعمل على أن يتم كل شيء وفقا للقانون بحيث يحصل كل شخص على حقه».

نظام الطبقات :

وإن كان النظام الاقطاعى وآثاره لم ينقرض تماماً إلا فى الأسرة الثامنة عشرة إلا أن الثورة التى أودت بالنظام الاقطاعى وإنهياره أدت إلي القضاء على القيود التى كانت تقيد الأفراد وتجعلهم تابعين لأمير الاقطاع.

وأصبح الأفراد العاديين يتمتعون ببعض الحقوق التى كانت مقصورة على الأشراف مثل الدفن فى مقابر مشيدة خصيصا للحياة الأخرى، بمعنى آخر بدأت تباشير المساواة بين جميع الأفراد تنمو شيئاً فشيئاً وتنتقل من المساواة فى الأمور الدينية كالدفن إلى المساواة المدنية أيضاً. ولكن زوال طبقة أشاف الاقطاع لم يحدث دفعة واحدة كما أنه لم يقضى عليها تماما بل غير من تركيبها، فقد تكونت الطبقة الجديدة من كبار الموظفين ذوى الامتيازات. كما

استرجعت طبقة الكهنة خاصة فى الدولة الحديثة الكثير من امتيازاتهم، كما تمتع قادة الجيش بالكثير من الامتيازات.

وبهذا أصبحت طبقة الأشراف تشمل كبار الموظفين والكهنة وكبار قادة الجيش. الذين يتمتعون ببعض الامتيازات ولكن الانتماء لهذه الطبقة ليس وراثياً، وليس مقصورا على من فيها فقد أدت المساواة والحرية السائدة إلى إمكانية أن يتحول أى فرد من طبقة إلى أخرى لهذا لا يمكن أن نقول عن هذا النظام أنه نظام طبقى بالمعنى الحقيقى.

نظام الأسرة :

أصبحت الأسرة تشمل الوالدين والأولاد والأخوة والأخوات والأصهار والموالى والحظايا والخدم، وهم يخضعون جميعا لرب الأسرة، وكان المزارعون والصناع يعملون جماعات كل فى أسرته وكان كل فرد مسئول عن عمله أمام رب الأسرة وهو المسئول عنهم جميعا أمام الدولة.

وقد وجدت سجلات لقيد أسماء أفراد كل أسرة وكان رب الأسرة يقدم بياناً سنوياً عن أفراد أسرته.

كما وجدت سجلات لقيد المواليد والوفيات :

الـزواج :

يبدو أن مراسم الزواج كانت تتم في المعبد وبحضور أقارب الزوجين.

وظل نظام تعدد الزوجات معمولا به ولكنه لم يكن شائعاً ولا يحدث إلا نادراً وغالباً عند الأثرياء. أما عند الملوك والأمراد فقد كان منتشرا فقد وجدت مقابر لست زوجات للملك نب حتب رع من الأسرة الحادية عشرة. وفى الدولة الحديثة تزوج الملك رمسيس الثانى عدد كبير من الزوجات.

ولم تكن هناك مساواة بين الزوجات سواء لزوجات الملوك أو لغيرهم، ففيما يتعلق بالزوجات الملكيات يبدو أن احداهن كانت تتميز عن الأخريات فكانت تحتل المكانة الأولى وينظر إليها باعتبارها الملكة، ففى الدولة الحديثة كانت الملكة تسمى : «زوجة الإله– ام الإله– الزوجة الكبيرة للملك – سيدة القطرين» وكان إسمها يوضع داخل خرطوش ملكى.

وفيما يتعلق بزوجات أفراد الشعب فكانت هناك أولوية لاحداهن وهي التى تكون ربة البيت وعلى الباقيات الطاعة.

حقوق المرأة :

استردت المرأة الكثير من حقوقها مثل حقها فى الارث والتصرف فيه دون الرجوع للابن الأكبر أو للوصى، وإن ظلت فى عهد الدولة الوسطى لا تملك التصرف فى أموالها. وتطور الأمر بعض الشىء فى الدولة الحديثة إلى أن وصل مع بداية الأسرة الثامنة عشرة أن استعادت المرأة حرية التصرف فى أموالها دون إذن زوجها.

نظام الرق :

لم يكن الفلاحين أو الصناع من الرقيق، فى عهد الدولتين الوسطى والحيثة، وكانوا يتمتعون بكامل حرياتهم وتحسنت حالتهم كثيرا عما قبل. إلا أن مصر عرفت نظام الرق فى عهد هاتين الدولتين، خاصة أن هذا العهد تميز بأنه عهد حروب وفتوحات وانتصارات مصرية وتوسعات مما كان ينتج عنه عدد كبير من الأسرى يباعون ويشترون ويؤجرون شأنهم فى ذلك شأن السلع.

فكان الرق موجواً ولكن كان أغلب الرقيق من الأجانب وقد عرف ذلك من أسمائهم الأجنبية.

وكان الملك يوزع أسراه كعبيد على القادة والجنود أو يتركهم لمن أسرهم كغنيمة، كما كانوا يوهبون للمعابد بوصفهم نصيب الآلهة من غنائم الحرب.

وللمالك على الرقيق حق الملكية فإذا هرب العبد كان لصاحبه أن يتعقبه ويسترده ويستعين بالقضاء عليه وكان من حق المالك أن يعتق عبده وعن نظام التسرى فقد ظل شائعاً فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة كما كان موجودا فى العهد الاقطاعى.

نظام المواريث :

زال امتياز الابن الأكبر في الأسرة مع تقلص فكرة الملكية المشتركة نتيجة انهيار فكرة الاقطاع، وبالتالى عاد نظام المواريث كما كان قبل الاقطاع فقد أصبحت المساواة هى قاعدة الميراث بين الأخوة دون امتياز للابن الأكبر عن باقى الأبناء أو للذكور على الإناث. وكان الإرث ينتقل من الأصول إلى الفروع كما ينتقل من الفروع إلى الأصول. وأصبح للأولاد غير الشرعيين الحق فى الميراث بشرط إنعام الأولاد الشرعيين.

وكان التوارث شائعاً فى المهن والحرف فكان الأولاد يحلون محل آبائهم فى الأراضى والمصانع والوظائف.

حق الملكية :

ضعف حق الملكية تحت ظل النظام الاقطاعى وتفككت عناصر هذا الحق بين مالك الرقبة ومالك المنفعة، ولكن مع انتهاء العهد الاقطاعى عاد إلى الملكية شأنها وعاد إلى حق الملكية سلطانه ومن الثابت أن الأفراد كانوا يملكون الأراض فى عهد الدولتين الوسطى والحديثة وكان حقهم عليها مطلقا من كل قيد.

وكانت هناك أملاك خاصة للملك وكان يخصص لها العمال الزراعيين ليقوموا على زراعتها ثم يؤدون للخزانة الملكية محصولاتها بعد استنزال أجورهم. أما الأفراد فكانت لهم جميع حقوق الملكية على أموالهم بكافة صور التصرفات دون قيد مثل البيع والهبة والوصية، وكانت هذه التصرفات توثق أمام الموظف المختص وتسجل بمكاتب التسجيل. مرجعاً لاثبات الملكية عند التنازع أمام القضاء. كما كانت سجلات الضرائب تستخدم أيضاً لاثبات الملكية.

ومنذ الدولة الحديثة عادت الاقطاعات تظهر مرة أخرى ولكن بصورة مختلفة وهى اقطاعات الجند، فكان بعض الملوك يكافئون الجنود باقطاعهم بعض الأراضى الزراعية وكان أكثر من توسع فى ذلك رمسيس الثانى الذي عرف بمنح الكثير من الامتيازات لرجال جيشه، وأقطاعات الجند كانت ترد عليها بعض القيود منها أنها لا تقبل التجزئة وكانت تمنح بأمر ملكى يخرجها من أملاك التاج وكانت معفاة من الضرائب.

نظام التعاقد :

الإتجاه إلى النزعة الفردية فى النظام القانونى فى هذه الحقبة أدى إلى إطلاق حرية التعاقد. وقد تم العثور على عقود بيع وعقود إيجار. وفى البيع وجدت عقود بيع عقارات وظهر من النصوص إيجاب البائع ثم أداء الثمن ولا نقرأ فى النص صيغة القبول. كما وجد لدينا عقد بيع رقيق، بل وتم العثور على عقد بيع وظيفة فى الأسرة الثانية عشرة : ... «إن والدى قد صدر منه تنازل عن الوظيفة الكهنوتية التى كان يملكها إلى الكاتب إمباتيب»... وفى الأسرة السابعة عشرة عقد بيع وظيفة مدنية هى وظيفة محافظ مقاطعة «الكاب» كما وجدت عقود لبيع المنقولات، كالمواشى. أما عن الإيجار فقد وجدت عقود إيجار أشياء كالأراضى وعقود إيجار أشخاص كاستئجار الرقيق للخدمة.

العصر المتأخر

أو عصر الإضمحلال الأخير

(من ١٠٨٥ق.م إلى ٣٣٢ق.م)

يمكن أن نطلق على الفترة التى تضم الأسرات من الحادية والعشرين إلى السادسة والعشرين فترة الانهيار، فخلال هذا العصر المتأخر حدث بالفعل إنهيار فى مختلف مجالات السياسة والاقتصاد والثقافة، ووصلت البلاد إلى دور إنحلال لم تخرج منه إلا لفترات متقطعة وقصيرة، فقد انفصلت عن الامبراطورية المصرية مسعكراتها فى الشمال وفى الجنوب، وطمع فيها جيرانها الليبيون فحكموها بعض الوقت ثم آل الحكم إلى أسرات الجنوب، وفتحها آشور بانيبال واعتبرها ولاية آشورية لبضع سنين، كما تغلغل فيها الوجود الإغريقى.

أما الفترة من الأسرة السابعة والعشرين وما بعدها فقد وضع الفرس مصر تحت سيطرتهم فى أغلب هذه الفترات، إلى أن تمكن الإسكندر الأكبر من فتح مصر سنة ٣٣٢ق.م.

وهذه الحقبة التاريخية نستعرض فيها التسلسل التاريخى الهام لهذه الفترة التى تبلغ حوالى سبعة قرون والتى أصبحت فيها مصر مطمعا للقوى الأخرى، وأدت بها الأحوال فى النهاية إلى انتهاد الدولة المصرية القديمة والانتقال إلى عصر البطالمة، وحركة الإصلاح التشريعى والتقنين والتجميع، ونظم القانون الخاص فى تلك الفترة.

لمحة تاريخية

الأسرة الحادية والعشرون :

فى عهد آخر ملوك الأسرة العشرين كان كبير كهنة آمون هو «حريحور» وكان يسيطر تماما على آخر فراعنة هذه الأسرة، وهو رمسيس الثانى عشرة، ومع ذلك فقد أد به جشعه ورغبته فى الوصول إلى التاج إلى خلع مليكه، وأصبح هو الفرعون المؤسس للأسرة الحادية والعشرين، حوالى سنة ١٠٩٠ ق.م وآل الحكم إلى كبار الكهنة للمرة الأولى، ولكنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بالبلاد.

فقد بدأت الدول الآسيوية الخاضعة- منذ عهد الإمبراطورية- تشب عن الطوق، فلا تسدد الجزية لمصر، وتهدد بفسخ المعاهدات، وحاول أمراء الشمال إيقاف أو تأخير محاولات غزو هذه البلاد.

فالأسرة الحادية والعشرين نصفها من «تانيس» - صان الحجر- ونصفها الآخر من «طيبة»، وقد حكموا فى وقت واحد، وقد حاول ملوك طيبة الاستعانة بأهل الجنوب من أثيوبيا لتدعيم حكمهم وكان لذلك أثره كما سيظهر.

الأسرة الثانية والعشرون :

لابد من الإشارة إلى أن القوة العسكرية التى اكتسبتها مصر خلال عصر الإمبراطورية، والتى حققت لها الفتوحات التاريخية، كانت تعتمد فى جزء صغير منها فى أول الأمر على فرق من المرتزقة من السود، ومن القبائل الليبية، ومن أهل شروانه، ثم اضطر ملوك الأسرة العشرين إلي زيادة قوات المرتزقة، وعلى الأخص من الفرق الليبية التى تميزت عن غيرها، مما قربهم من القصر الملكى، بل حدثت بينهم وبين أميرات الأسر المالكة بعض الزيجات.

وكان من ذرية هؤلاء القادة الليبيين والأمراء المصريين «شيشنق» الذى

تمكن من التسريع على عرش البلاد مؤسسا الأسرة الثانية والعشرين «الليبية» سنة ٩٤٥ ق.م. وقد خلفه ملوك ليبيون أقوياء، منهم «أوسركن الأولش و«تاكلوت الأول» و«اوسركن الثانى» و«شيشنق الثانى» والثالث والرابع، واتخذت لنفسها من «بوباسطة» قرب الزقازيق الحالية عاصمة لها.

وكانت هذه الأسرة من الأسر الحاكمة القوية، وتركت بعض الآثار، خاصة الموجودة فى عاصمتهم فى «بوباسطة» ويؤثر عن مؤسس هذه الأسرة أنه قاد حملة وصل بها إلى القدس، ولكن نفوذ خلفائه ضعف تدريجا، وانقسمت البلاد إلى عدة إمارات.

وانفصلت النوبة عن مصر، حيث تأسست فيها مملكة مستقلة، اتخذت من مدينة «نباتا» قرب الشلال الرابع عاصمة لها.

الأسرة الثالثة والعشرون:

تعود «تانيس» -صان الحجر- فى الشرقية الحالية عاصمة مرة أخرى، وفراعنة هذه الأسرة كان سلطانهم محدودا، إلا أنهم رغم ذلك تمكنوا من هزيمة ملوك طيبة، مما اضطرهم إلى الإنسحاب إلى الحبشة، ومن هناك شكلوا تهديدا مستمرا للحدود المصرية، وقد انتهزوا فرصة الانقسامات فى الدلتا فى نهاية الأسرة الثالثة والعشرين، فقام أحدهم وهو « بعنخى» وهو من أصل مصرى، بل إنه من ذرية ملوك مصر الأقدمين من الأسرة الحادية والعشرين.

وكان يعتبر نفسه سليلهم ووريثهم الشرعى، وكان يحلم بإعادة المملكة المصرية الموحدة إلى قديم عهدها، وركب «بعنخى» النيل من الجنوب بأسطوله وجيشه، وأخضع فى طريقه جميع المدن والنقط القوية فى مصر رغم المقاومة التى واجهها من الأمراء الآخرين،

ولكنهم انتهوا بالخضوع التام له، فعاد مرة أخرى إلى عاصمته فى الجنوب «نباتا»، وترك للفراعنة الشرعيين منطقة مصر السفلى بشرط دفع الجزية.

الأسرة الرابعة والعشرون:

كان أعدي أعداء بعنخى هو مالك «سايس» -صا الحجر بمحافظة الغربية الآن- وإسمه «تف نخت» الذى لم يستسلم له بل إنه انتحل لنفسه أيضا الإسم المراسمى الكامل وهو «ملك مصر العليا والسفلى» وقد ورثه ابنه «بورخوريس» الذي اشتهر بأنه قانونى عظيم وصاحب المدونة القانونية السابق الإشارة إليها. وقد قضى سبع سنوات فى معارك مع الأثيوبيين، يحاول كل طرف أن يفرض سيطرته على الطرف الآخر، وكا بوخوريس أن يحرز النصر لولا بُعد «نباتا» جنوبا، ويذكر التاريخ لبوخوريس أنه تمكن من إيقاف الملك الآشورى «سرجون» عند سوريا، ومنعه من دخول البلاد، وإن لم ينتصر عليه نصرا حاسما، إلا أنه اضطره إلى صرف النظر عن غزو مصر.

ولم يمض وقت طويل حتى تمكن أمير طيبة «شباكا» من إحراز النصر على «بوخوريس» وقتله وأنهى حكم الأسرة الرابعة والعشرن.

الأسرة الخامسة والعشرون:

تمكن ملوك النوبة من الاستيلاء على مصر كلها حوالى سنة ٧٢٠ ق.م. وأسس «بعنخى» الأسرة الخامسة والعشرين الأثيوبية، ولكن سلطة هذه الأسرة كانت ضعيفة فى الدلتا لأن عددا من الأمراء المحليين الأقوياء كانوا ينازعونها السلطة، ولم تحكم هذه الأسرة إلا بضع عشرات من السنين.

ولما عاد بعنخى إلى نباتا تولى أمر البلاد «شباكا» الذى حاول الآشوريون

فى عهده غزو مصر، وكانوا بقيادة «سنخريب» مما اضطره إلى دفع الجزية اتقاء لشرورهم، أما ابنه وخليفته «شباتاكا» فقد رفض دفع الجزية، وحارب الآشوريين ولكنه انهزم أمامهم، فوقعت البلاد فى قبضة الآشوريين ولم ينقذها من الاحتلال إلا الوباء الذى حل بالجيش الآشورى واضطره للإنسحاب.

وكان «طهرق» هو رابع الملوك الأثيوبيين فى هذه الأسرة بعد أن قتل سلفه «شباتاكا» وقد حدث فى عهده بعض الرخاء إلي أن عاد الآشوريون مرة أخرى بقيادة «أسرحدون» لغزو البلاد، ووصل حتى منف، ثم تمكن جنود ابنه «اشور» بانيبال من الوصول إلى طيبه.

وفى حوالى ٦٦٢ ق.م تمكن خليفة «طهرق» الملك «تا أن واتى آمون» من دفع الآشوريين حتى الدلتا، وعلى أية حال فإن الوجود الآشورى لم يستمر طويلا.

الأسرة السادسة والعشرون : (النهضة) أسرة صاوية

(من حوالى ٦٦٣ ق.م إلي ٥٢٥ ق.م)

كان لأمراد «سايس» الذين كانوا يحكمون جزءا من الدلتا وضعا متميزا علي رأس حركات التحرير منذ عهد «بوخوريس» سواء فى مواجهة الأثيوبيين أو فى مواجهة الآشوريين.

وكان «نخار» – وهو المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة – قد نال اعترافا بملكه على البلاد من «أسرحدون» الآشورى، ولكن المستفيد الحقيقى من هذا الاعتراف كان ابنه «بسماتيك».

فقد انتهز فرصة انشغال آشور فى صراع مع بابل وعيلام وتمكن من طرد الحامية الآشورية من مصر، وطاردها فى فلسطين، ثم عاد إلي مصر

وأخضع أمراء الأقاليم، واضطر الأثيوبيون إلى الإنسحاب ، فخرجت البلاد في عهد «بسماتيك» من السيطرة الأجنبية المزدوجة، وتمكن من توحيد البلاد، وتميز عصره بأنه عصر اصلاح ونهضة، وساد فى عهده الرخاء والمجد سنوات طويلة بعد التمزق والانقسام والاحتلال.

ولجأ بسماتيك إلى تقوية جيوشه بفرقتين من المرتزقة الإغريق حتى يتمكن من تركيز السلطة فى يده، واستعادت القوة العسكرية المصرية سابق عهدها، وبحث الفرعون عن وسيلة لإظهار هذه القوة، فقام بحملات ناجحة على سوريا، ثم شرع فى تقوية الحدود الشمالية الشرقية والجنوبية.

بعد خمسين سنة من الحكم مات بسماتيك لخلفه ابنه «نخاو الثانى»، الذي اشتهر فى التاريخ بموقعة «مجدو» التى انتصر فيها على الجيوش السورية، ثم حاول بعد ثلاث سنوات أن يتجه بجيشه ناحية الفرات لمحاربة البابليين، وتقابل مع جيش «نيو خذنصر» عند «قرقميش» فلقى هزيمة ثقيلة مما اضطره للهرب تاركا سوريا لعدوه فى سنة ٦٠٥ ق.م.

ومما يؤثر عن عصره أن البحرية المصرية تمكنت من الدوران حول أفريقيا عن طريق البحر الأحمر، ثم العودة عن طريق البحر المتوسط، وقد خلف نخاو الثانى بسماتيك الثانى ثم ابريس، وشبت فى عهد الأخير ثورة فى البلاد وضعت أحد قواده على العرش، وهو الملك أمازيس «أحمس الثانى» وحاول الملك البابلى، نبوخذ نصر» استثمار هذه الثورة فى مصر ليستولى على الملتكات المصرية فى الأراضى السورية.

ولكنه لم يجرؤ على الوصول إلى وادى النيل وكان امازيس «أحمس الثانى» قد اضطر إلى زيادة الاعتماد على الإغريق مما زاد من أعدادهم حتى قامت مدن إغريقية باكملها فى الدلتا مثل «نقراطيس» وزادت التجارة والصناعة

اليونانية فى مصر، مما أعطى الحق لميلاد الوجود الإغريقى فى مصر، وكان هؤلاء الإغريق مبهورين بالحضارة المصرية.

الغزو الفارسى : الأسرات من ٢٧ إلى ٣١ (٥٢٥ق.م - ٣٣٢ق.م):

غزا «قمبيز» الفارسى مصر سنة ٥٢٥ ق.م فهزم بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة السادسة والعشرين، وانتهك حرمة الديانة المصرية، فأبغضه المصريون، وأصبح وادى النيل جزءا من الإمبراطورية الفارسة، ولكنه رغم ذلك ظل جزءا يعامل معاملة خاصة تختلف عن باقى أجزاء الإمبراطورة الفارسية، وكان وضع مصر متميزا، بنظمها الإدارية القديمة.

واعتبر الملك الفارسى نفسه وريثا شرعيا للفراعنة ووضع إسمه داخل «خرطوش» وأعطى نفسه لقب ملك مصر العليا والسفلي، بل واللقب الحورسى المقدس، ورغم ذلك كله فإنه لم يكتسب ود المصريين الذين تعودوا على الحرية، وكانوا متشوقين إليها، وقاموا فى سبيل ذلك بالعديد من الثورات قُضى على أغلبها، إلى أن تمكنوا حوالى سنة ٤٠٤ ق.م أثناء حكم دارا الثانى «داريوس» من أن يشبوا عن الطوق ويكونوا إلى جانب الأسرة السابعة والعشرين الفارسية، الأسرة الثامنة والعشرين المصرية.

الأسرة الثامنة والعشرين المصرية :

وهى مكونة من ملك واحد فقط هو «أميرتى»، كان جده قد آمن بفكرة أن الموت فى سبيل بلاده أفضل وأشرف من الحياة تحت الاحتلال الأجنبى، وترك الفرس الملك المصرى وأتباعه ليعيشوا فى سلام بشرط عدم الاعتداء على الأقاليم الواقعة تحت السيطرة الفارسية، وانتهز أميرتى الحفيد فرصة انقلاب الفرس على بعضهم فخرج من مخبئه على رأس أتباعه. وهاجموا الفرس، وتمكنوا من دحرهم خارج الحدود حتى سوريا، واتخذوا من «سايس» عاصمة

لهم، وأعلنوا الاستقلال إلى أن مات الملك «أميرتى» بعد ست سنوات، فتمكن أحد أتباعه من الحكم وهو «نفوريت» مكونا الأسرة التاسعة والعشرين -الوطنية أيضا- والتى بلغت مدة حكمها حوالى عشرين عاما من ٣٩٨ ق.م إلى ٣٧٨ق.م.

ثم الأسرة الثلاثين ، وهى أسرة وطنية أخرى حكمت من ٣٧٨ ق.م إلى ٣٤١ق.م. وبذل ملوكها جهدا كبيرا فى البناء، كما إزدهر فى عهدهم الفن وتقدمت التجارة.

وملوك هذه الأسرة هم :

«نقطانب الأول» و«تيوس» و«نقطانب الثالث». وقد عملوا بهمة من أجل صالح البلاد داخليا، وكانوا فى كفاح مستمر خارجيا ضد الفرس الذين كانوا يتحينون أية فرصة للعودة إلى مصر، وقد عادوا فعلا بعد انتهاء هذه الأسرة، وكونوا الأسرة الحادية والثلاثين ولكن حكمهم لم يدم إلا أقل من عشر سنوات من ٣٤١ ق.م إلى ٣٣٢ق.م فقد استولى الإسكندر الأكبر على مصر، وطرد الفرس منها، وضمها إلى امبراطوريته الناشئة، وبذلك أسدل الستار على ثلاثين قرنا من تاريخ مصر.

الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

